TEXT
PRAGMATICS
SEMANTICS
SYNTAX
MORPHOLOGY

الأستاذ الدكتور
محمود أحمد نحلة

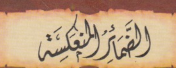
آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر

التداولية — الأفعال الكلامية

التصنيف النوعي للغات — المنهج الاستبدالي

العالميات — الاتجاه التواصلي

وظائف اللغة





42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868



٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

آفـــاق جديـــدة
فى
البحـث اللغـوى المعاصر

الدكتور
محمود أحمد نحلة
أستاذ العلوم اللغوية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨
البريد الإلكتروني e.mail: adabook@hotmail.com



الناشر

مكتبة الآداب

علي حسن

الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

نحلة ، محمود أحمد.

آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر/

محمود أحمد نحلة.-

ط١. - القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠١١.

ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك ٧ ٢٩٢ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - اللغة العربية - طرق البحث

أ - العنوان

٤١٠,٧٨

عنوان الكتاب: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر

تأليف: محمود أحمد نحلة

رقم الإيداع: ١٧٣٦ لسنة ٢٠١١م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978 – 977 – 468 - 292 – 7

مكتبة الآداب

علي حسن

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

e-mail: adabook@hotmail. com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم وأستفتحك وأستهديك، وأصلى وأسلم على نبيك ورسولك سيدنا محمد وعلى آل وصحبه أجمعين. وبعد

فهذه أبحاث حاولت بها أن أستشرف آفاقًا جديدة فى البحث اللغوى المعاصر تتجاوز الأنماط الشائعة منه مجالاً ومنهجًا، بالبعد عما تغرق فيه من الجزئيات التى أصبحت تسدّ علينا كل منافذ الرؤية الشاملة، والبحث عن آفاق من التنظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير، ومواكبة العصر الذى نعيش فيه، وذلك هو الجامع بينها على اختلاف الموضوعات التى تناولتها.

وهذه الأبحاث ليست منبتة الصلة عن التراث اللغوى العربى، بل تقف منه على أرض ثابتة، مفضلة أن تقرأه قراءة معاصرة تفيد من اتجاهات الدرس الحديث، ومناهجه، وطرائقه فى رصد الظواهر اللغوية، ومعالجتها على نحو مضبوط، يمكّنها من الكشف عن ملامح نظريات عربية الوجه واللسان موازية لنظريات غربية معاصرة، أو عن ظواهر لم يعرض لها علماء العربية القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، أو عرضوا لها ولكن لم يوفوها حقها من البحث الكاشف لها والمحيط بها؛ تجديدًا للنظر فى هذا التراث اللغوى القديم، وكشفًا عن كنوزه المخبوءة، وبيانًا لعناصر القوة فيه، وإصلاحًا لما قد يكون فيه من جوانب النقص والقصور.

وهى لا تقتصر على التراث النحوى، بل تفيد من التراث اللغوى العربى كله الموزع بين كتب النحو، واللغة، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه، والقراءات، والتفسير، والمعجمات، بما هو تراث لغوى واحد.

ومن هذه الأبحاث ما يعرض لجوانب من الـــدرس لـــم يعـــن بهـــا الدارسون العرب العناية الواجبة كالتصنيف النوعى للغات ومكان العربية فيه، والعالميات وما فى اللغة العربية منها، ووظائف اللغة.

فإذا استطاعت هذه الأبحاث أن تحفز الباحثين إلى ارتياد آفاق جديدة من البحث اللغوى المعاصر، أو أن تلقى بحجر فى ماء البحث اللغوى الراكد فتلك غاية المنى، ومنتهى المأمول. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

محمود نحلة

الاتجــاه التداولى
فى البحث اللغـوى المعاصـر

يعود مصطلح التداولية pragmatics بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكى تشارلز موريس Charles Morris الذى استخدمه سنة ١٩٣٨ دالاً على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات أو السيمية semiotics (يؤثر موريس استخدام semiotic). هذه الفروع هى:

١- **علم التراكيب syntactics أو syntax**: وهو يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

٢- **علم الدلالة semantics**: وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التى تدل عليها، أو تحيل إليها.

٣- **التداولية**: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها[١].

على أن التداولية لم تصبح مجالاً يعتد به فى الدرس اللغوى المعاصر إلا فى العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفى لجامعة أكسفورد هم أوستن J.L. Austin، وسيرل J.R. Searle وجرايس H.P. Grice، (مع أن سيرل وجرايس أتما تعليمهما فى كاليفورنيا). وقد كان هؤلاء الثلاثة من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية natural language أو العادية ordinary فى مقابل مدرسة اللغة الشكلية أو الصورية formal language التى يمثلها كارناب Carnap، وكانوا جميعًا مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ

---

(١) Levinson, S. C. (1983): *Pragmatics*. Cambridge University Press. P.I
- McArther, T. (1996): *The Oxford Companion to the English Language.* Oxford University Press. P. 718
- Horn, L.R. (1993): *Pragmatics theory,* in: Linguistics: The Cambridge Survey. I Linguistic Theory: Foundations, edited by F.J. Newmeyer. Cambridge University Press. P. 116.

مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من صميم التداولية أيضاً. ومن الغريب أن أحدًا منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث[١].

ولا تنتمى التداولية إلى أىٍّ من مستويات الدرس اللغوى صوتيًا كان أم صرفيًا أم نحويًا أم دلاليًا فالأخطاء التداولية لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجية أو النحوية أو الدلالية، وهى ليست مستوى يضاف إلى هذه المستويات؛ لأن كلا منها يختص بجانب محدد ومتماسك من جوانب اللغة، وله أنماطه التجريدية ووحداته التحليلية، ولا كذلك التداولية، فهى لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة، بل من الممكن أن تستوعبها جميعًا، وليس لها أنماط تجريدية ولا وحدات تحليل[٢].

وهى كذلك لا تنضوى تحت علم من العلوم التى لها علاقة باللغة بالرغم من أنها تتداخل معها فى بعض جوانب الدرس. ومن هذه العلوم[٣]:

- **علم الدلالة semantics**: وهو يشارك التداولية فى دراسة المعنى على خلاف فى العناية ببعض مستوياته. ونتيجة لتنامى الاهتمام بالتفاعل بين المعنى والاستعمال ظهرت اتجاهات حديثة تحاول أن تؤلف بينهما.

---

(١) Leech, G. & Thomas, J.: Language, Meaning and context: Pragmatics, in: Collinge, N.E (ed.) 1990: An Encyclopedia of Language. Routledge London and New York. P. 173 f.

(٢) Verschueren, J. (1999): Understanding Pragmatics. Arnold, London etc P.2.
- Crystal, D. (1989): The Cambridge Encyclopedia of Language. Cambridge University Press. P. 120.

(٣) Verschueren, J. (1999). P. 7.
- Crystal, D. (1989) P. 121.

- **علم اللغة الاجتماعى sociolinguistics**: وهو يشارك التداولية فى تبيين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين فى الحديث، والموضوع الذى يدور حوله الكلام، ومرتبة كل من المتكلم والسامع وجنسه، وأثر السياق غير اللغوى فى اختيار السمات اللغوية وتنوعاتها.

- **علم اللغة النفسى psycholinguistics**: وهو يشترك مع التداولية فى الاهتمام بقدرات المشاركين التى لها أثر كبير فى أدائهم مثل الانتباه، والذاكرة، والشخصية.

- **تحليل الخطاب discourse analysis**: وهو يشترك مع التداولية فى الاهتمام أساساً بتحليل الحوار، ويقتسمان عددًا من المفهومات الفلسفية واللغوية كالطريقة التى توزع بها المعلومات فى جمل أو نصوص، والعناصر الإشارية deictics والمبادئ الحوارية conversational maxims.

وكان من نتيجة هذا التداخل، واتساع مجالات التداولية وتنوعها أن أصبح من العسير وضع تعريف لها جامع مانع، وقد استطاع عدد من الباحثين أن يقدموا تعريفات كثيرة للتداولية ليس منها تعريف سلم من المآخذ عليه، وقد يناقض بعضها بعضا. ومن هذه التعريفات:

- **التداولية**: هى دراسة الأسس التى نستطيع بها أن نعرف لم تكون مجموعة من الجمل شاذة anomalous تداوليًا أو تعدّ فى الكلام المحال كأن يقال مثلاً: **أرسطو يونانى لكنى لا أعتقد ذلك!** أو يقال: **آمرك بأن تخالف أمرى** أو يقال: **الشمس لو سمحت تدور حول الأرض.**

وعلى الرغم من أنَّ إيضاح الشذوذ فى هذه الجمل قد يكون سبيلاً جيدًا

للوصول إلى نوع من الأسس التى تقوم عليها التداولية فهو لا يعد تعريفاً شاملاً لكل مجالاتها[١].

- **التداولية** هى دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفة functional perspective. وهو نوع من التعريف يحاول أن يوضح جوانب التركيب اللغوى بالإحالة إلى أسباب غير لغوية. لكن مثل هذا التعريف يقصر عن تمييز التداولية اللغوية عن كثير من فروع علم اللغة المهتمة بالاتجاهات الوظيفية فى اللغة ومنها علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة النفسى[٢].

- **التداولية** هى دراسة كل جوانب المعنى التى تهملها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التى تنطبق عليها شروط الصدق truth conditions فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط، وقَصْرُ علم الدلالة على هذا النوع من الأقوال غير مسلم به فى النظريات الدلالية التى ظهرت منذ العقد الثامن من القرن العشرين، فضلاً عن أن ما وراء ذلك لا يستطاع حصره[٣].

- **التداولية** هى دراسة جوانب السياق aspects of context التى تشفر شكلياً فى تراكيب اللغة وهى عندئذ جزء من مقدرة المستعمل user pragmatics competence[٤].

---

(١) Levenson, S. C. (1983). P. 6 f.

(٢) Ibid, P. 7.

(٣) Ibid, P. 12.

(٤) Crystal, D. (1994) A Dictionary of linguistics and Phonetics. Blackwell, Great Britain. P. 271.
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998): An Introduction to Language. Harcourt Brace Collage Pablishers. USA. P. 190.
- Horn, L. R. (1993) P. 116.

- **التداولية** فرع من علم اللغة يبحث فى كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم speaker intentions أو هو دراسة معنى المتكلم speaker meaning فقــول القائل **أنا عطشان** مثلاً قد يعنى **أحضر لى كوبًا من الماء**، وليس من اللازم أن يكون إخبارًا بأنه عطشان، فالمتكلم كثيرًا ما يعنى أكثر مما تقوله كلماته، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يمكن للناس أن يفهم بعضهم بعضًا؟

على أن مصطلح معنى المتكلم مفضل عند الذين يدرسون اللغة مــن الوجهة الاجتماعية بالرغم من أنه لا يلتفت إلى أنّ تفسير ما نسمع يحتاج إلى التحرك بين مستويات عديدة من المعنى. ومصطلح تفسير الكلام utterance interpretation المفضل عند الذين يمثلون الاتجاه المعرفى cognitive يتجنب هذا الخطأ لكنه يصرف جل اهتمامه إلى متلقى الرسالة، وفى هــذا تجاهــل للضوابط والقيود الاجتماعية التى تحكم إنتاج الكلام(١).

من هنا رأى بعض الباحثين أن للمعنى مــستويات ثلاثــة: المعنــى اللغوى وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الكلمات والضمائر والجمــل، ومعنى الكلام وهو المعنى السياقي، ثم المعنى الكامن أو الموجود بالقوة force وهو معنى المتكلم(٢) ولإيضاح ذلك نسوق المثال الآتي: إذا قال لك شــخص فى سياق محدد: **أهذه سيارتك؟** فالسياق الذى ألقى فيه السؤال لا يدع مجــالاً للشك فى أن "هذه" تشير إلى شئ محدد هو السيارة، وأن الــضمير "الكــاف"

---

(١) Thomas, J. (1996): Meaning in Interaction. An Introduction to Pragmatics. Longman London and New York. P. 2.
- Yule, G.: (1987): The Study of Language. Cambridge University Press. P. 97

(٢) Thomas, J. (1996), P. 3.

يشير إليك، وعلى الرغم من أنه ليس هناك مشكلة فى فهم معنى الكلام (وهو المستوى الأول من معنى المتكلم) فإنك حتى هذه اللحظة قد لا تكون وصلت إلى معنى المتكلم أو فهم القوة force التى تكمن خلف هذا السؤال: هل المتكلم يريد إجابة عن سؤاله بنعم أو لا أو أنه يخرج عن هذا المعنى الحقيقى إلى مقصود آخر هو التعبير عن اللوم لأن سيارتك سدت طريق المرور على السيارات الأخرى؟ وهذا هو معنى المتكلم[1].

من هنا كان أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبول هو: دراسة اللغة فى الاستعمال in use أو فى التواصل in interaction لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئًا متأصلاً فى الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل فى **تداول** negotiation اللغة بين المتكلم والسامع فى سياق محدد (مادى، واجتماعى، ولغوى) وصولاً إلى المعنى الكامن فى كلام ما[2].

وقد حدد بعض الباحثين ما تتميز به التداولية عن غيرها من اتجاهات البحث اللغوى بما يأتى[3].

١- التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوى أو هى لسانيات الاستعمال اللغوى. وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوى فى الاستعمال الفعلى من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذى

---

(١) Ibid, P. 18 f.

(٢) Ibid, P. 22.

- Crystal, D. (1994) P. 120.
- Malmkjær, K. (1991): Pragmatics, in: Malmkjær. K. (ed.): The Linguistics Encyclopedia. Routledge. London and New York P. 354.

(٣) Verschueren, J. (1999) P. 10 f.

يولد المعنى.

٢- ليس للتداولية وحدات تحليل units of analysis خاصة بها، ولا موضوعات مترابطة correlational topics.

٣- التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة (معرفية cognitive، واجتماعية social، وثقافية cultural).

٤- تعد التداولية نقطة التقاء point of convergence مجالات العلوم ذات الصلة باللغة بوصفها وصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية Linguistics of language resources.

ولما كان مجال البحث فى التداولية شديد الاتساع فقد أخذت تظهر لها فروع[١] يتميز كل منها عن الآخر، فهناك التداولية الاجتماعية sociopragmatics التى تهتم بدارسة شرائط الاستعمال اللغوى المستنبطة من السياق الاجتماعى. وهناك التداولية اللغوية linguistic pragmatics التى تدرس الاستعمال اللغوى من وجهة نظر تركيبية structural، وهى بذلك تنطلق من اتجاه مقابل للتداولية الاجتماعية، فإذا كانت هذه تنطلق من السياق الاجتماعى إلى التركيب اللغوى فإن تلك تنطلق من التركيب اللغوى إلى السياق الاجتماعى الذى تستخدم فيه. وهناك أيضاً التداولية التطبيقية applied pragmatics، وهى تعنى بمشكلات التواصل فى المواقف المختلفة وبخاصة حين يكون للاتصال فى موقف بعينه نتائج خطيرة كالاستشارة الطبية، وجلسات المحاكمة،. ثم التداولية العامة general pragmatics، وهى التى تعنى بدراسة الأسس التى يقوم عليها استعمال اللغة استعمالاً اتصاليًا.

---

(١) Crystal (1994), P. 271.

ويكاد الباحثون يتفقون على أن البحث التداولي يقوم على دراسة أربعة جوانب هي: الإشارة deixis، والافتراض السابق presupposition، والاستلزام الحواري conversational implicature، والأفعال الكلامية speech acts. وسوف نفصل الحديث الآن في كل جانب منها:

أولاً: الإشاريات deixis:

في كل اللغات كلمات وتعبيرات تعتمد اعتمادًا تامًا على السياق الذي تستخدم فيه ولا يستطاع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه، فإذا قرأت جملة مقتطعة من سياقها مثل:

سوف يقومون بهذا العمل غدًا، لأنهم ليسوا هنا الآن

وجدتها شديدة الغموض لأنها تحتوي على عدد كبير من العناصر الإشارية التي يعتمد تفسيرها اعتمادًا تامًا على السياق المادي الذي قيلت فيه، ومعرفة المرجع reference الذي تحيل إليه، وهذه العناصر هي: واو الجماعة وضمير جمع الغائبين هم واسم الإشارة هذا، وظرفا الزمان غدا، والآن، وظرف المكان هنا، ولا يتضح معنى هذه الجملة إلا إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر. ومثل ذلك أن تجد إعلانًا غير مؤرخ يقول **البيع بالمزاد العلني يوم الخميس** فلا تعرف عندئذ أي يوم من أيام الخميس يكون، وهل انقضى وقته أو لم يزل، ولكي يكون معناه مفهومًا فلابدَّ من معرفة ما يشير إليه بتحديد زمانه بالقياس إلى زمان المتكلم. ومثل هذه العناصر تسمى العناصر الإشارية deictics أو الإشاريات اختصارًا[1]، ويؤثر فلاسفة اللغة أن يستخدموا للدلالة

---

(١) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 199.
- Yule, G. (1987) P. 99.
- Crystal, D. (1989) P. 106.

عليها المصطلح indexical expressions أو indexicals اختصارًا[١]، وكان بيرس Peirce أول واضع له[٢].

ويلفت لفنسون إلى أنَّ التعبيرات الإشارية تذكير دائم للباحثين النظريين فى علم اللغة بأن اللغات الطبيعية وضعت أساسًا للتواصل المباشر بين الناس وجها لوجه وتظهر أهميتها البالغة حين يغيب عنا ما تشير إليه فيسود الغموض ويستغلق الفهم[٣]. من هنا كانت النظريات الدلالية الشكلية عاجزة عن معالجة هذه الإشارات[٤].

وقد أفضى هذا إلى ظهور ما يسمى علم الدلالة المقامى situational semantics على النحو الذى وجدناه عند باروايز وبري Barwise & Perry (سنة ١٩٨٣) حيث بذلت محاولات جادة لإدخال الجوانب السياقية فى التفسير الدلالى[٥]. فأصبحت الإشاريات مجالاً مشتركاً بين علم الدلالة والتداولية[٦]، وإن كان بعض الباحثين لا يزال يراها أدخل فى التداولية منها فى علم الدلالة[٧].

وأغلب الباحثين على أن الإشاريات خمسة أنواع: إشاريات شخصية، وإشاريات زمانية، وإشاريات مكانية، وإشاريات اجتماعية، وإشاريات خطابية

---

(١) Thomas, J. (1996) P. 9.
(٢) Levinson, S.C. (1983). P. 57.
(٣) Ibid, P. 54.
(٤) Levinson, S.C.: (1992) Deixis, in: Bright, W (ed.) 1992. International Encyclopedia of Linguistics. Oxford University Press. P. 344.
(٥) Ibid, P. 344.
(٦) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 201.
(٧) Levinson, S.C.: (1983) P.55.

أو نصية، واقتصر بعضهم على الثلاثة الأول[١]، وبعضهم على الأربعة الأخر[٢] وسوف نوجز القول فى أنواعها الخمسة:

١- الإشاريات الشخصية Personal deictics:

أوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص person هى ضمائر الحاضر، والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده مثل أنا أو المتكلم ومعه غيره مثل نحن، والضمائر الدالة على المخاطب مفردًا أو مثنى أو جمعًا، مذكراً أو مؤنثاً. وضمائر الحاضر هى دائماً عناصر إشارية، لأن مرجعها يعتمد اعتمادًا تامًا على السياق الذى تستخدم فيه[٣]، وليس من شك فى أن الضمير أنا وأنت ونحوهما له دلالة فى ذاته على المتكلم أو المخاطب، لكن السياق لازم لمعرفة من المتكلم أو المخاطب الذى يحيل إليه الضمير أنا وأنت. أما ضمير الغائب فيدخل فى الإشاريات إذا كان حرًّا أى لا يعرف مرجعه من السياق اللغوى، فإذا عرف مرجعه من السياق اللغوى خرج من الإشاريات. ولا يدخل فى الإشاريات الضمير غير الشخصى فى نحو It rains فى الإنجليزية، فهو ليس ضميرًا حقيقيًا true pronoun يشير إلى بعض الموجودات بل هو فى الحقيقة مورفيم نحوى شاغل لموقع تتطلبه قواعد التركيب الإنجليزى[٤].

ويضيف فلاسفة اللغة بعدًا آخر يتمثل فى شرط الصدق truth

---

(١) Crystal, D. (1989) P. 106.

(٢) Verschueren, J. (1999) P. 18.

(٣) Levinson, S.C. (1983) P. 69.
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 199.

(٤) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200.

condition فإذا قالت امرأة مثلاً: **أنا أم نابليون** فليس بكافٍ أن يكون مرجع الضمير هو تلك المرأة بل لابدَّ من التحقق من مطابقة المرجع للواقع، بأن تكون هذه المرأة هى أم نابليون فعلاً وأن تكون الجملة قيلت فى الظروف التاريخية المناسبة فإن لم يتحقق شرط الصدق كانت الجملة كاذبة(١). وقد نبه بيرس إلى أن الإشاريات ينبغى أن تكون محددة المرجع بتحقق العلاقة الوجودية existential relation بين العلامة sign وما تدل عليه(٢).

على أنه قد ينشأ نوع من اللبس فى استخدام الضمائر إذا تعددت مراجعها أو تبادل كل من المتكلم والمخاطب أدوار الكلام فأصبح المتكلم مخاطباً والمخاطب متكلمًا، أو نقل متكلم كلامًا لمتكلم آخر، كأن يقول رجل: **قال زيد أنا قادم الليلة/ هو قادم الليلة**، وقد جعل ذلك بعض اللغويين يفرق بين المتكلم والمصدر source الذى ينقل كلاماً كلف بنقله إلى آخر(٣). وقد يكون لضعف القرينة التى تعين على تحديد المرجع أثر فى غموض الكلام أو وقوع اللبس.

ويدخل فى الإشارة إلى الشخص person deixis النداء vocative، وهو ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب لتنبيهه أو توجيهه أو استدعائه، وهى ليست مدمجة فيما يتلوها من كلام، بل تنفصل عنه بتنغيم يميزها(٤). وظاهر أن النداء لا يفهم إلا إذا اتضح المرجع الذى يشير إليه.

(١) Levinson, S.C. (1983) P. 55 f.
(٢) Ibid, P.57.
(٣) Ibid, P. 68 f.
(٤) Ibid, P. 71.

٢- الإشاريات الزمانية temporal deictics:

الإشاريات الزمانية كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم فزمان التكلم هو مركز الإشارة deictic center الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ فقولك مثلاً **بعد أسبوع** يختلف مرجعها إذا قلتها اليوم أو قلتها بعد شهر أو بعد سنة وكذلك إذا قلت نلتقى الساعة العاشرة فزمان التكلم وسياقه هما اللذان يحددان المقصود بالساعة العاشرة صباحًا أو مساءً من هذا اليوم أو من يوم يليه[1]. وزمن الفعل نلتقى ينفى أن يكون اللقاء قد حدث فعلاً، بل يصرف زمن اللقاء إلى زمن لم يمض بعد[2]، ومثل ذلك كلمات مثل: أمس، وغدًا، والآن والأسبوع الماضى ويوم الجمعة، والسنة المقبلة ومنذ شهر... الخ، فهى كلها لا يتضح معناها إلا بالإشارة إلى زمان بعينه بالقياس إلى زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية.

ومن أجل ذلك قد يواجه القارئ مشكلة إذا لم يعرف مرجع الزمان فى كتاب يقرؤه فكثير من روايات أجاثا كريستى مثلاً تذكر الحرب دون إحالة إلى زمان بعينه فيضطرب القارئ فى فهم المراد، ويتساءل أى حرب هذه؟ وهو مضطر أن يتبع السياق التاريخى وتاريخ نشر الكتاب حتى يفهم المراد بها. ومثل ذلك أن يذكر فى حديث أو كتاب **وزير المالية المصري**، أو **أميرة موناكو** أو نحو ذلك دون إحالة إلى زمان بعينه[3].

---

(١) Verschueren, J. (1999) P. 18 f.
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200.

(٢) Verschueren, J. (1999) P. 19.
- Levinson, S.C. (1983) P. 73 f.

(٣) Thomas, J. (1996) P. 10.

على أن الإحالة إلى الزمان قد تستغرق المدة الزمانية كلها كأن يقال اليوم الأربعاء وقد تستغرق مدة محددة من الزمان كأن يقال ضرب زيد عمرًا يوم الخميس، فضرب زيد عمرًا لا يستغرق يوم الخميس بل يقع في جزء منه(١) وقد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان فيتجاوز الزمان المحدد له عرفًا إلى زمان أوسع فكلمة اليوم فى قولنا **بنات اليوم** مثلاً تشمل العصر الذى نعيش فيه، ولا تتحدد بيوم مدته أربع وعشرون ساعة، وكل ذلك موكول إلى السياق الذى تستخدم فيه هذه العناصر الإشارية إلى الزمان(٢).

ومما ينبغى اللفت إليه أن العناصر الإشارية قد تكون دالة على الزمان الكونى الذى يفترض سلفًا تقسيمه إلى فصول، وسنوات وأشهر وأيام وساعات... الخ وقد تكون دالة على الزمن النحوى tense، وقد يتطابقان فى سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوى عن الزمان الكونى فتستخدم صيغة الحال للدلالة على المضى، وصيغة المضى للدلالة على الاستقبال فينشأ بينهما صراع لا يحله إلا المعرفة بسياق الكلام ومرجع الإشارة. فالزمن النحوى لا يطابق الزمان الكونى فى كثير من أنواع الاستعمال(٣).

ويلحظ بعض الباحثين أن بعض استعمالات اللغة لا ينفك عن الإشارة الزمانية كبعض أنواع التحيات مثل صباح الخير فهى لا تقال إلا فى الصباح(٤). وتقع المفارقة irony إذا قالها واحد من الناس فى المساء مثلاً، وليس هذا مما تضبطه قواعد اللغة، بل أعراف الاستعمال(٥).

---

(١) Levinson, S.C. (1983) P. 74.

(٢) Ibid, P. 74.

(٣) Ibid, P. 73 f.

(٤) Ibid, P. 75.

(٥) Crystal, D. (1989) P. 120.

٣- الإشاريات المكانية spatial deictics:

وهى عناصر إشارية إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت المتكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره فى اختيار العناصر التى تشير إليه قربًا أو بعدًا أو وجهة(١). ويستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسروا كلمات مثل هذا وذاك، وهنا وهناك ونحوها إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهى تعتمد على السياق المادى المباشر immediate physical context الذى قيلت فيه(٢). ومثل هذه التعبيرات أمثلة واضحة على أن أجزاء من اللغة لا يمكن أن تفهم إلا فى إطار المعنى الذى يقصده المتكلم speaker intended meaning، فإذا قال شخص **أحب أن أعمل هنا**، فهل هو يعنى: فى هذا المكتب، أو فى هذه المؤسسة، أو فى هذا المبنى، أو فى هذا الجزء من المدينة، أو فى هذه الدولة أو فى غير هذه جميعًا. فكلمة هنا تعبير إشارى لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذى يقصد المتكلم الإشارة إليه(٣).

وأكثر الإشاريات المكانية وضوحًا هى كلمات الإشارة نحو هذا وذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلم، وكذلك هنا وهناك وهما من ظروف المكان التى تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم، وسائر ظروف المكان مثل فوق وتحت، وأمام وخلف... الخ كلها عناصر يشار بها إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم

---

(١) O'Grady, W. Dobrovolsky, M. Katamba, F. (1996). Contemporary Linguistics. An Introduction. Longman. P. 297.

(٢) Yule, G. (1987) P. 99.

(٣) Ibid, P. 99.

واتجاهه[١]. وفلاسفة اللغة يميلون إلى تمييز كلمات الإشارة إلى المكان عـن ظروف المكان، واعتبارهما نوعين من أنواع الإشارة أما اللغويون فيميلـون إلى دمجهما معًا، وجعلهما صنفًا واحدًا يشار به إلى مكان[٢].

ويرى بعض الباحثين أن ال التى للتعريف تدخل فى العناصر الإشارية لأنها تقوم بالوظيفة التى يقوم بها اسم الإشارة، والفارق بينهما أن اسم الإشارة يزيد عليها بالدلالة على القرب أو البعد (+ قرب) أو (+ بعد)، فهـو موسـوم marked بالقرب أو البعد أما ال التى للتعريف فهى غير موسـومة unmarked بقرب ولا بعد، ويرى هؤلاء أن التعريف فى أساسه مفهوم إشارى[٣].

ويلفت بعض الباحثين إلى أن عناصر الإشارة إلى المكان قـد تنقـل للإشارة إلى ما يسمونه المسافة العاطفية emotional distance وتسمى عندئذ الإشارة الوجدانية empathic deixis[٤]، وهو قريب مما أسماه علماء المعانى عندنا: التحقير بالقرب[٥] نحو قوله تعالى ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ والتعظيم بالبعد كقوله جل وعز: ﴿ الٓمٓ. ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾.

وقد يكون لما يسمى التقابل الإشارى أثر حاسم فى فهم بعض الأفعال الشائعة الاستعمال مثل يأتى ويذهب، فالفعل يأتى يتضمن حركة نحو المتكلم،

---

(١) Levinson, S.C. (1983) P. 81.
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200.

(٢) Levinson, S.C. (1992) P. 343.

(٣) Levinson, S.C. (1983) P. 83.

(٤) Ibid, P. 81.

(٥) انظر: القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علـوم البلاغــة. ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب اللبناني د. ت ص ٦٢.

والفعل يذهب يتضمن حركة من المتكلم إلـــى غيـــره[١].. والبابـــانى مـــثلاً لايستطيع أن يقول لزميله ما يقابل: **هل أستطيع أن آتى إليك** لأن الفعل kuru فى اليابانية لا يستخدم إلا للدلالة على اتجاه الحركة إلى مكان المتكلم، بل لابدً أن يستخدم الفعل iku يذهب الذى يدل على اتجاه الحركة من مكان المـــتكلم إلى غيره[٢] وكذلك أمثال هذين الفعلين ونحوهما من نحو خذ وهات، ويعطى ويأخذ... إلخ فيها جانب إشارى يتحدد به معناها[٣].

٤- إشاريات الخطاب discourse deictics:

قد تلتبس إشاريات الخطاب بالإحالة إلى سابق anaphora أو لاحـــق cataphora، ولذلك أسقطها بعض الباحثين من الإشاريات. ولكن منهم من ميز بين النوعين فرأى أن الإحالة يتحد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يحيل إليه مثل زيد كريم وهو ابن كرام أيضاً: فالمرجع الذى يعود إليه زيد وهـــو واحد، أما إشاريات الخطاب فهى لا تحيل إلى ذات المرجع، بل تخلق المرجع فإذا كنت تروى قصة ثم ذكرتك بقصة أخرى فقد تشير إليها، ثم تتوقف قائلاً: **لكن تلك قصة أخرى**، فالإشارة هنا إلى مرجع جديد[٤]، على أن هذا التمييـــز بين إشاريات النص والإحالة إلى عنصر فيه ليس حاسمًا، ذلك بأن الإحالة فى قصاراها ضرب من إشاريات النص، أو هى أساس فيها[٥].

وقد يبدو طبيعيًا أن تستعار إشاريات الزمـــان وإشـــاريات المكـــان

---

(١) O'Grady, W. et al (1996) P. 297.

(٢) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 200 f.

(٣) Crystal, D. (1989) P. 106.
- Levinson, S.C. (1983) P. 84.

(٤) Levinson, S.C. (1983) P. 85.

(٥) Ibid, P. 87.

لتستخدم إشاريات للخطاب فكما يقال: **الأسبوع الماضى** يمكن أن يقال: **الفصل الماضى من الكتاب**، أو **الرأى السابق**، وقد يقال: **هذا النص** للإشـــارة إلـــى نص قريب، أو **تلك القصة** إشارة إلى قصة بعد بها القول[1].

لكن هناك إشاريات للخطاب تعدّ من خواص الخطاب وتتمثـــل فـــى العبارات التى تذكر فى النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم فقد يتحير فى ترجيح رأى على رأى أو الوصول إلى مقطع اليقين فى مناقشة أمر فيقـــول: **ومهما يكن من أمر**، وقد يحتاج إلى أن يستدرك على كلام سابق أو يضرب عنه فيستخدم **لكن أو بـــل**، وقد يعن له أن يضيف إلى ما قال شيئًا آخر فيقول **فضلاً عن ذلك**، وقد يعمد إلى تضعيف رأى فيذكره بصيغة التمريض **قيـــل**، وقد يريد أن يرتب أمراً على آخر فيقول **من ثمّ**... الخ وهذه كلها إشـــاريات خطابية خالصة لا تزال فى حاجة إلى دراسة تجلو جوانبهـــا واســـتخداماتها إشارياتٍ للخطاب[2].

٥- الإشاريات الاجتماعية social deictics:

وهى ألفاظ وتراكيب تشير إلـــى العلاقـــة الاجتماعيـــة بـــين المتكلمـــين والمخاطبين من حيث هى علاقة رسمية formal أو علاقة ألفة ومودة intimacy[3].

والعلاقة الرسمية يدخل فيها صيغ التبجيل honorifics[4] فى مخاطبة من هم أكبر سنًا ومقامًا من المتكلم، كاستخدام *vous* فـــى الفرنـــسية للمفـــرد

---

(١) Ibid, P. 85.

(٢) Ibid, P. 87.

(٣) Verschueren, J. (1999) P. 20.
- Crystal, D. (1989) P. 120.

(٤) Levinson, S.C. (1983) P. 9.

المخاطب تبجيلاً له، أو مراعاة للمسافة الاجتماعية بينهما، أو حفظًا للحوار فى إطار رسمى، وكذلك الحال فى استخدام *Sie* فى الألمانية وأنتم فى اللغة العربية للمفرد المخاطب ونحن للمفرد المعظم لنفسه. وهى تشمل أيضاً الألقاب[1] مثل فخامة الرئيس، الأمام الأكبر، جلالة الملك، سموّ الأمير، فضيلة الشيخ، كما تشمل أيضاً السيد، السيدة، الآنسة. ويدخل فيها أيضاً: حضرتك، وسيادتك، وسعادتك، وجنابك، وقد يقتصر استعمال بعضها على الرجال مثل معالى الباشا، وقد يقتصر بعضها على النساء مثل الهانم، وفى الإنجليزية لا يجوز أن تشير إلى سيدة أكبر منك سنًا أو مقامًا فى حضورها بقولك she[2].

أما الاستعمال غير الرسمى فهو منفك من هذه القيود جميعًا، وينعكس هذا فى استعمال بعض الضمائر للدلالة على المفرد المخاطب مثل *tu* فى الفرنسية و*du* فى الألمانية، وفى النداء بالاسم المجرد، أو اسم التدليل أو نحو ذلك، فضلاً عن التحيات[3] التى تتدرج من الرسمية إلى الحميمية مثل: صباح الخير، صباح الفل، صباح العسل... الخ.

وربما وجدنا ظلالاً للإشاريات الاجتماعية فى دلالة استخدام بعض الألفاظ على طبقة اجتماعية بعينها مثل استخدام looking glass الذى يعدّ فى بريطانيا إشارة إلى الطبقة الاجتماعية العليا فى مقابل mirror، ومثلها lady وwoman[4]. ومن ذلك فى اللغة العربية استعمال حامل وحبلى، وكنيف

(١) Ibid, P. 89.
(٢) Crystal, D. (1989) P. 120.
(٣) Ibid, P. 120.
- Verschueren, J. (1999) P. 21.
(٤) أحمد مختار عمر: علم الدلالة (الكويت ١٩٨٢) ص ٧١.

ومرحاض ودورة مياه وحمام وتواليت، ومنها استخدام عقيلته وقرينته وحرمه وزوجته وامرأته[١].

وظاهر أن الإشاريات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي.

ثانياً: الافتراض السابق presupposition:

يوجه المتكلم حديثه إلى السامع على أساس مما يفترض سلفًا أنه معلوم له[٢]، فإذا قال رجل لآخر: **أغلق النافذة**، فالمفترض سلفًا أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبررا يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وأن المتكلم فى منزلة الآمر، وكل ذلك موصول بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب. من أجل ذلك كانت دراسة الافتراض السابق مثار اهتمام الباحثين منذ أوائل العقد السابع من القرن العشرين[٣] لما سببه من مشكلات حقيقية لكل النظريات التحويلية، فضلاً عن أنها شغلت جانبًا أساسيًا من اهتمام علماء الدلالة، ثم برزت إلى موقع الصدارة من اهتمام الباحثين فى أوائل العقد الثامن حين أصبحت الوجهة التداولية فى دراسة المعنى بديلاً لا غنى عنه للوجهة الدلالية فى هذا الجانب[٤].

---

(١) السابق ص ٢٢٨.

(٢) Yule, G. (1987) P. 100.

(٣) تعود المحاولات الأولى لدراسة الافتراض السابق إلى فيلسوف آخر من أكسفورد هو ستراوسن strawson (١٩٥٢) الذى أعاد إنتاج مفهوم كان قد ظهر فعلاً على يد الرياضي الألماني فريجه frege (١٨٩٢) بوصفه مشكلة من مشكلات علم الدلالة المنطقي المؤسس على الصدق Truth-based logical semantics انظر:
Leech & Thomas (1990) P. 189.

(٤) Levinson, S.C. (1983) P. 167.
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 189.

وينبغى لمن يخوض فى دراسة الافتراض السابق أن يكون على حذر من أمرين[١].

أولهما: كثرة الأبحاث التى تناولت هذا الموضوع فى إطار نظريات مختلفة ووجهات نظر متباينة، على نحو لم يتح لأى جانب من جوانب الدرس التداولي، باستثناء الأفعال الكلامية speech acts. وبعض هذه الأبحاث قديم مطَّرح obsolete وبعضها عقيم sterile لا خير يرجى من ورائه. فليس بمستغرب أن يجد الباحث فى هذا الموضوع الرأى ونقيضه، فضلاً عما يكتنف بعض هذه الآراء من غموض والتباس.

والثانى: التمييز الواجب بين الاستعمال العام للفظ الافتراض السابق فى لغة الحياة اليومية، والاستعمال الاصطلاحى فى الدرس التداولى الذى هو أضيق مدى من الاستعمال العام. فمن الاستعمال العام أن يقال: **كتب زيد رسالة إلى عمرو** فيفترض السامع سلفًا أن عمرًا يقرأ أو يقال: **إما أن يكافأ زيد أو تكافأ زوجته** فيفترض السامع سلفًا أن لزيد زوجة، وأما الاستعمال الاصطلاحى فهو مقيد باستدلالات تداولية pragmatic inferences بعينها تحملها تعبيرات لغوية معينة، ويمكن الوصول إليه ببعض الاختبارات اللغوية[٢]، كما سيأتى.

ويستثمر كثير من وكلاء النيابة والمحامين هذه الخاصية فى استجواب المتهمين والشهود، فإذا سأل وكيل النيابة المتهم: **وأين كنت تبيع الكوكايين؟** فأجاب المتهم بذكر مكان ما، ثبتت عليه التهمة، لأن تحديد مكان

(١) Levinson, S.C. (1983) P. 167.
(٢) Levinson, S.C. (1983) P. 168.

لبيعه يتضمن افتراضًا سابقًا بالمتاجرة به[١] وفي المحاكم الأوروبية والأمريكية يمنع أن يسأل سؤال من نحو: هل توقفت عن ضرب زوجتك؟ لأنه يتضمن افتراضًا سابقًا بأن المحكمة تبيح ضرب الزوجة[٢].

وقد ميز بعض الباحثين منذ وقت مبكر من العقد السابع من القرن العشرين بين نوعين من الافتراض السابق: **المنطقى أو الدلالي، والتداولي**، فالأول مشروط بالصدق بين قضيتين، فإذا كانت (أ) صادقة كان من اللازم أن تكون (ب) صادقة فإذا قلنا مثلاً: **إن المرأة التى تزوجها زيد كانت أرملة**، وكان هذا القول صادقًا أى مطابقًا للواقع لزم أن يكون القول: **زيد تزوج أرملة** صادقًا أيضًا، إذ إنه مفترض سلفًا. وأما الافتراض التداولى السابق فلا دخل له بالصدق والكذب، فالقضية الأساسية يمكن أن تنفى دون أن يؤثر ذلك فى الافتراض السابق، فإذا قلت مثلاً **سيارتى جديدة** ثم قلت **سيارتى ليست جديدة** فعلى الرغم من التناقض فى القولين فإن الافتراض السابق وهو أن لك سيارة لا يزال قائمًا فى الحالين[٣].

على أن من الباحثين من أراد أن يجعل من الافتراض التداولى السابق بديلاً للافتراض الدلالى السابق[٤]، ومنهم من رفض قصره على جانب واحد، لأن بعض ظواهر الاستعمال اللغوى تحتاج فى إيضاحها إلى افتراض دلالى سابق، وبعضها يحتاج إلى افتراض تداولى سابق، فليس من الممكن الاستغناء

---

(١) Yule, G. (1987) P. 100.

(٢) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P. 199.

(٣) Newmeyer, F. J. (1986): Linguistic Theory of Amirica. Academic Press. Inc. Orland and London. P. 177.

(٤) Levinson, S.C. (1983), P. 204.

بأحدهما عن الآخر[1]، وكثير من الباحثين خلطوا بينهما. وقد جعل هذا بعض الباحثين يرى أن الافتراض السابق مفهوم خلافى controversial notion[2].

وقد ميز بعض الباحثين أيضًا بين الافتراض الدلالى السابق والاقتضاء entailment. والاقتضاء علاقة بين جملتين أو قضيتين يقتضى صدق الأولى منها صدق الثانية فإذا كانت الجملة: **أرى حصانًا** صادقة لزم أن تكون الجملة: **أرى حيوانًا** صادقة أيضًا، فأنت لا تستطيع أن تقبل الأولى وترفض الثانية[3]، وقد أصبح الاقتضاء فى الدراسة الدلالية المتأخرة مقابلاً للافتراض الدلالى السابق على أساس من أن كذب إحدى الجملتين يؤدى إلى نتيجة مختلفة، فإذا كان قولك **أرى حصانًا** كاذبًا فإن مفهوم الاقتضاء يوجب أن يكون قولك **أرى حيوانًا** إما صادقًا وإما كاذبًا، لكن مفهوم الافتراض الدلالى السابق يقتضى أنه إذا كانت الجملة الأولى كاذبة فإن الثانية يجب أن تكون صادقة فقولك مثلاً: **توقف زيد عن ضرب عمرو** يفترض سلفًا أن زيدًا كان يضرب عمرًا، وتظل هذه الجمل صادقة إن كذبت الأولى[4]. وظاهر أن الالتباس بين المفهومين لا يكون إلا فى الجمل الخبرية assertive المثبتة، فالاقتضاء مقيد بها، فى حين أن الافتراض السابق لا يتقيد بذلك فضلاً عن أنه قد يكون إنشاءً أمرًا أو استفهامًا، أو تعجبًا أو غير ذلك[5].

---

(١) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P. 191.

(٢) Atkinson, M.- Kilby, D. Roca, (1988): Foundations of general Linguistics. Unwin Hyman. London. P. 199.

(٣) Leech, G. (1978): Semantics. Penguin Books. P. 291.
- Crystal, D. (1994) P. 122.

(٤) Crystal, D. (1994) P. 122.

(٥) Newmeyer, F. G. (1986) P. 178.
- Leech, G. (1978). P. 293.

وقد لحظ بعض الباحثين أن الافتراض السابق قد يرتبط بألفاظ وتراكيب تدل عليه، ولفتوا إلى أن هذا الأمر لم ينل ما يستحق من عناية الدارسين، فلم يظفر بعد بدراسة شاملة، ومما أوردوه من ذلك[1] مما له نظير في العربية الأزواج الآتية من الجمل التي يكون الافتراض السابق فيها مرتبطًا ببعض العناصر اللغوية دون بعض.

١- أ – زيد **اغتيل** سنة ١٨٦٨.

ب – زيد **قتل** سنة ١٨٦٨.

فاستخدام الفعل اغتال في الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بأن زيدًا كان شخصية سياسية بارزة، لكن هذا الافتراض غير متحقق في الفعل قتل في الجملة (ب).

٢- أ – هل **توقفت** عن التدرُّب على المصارعة ؟

ب – هل **حاولت** أن تتدرب على المصارعة ؟

فاستخدام الفعل "توقف عن" في الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بأن المخاطب كان يتدرب على المصارعة، وهو غير متحقق في الفعل حاول في الجملة (ب).

٣- أ – لم يتمكن أحد من حمل الصخرة **حتى** زيد.

ب – لم يتمكن عمرو ولا زيد من حمل الصخرة.

---

(١) O'Grady, W. et al (1996). P. 296.
- Verschueren, J. (1999) P. 28 f.
- Horn, L. (1992). P. 263.

فاستخدام حرف العطف حتى فى الجملة (أ) يتضمن افتراضًا ســابقًا بأن زيدًا أقوى من غيره ممن حاولوا حمل الصخرة وأشدّ، أو أنه متميز دونهم بقدرته على رفع الأثقال، وهذا غير متحقق فى استعمال حـرف العطف الواو.

٤- أ – **لو** كان العام عام سلام ما أريقت هذه الدماء.

ب – **إذا** كان العام عام سلام فلن تراق دماء.

فاستخدام لو فى الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بامتناع أن يكـون العام المراد عام سلام، وهو غير متضمن فى إذا.

٥- أ – أرجوك أن تتجاوز عن **الخطأ** الذى وقع منى أمس.

ب – أرجوك أن تتجاوز عن **أى خطأ** يقع منى.

فاستعمال أداة التعريف فى الخطأ فى الجملة (أ) يتـضمن افتراضـًـا سابقًا أن هناك خطأ محدداً وقع، وهذا غير متضمن فى أى.

٦- أ – أنهت زينب بحثها **بعد** أن **عادت** من أوروبا.

ب – *أنهت زينب بحثها **بعد** أن **ماتت**.

فاستخدام الظرف بعد مع الفعل مات فى (ب) جعل الجملة غير مقبولــة لأنه يفترض سلفًا أن من المستحيل أن ينجز المرء عملاً بعد المــوت، ولا كذلك الفعل عاد.

هذه أمثلة لارتباط افتراض سابق بعينه باستعمال ألفاظ لغوية بعينهـا سقناها على سبيل التمثيل آملين أن يفرغ أحد الباحثين لدراسة هذه الظاهرة.

ثالثاً: الاستلزام الحوارى conversational implicature:

يعد الاستلزام الحوارى واحدًا من أهم الجوانب فى الدرس التداولي؛ فهو ألصقها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدرس الدلالي، وعلى الرغم من ذلك فليس له – خلافاً لكثير من موضوعات البحث التداولى – تاريخ ممتد[1]؛ إذ ترجع نشأة البحث فيه إلى المحاضرات التى دعى جرايس H.P. Grice – وهو من فلاسفة أكسفورد المتخصصين فى دراسة اللغة الطبيعية natural language – إلى إلقائها فى جامعة هارفارد سنة ١٩٦٧م، فقدم فيها بإيجاز تصوره لهذا الجانب من الدرس، والأسس المنهجية التى يقوم عليها[2]. وقد طبعت أجزاء مختصرة من هذه المحاضرات سنة ١٩٧٥ فى بحث له يحمل عنوان: المنطق والحوار Logic and Conversation، ثم وسع فى بحثين له نشرا سنة ١٩٧٨، وسنة ١٩٨١ ما قدمه فى عمله المبكر، لكن الرجل لم يطور أفكاره تطويرًا كاملاً، ولم يحكم عرضها فجاء عمله قليل التماسك كثير الفجوات، مشكلاً فى بعض جوانبه، وغير مفهوم أصلاً فى بعض آخر، ومن عجب أن يصبح عمل كهذا واحدًا من أهم النظريات فى البحث التداولي، وأكثرها تأثيرًا فى تطوره[3].

لقد كانت نقطة البدء عند جرايس هى أن الناس فى حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما

---

(١) Levinson, S.C. (1983), P. 97, 100
- Brown, G. & Yule, G. (1998): Discourse analysis. Cambridge University Press. P. 33.

(٢) Thomas, J. (1996). P. 56.

(٣) Ibid, P. 56.
Levinson, S.C. (1983), P.100

يقولون، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين **ما يقــال** what is said، **ومــا يقصد** what is meant، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية face values وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غيــر مباشر اعتمادًا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، فأراد أن يقيم معبرًا بــين مــا يحمله القول من معنى صريح explicit meaning وما يحملــه مــن معنــى متضمن inexplicit meaning فنشأت عنده فكرة الاستلزام implicature[1].

وقد نظر جرايس فرأى أن الاســتلزام نوعــان: اســتلزام عرفــى conventional implicature واستلزام حوارى conversational implicature، فأما الاستلزام العرفى فقائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من اســتلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفك عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب. ومن ذلك مثلاً فى الإنجليزية but ونظيرتها فى اللغة العربية لكــن فهى هنا وهناك تستلزم دائماً أن يكون ما بعدها مخالفًا لما يتوقعــه الــسامع مثل: My friend is poor, but honest، ومثل **زيد غنى لكنــه بخيــل**. وأمــا الاستلزام الحوارى فهو متغير دائمًا بتغير السياقات التى يرد فيها[2].

لقد كان ما يشغل جرايس هو كيف يكون ممكنًا أن يقول المتكلم شيئًا ويعنى شيئاً آخر؟ ثم كيف يكون ممكنا أيضا أن يسمع المخاطب شيئا ويفهــم شيئا آخر؟ وقد وجد حلا لهذا الإشكال فيما أسماه مبدأ التعاون co-operative

---

(١) Thomas, J. (1996) P. 55 f.
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 179.

(٢) Ibid, P. 183
- Brown, G. & Yule, G. (1998). P. 31.
- Thomas, J. (1996). P. 57.

principle بين المتكلم والمخاطب وهو مبدأ حوارى عام يشتمل على أربعة مبادئ maxims فرعية هى[1]:

١- مبدأ الكمّ Quantity:

اجعل إسهامك فى الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.

٢- مبدأ الكيف Quality:

لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

٣- مبدأ المناسبة relevance:

اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

٤- مبدأ الطريقة manner:

كن واضحاً ومحدداً: فتجنب الغموض obscurity، وتجنب اللبس ambiguity، وأوجز، ورتب كلامك.

هذه هى المبادئ التى يتحقق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب وصولاً إلى حوار مثمر. وينبغى هنا اللفت إلى أمرين:

---

(١) Lyons, J. (1996): Linguistic Semantics. An Introduction. Cambridge University Press. P. 277 ff.
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P 180 ff.

وانظر أيضًا:

روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء. ترجمة تمام حسان. عالم الكتب ١٩٩٨ ص ٤٩٥ فما بعدها.

أحدهما: أن بعض الباحثين رأى فى مبدأ التعاون تعبيرًا عن فردوس الفلاسفة philosophers' paradise الذى لا يمت إلى الواقع بصلة فهو يرى الناس جميعًا متعاونين، صادقين، مخلصين، واضحين، وليس من الممكن ولا المشاهد أن يتحدث الناس على هذا النحو كل حين، بل إن أغلب أنواع الحوار الذى يدور بين البشر يخالف هذا المبدأ. والحق أن الرجل لم يقصد بمبدأ التعاون الحوارى ما عجل هؤلاء إلى فهمه، بل كان يقصد أن الحوار بين البشر يجرى على ضوابط وتحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلم(١)، ولكى نوضح ذلك نسوق الحوار الآتى بين زوج (أ) وزوجة (ب):

أ – أين مفاتيح السيارة ؟

ب – على المائدة.

وظاهر أن مبدأ التعاون والمبادئ الحوارية التى يتفرع إليها متحققة كلها فى هذه المحاورة القصيرة، لقد أجابت الزوجة إجابة واضحة (الطريقة)، وكانت صادقة (الكيف) واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون تزيُّد (الكم) وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها (المناسبة)، ولذلك لم يتولد عن قولها أى استلزام، لأنها قالت ما تقصد(٢).

الثانى: أن الرجل لم يغب عنه أى هذه المبادئ التى يجرى عليها الحوار كثيرًا ما تنتهك بل إن النظرية كلها قائمة على ذلك، فانتهاك مبادئ الحوار flouting of maxims هو الذى يولّد الاستلزام، مع ملحظ شديد الأهمية

---

(١) Levinson, S.C. (1983), P. 102.
- Thomas, J. (1996). P. 62.

(٢) Thomas, J. (1996). P. 64.

هو الإخلاص لمبدأ التعاون بمعنى أن يكون المتكلم حريصا على إبلاغ المخاطب معنى بعينه، وأن يبذل المخاطب الجهد الواجب للوصول إلى المعنى الذى يريده المتكلم، وألا يريد أحدهما خداع الآخر أو تضليله(١).

وعلى ذلك إذا انتهك المتكلم مبدأ من مبادئ الحوار أدرك المخاطب اليقظ ذلك وسعى إلى الوصول إلى هدف المتكلم من هذا الانتهاك. ولنضرب الآن أمثلة توضح ذلك:

١- فى حوار يجرى بين أم (أ) وولدها (ب).

أ - هل اغتسلت ووضعت ثيابك فى الغسالة ؟

ب - اغتسلت.

فى هذا الحوار خرق أو انتهاك لمبدأ الكم لأن الأم سألته عن أمرين فأجاب عن واحد وسكت عن الثانى، أى أن إجابته أقل من المطلوب. ويستلزم هذا أن تفهم الأم أنه لم يضع ثيابه فى الغسالة، وأنه لم يرد أن يجيب بنعم حتى لا تشمل الإجابة شيئًا لم يقم به، ولم يرد أن يواجهها بتقاعسه عن وضع ثيابه فى الغسالة(٢).

٢- فى حوار بين تلميذ (أ) وأستاذ (ب)، وكلاهما إنجليزي:

أ - طهران فى تركيا، أليس هذا صحيحًا يا أستاذ ؟

ب - طبعا، ولندن فى أمريكا !

فى هذا الحوار انتهك الأستاذ مبدأ الكيف الذى يقتضى ألا يقول إلا ما

---

(١) Brown, G. & Yule, G. (1998). P. 32.

(٢) Lyons, J. (1996). P. 278.

يعتقد صوابه، وألا يقول ما لا دليل عليه[1]. وقد انتهكه الأستاذ عمدًا ليظهـر للتلميذ أن إجابته غير صحيحة، ويؤنبه على جهله بشئ كهذا، والتلميذ قـادر على الوصول إلى مراد الأستاذ؛ لأنه يعلم أنّ لندن ليست فى أمريكا، وذلـك يستلزم أن الأستاذ يقصد بقوله شيئًا غير ما تقوله كلماته، وهو أن قول التلميذ غير صحيح.

٣- فى حوار بين رجلين:

أ – أين زيد ؟

ب – ثمة سيارة صفراء تقف أمام منزل عمرو.

وما قاله (ب) بمعناه الحرفى ليس إجابة عن السؤال، فهو ينتهك مبدأ المناسبة، ولكن السامع فى ضوء المبادئ الأخرى للتعاون يسأل نفسه ما هى العلاقة الممكنة بين وقوف سيارة صفراء أمام منزل عمرو وسؤالى عن مكان زيد، ثم يصل إلى أن المراد بهذا القول إبلاغه رسالة مؤداها أنـه إذا كانـت لزيد سيارة صفراء فلعله عند عمرو[2].

٤- فى حوار بين رجلين:

أ – ماذا تريد ؟

ب – قم، واتجه إلى الباب، وضع المفتاح فى القفـل، ثـم أدره ناحيـة اليسار ثلاث مرات، ثم ادفع الباب برفق.

وواضح أن فيما قاله (ب) انتهاكًا لمبدأ من مبادئ الطريقـة manner

---

(١) Levinson, S.C. (1983). P. 110.

(٢) Ibid, P. 102.

وهو "أوجز" إذ كان يكفى أن يقال: افتح الباب[1]، وإذا نظرنا إلى هذا القول فى ضوء تحقق مبادئ الحوار الأخرى كان لابد أن المتكلم يحاول به وجها غير ما يظهر، قد يكون مؤاخذته على ما يتميز به بين بطء وتكاسل.

على أن انتهاك مبادئ الحوار لا يقتصر على التعبير الحقيقى كما قدمنا، بل يشمل المجازى أيضًا[2]، وهو متحقق أيضًا فى كل مفارقة irony يراد بها عكس ما يقال، أو غير ما يتوقع[3].

وللاستلزام الحوارى عند جرايس **خواص** تميزه عن غيره من أنواع الاستلزام الأخرى، وقد استطاع أن يضع يده على الخواص الآتية:

١- الاستلزام **ممكن إلغاؤه** defeasible، ويكون ذلك عادة بإضافة قول يسدّ الطريق أمام الاستلزام أو يحول دونه فإذا قالت قارئة لكاتب مثلاً: **لم أقرأ كل كتبك**، فقد يستلزم ذلك عنده أنها قرأت بعضها، فإذا أعقبت كلامها بقولها، الحق أنى لم أقرأ أى كتاب منها، فقد ألغت الاستلزام. وإمكان الإلغاء هذا هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، وهو الذى يمكن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه[4].

٢- الاستلزام لا يقبل الانفصال non-detachable عن المحتوى الدلالي،

---

(١) Ibid, P. 108.

(٢) Lyons, J. (1996). P. 383 ff.
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 182.

(٣) Atkinson, M. et al (1989). P. 217.
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 182.
- Levinson, S. C. (1983). P. 109.

(٤) Leech, G. & Thomas, J. (1990). P. 184.
- Lyons, J. (1996). P. 286.
- Thomas, J. (1996). P. 82.

ويقصد جرايس بذلك أن الاستلزام الحوارى متصل بالمعنى الدلالى لما يقال لا بالصيغة اللغوية التى قيل بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترادفها. ولعلّ هذه الخاصية هى التى تميز الاستلزام الحوارى عن غيره من أنواع الاستدلال التداولى مثل الافتراض السابق presupposition ولعل ما أراد يتضح من الحوار الآتى بين أختين:

أ - لا أريدك أن **تتسللى** إلى غرفتى على هذا النحو.

ب - أنا لا أتسلل، ولكن **أمشى على أطراف أصابعى** خشية أن أحدث ضوضاء.

فعلى الرغم من تغير الصياغة فى قول (ب) فإن ما يستلزمه القول من عدم الرضا عن هذا السلوك لا يزال قائماً[1].

٣- الاستلزام **متغير**، والمقصود بالتغير أو التعبير الواحد يمكن أن يؤدى إلى استلزامات مختلفة فى سياقات مختلفة، فإذا سألت طفلاً يحتفل بيوم ميلاده مثلاً: كم عمرك، فهو طلب للعلم، وإذا سألت السؤال نفسه لصبى عمره خمسة عشر عامًا فقد يستلزم السؤال مؤاخذة له على نوع من السلوك لا ترضاه له، وإذا سألت السؤال نفسه لفتى يمنع من اتخاذ قرار لا يخرج عن تعاليم الدين ومواضعات الأخلاق والأعراف فقد يعنى ذلك أنه من النضج بحيث يستطيع أن يتخذ قراره ويتحمل عواقبه.

ومثل ذلك أن يقول رجل سرق متاعه يوم العيد: **تلك أفضل هدية**، ومن الممكن أن يقول هذه العبارة نفسها رجل تلقى رسالة من صديق قديم

---

(١) Lyons, J. (1996). P. 289.
- Levinson, S.C. (1983). P. 116.

يوم العيد أو طالب بشر بنجاحه... الخ[١].

٤- الاستلزام **يمكن تقديره** calculability والمراد به أن المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة إلى الوصول إلى ما يستلزمه الكلام[٢] فإذا قيل مثلا: الملكة فكتوريا صنعت من حديد، فإن القرينة تبعد السامع عن قبول المعنى اللفظي، فيبحث عما وراء الكلام من معنى فيقول لنفسه: المتكلم يريد أن يلقى إلى خبرًا بدليل أنه ذكر لى جملة خبرية، والمفروض فى هذا المتكلم أنه ملتزم بمبدأ التعاون أى أنه لا يريد بى خداعًا ولا تضليلاً، فماذا يريد أن يقول ؟ لابدَّ أنه يريد أن يخلع على الملكة بعض صفات الحديد كالصلابة، والمتانة وقوة التحمل، وهو يعرف أننى أستطيع أن أفهم المعنى غير الحرفى non-literal؛ فلجأ إلى هذا التعبير الاستعارى[٣].

هذا هو الاستلزام الحوارى عند جرايس الذى يمثل نظرية متكاملة حاول الباحثون إيضاحها بأمثلة كثيرة مما قدمت، كما حاولوا تطويرها واستكمال جوانب النقص والقصور فيها، وهى قريبة جدًا مما ورد فى التراث اللغوى العربى عند البلاغيين وعلماء أصول الفقه، وقد استطاع أحمد المتوكل أن يقدم دراسة حاول بها أن يستكشف المعالم الرئيسية للوصف العربى القديم لهذه الظاهرة معتمدًا على ما قدمه السكاكى فى مفتاحه لأنه وجد تناوله يتجاوز الملاحظة المجردة إلى التحليل الملائم للظاهرة، الذى يضبط علاقة

---

(١) Thomas, J. (1996). P. 80 f.
- Levinson, S.C. (1983) P. 117 f.

(٢) Thomas, J. (1996). P. 82.

(٣) Levinson, S.C. (1983). P. 110.

المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقاميا، ويصف آلية الانتقال من الأول إلى الثانى بوضع قواعد استلزامية واضحة[1].

رابعاً: الأفعال الكلامية speech acts:

تستأثر نظرية الأفعال الكلامية باهتمام الباحثين فى جوانب النظرية العامة لاستعمال اللغة، فعلماء النفس يرون اكتسابها شرطًا أساسيًا لاكتساب اللغة كلها، ونقاد الأدب يرون فيها إضاءة لما تحمله النصوص من فروق دقيقة فى استعمال اللغة وما تحدثه من تأثير فى المتلقي، والأنثروبولوجيون يأملون أن يجدوا فيها تفسيرًا للطقوس والرقى السحرية، والفلاسفة يرون فيها مجالاً خصبًا لدراسة علاقة اللغة بالعالم، واللغويون يجدون فيها حلولاً لكثير من مشكلات الدلالة والتراكيب، وتعليم اللغة الثانية، أما فى الدرس التداولى فإن الأفعال الكلامية تظل واحدًا من أهم المجالات فيه، إن لم يكن أهمها جميعا[2]، بل إنّ التداولية فى نشأتها الأولى كانت مرادفة للأفعال الكلامية[3]، فليس بغريب إذن أن يعدّ جون أوستن J. Austin أبا للتداولية[4].

ولم يكن أوستين لغويًا، بل كان فيلسوفًا من فلاسفة اللغة العادية ordinary language فى أكسفورد فى العقدين الرابع والخامس من القرن

---

(١) عنوان البحث هو: "اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم لوصف ظاهرة الاستلزام الحواري". وقد نشر أولاً في: البحث اللساني والسيميائي. منشورات كلية الآداب – الرباط سنة ١٩٨٤ ثم أعيد نشره في كتاب له بعنوان: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي. دار الثقافة – الدار البيضاء (١٩٨٦) ص ص ٩٣ – ١٠٣.

(٢) Levinson, S.C. (1983). P. 226.

(٣) Bussmann, H. (1996). Dictionary of Language and Linguistics. Translated and edited by Trauth G.P. and Kazzazi, K. Routledge. London & New York. P. 374.

(٤) Thomas, J. (1996) P. 28.

العشرين[١]، وكان بعض الفلاسفة فى كمبردج ومن أهمهم رسل وفتجنشتاين يسعون لإيجاد لغة مثالية تتجنب كل عيوب اللغة العادية، فتكون أكثر ملاءمة للفكر الفلسفى[٢]، لكن رسل وفتجنشتاين كليهما عدلا بعد نحو عشرين سنة عن ذلك، واتجه فتجنشتاين إلى دراسة اللغة العادية[٣].

وكان من أهم ما رآه فتجنشتاين أن وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، لكن للغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والتمنى والشكر، والتهنئة واللعن والقسم والتحذير... الخ. وليست اللغة عنده حسابًا منطقيًا دقيقًا، لكل كلمة فيها معنى محدد، ولكل جملة معنى ثابت بحيث لا تنتقل من جملة إلا إلى ما يلزم عنها من جمل مراعيا قواعد الاستدلال المنطقى بل الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها فى الحياة اليومية، وتتعدد معانى الجمل بحسب السياقات التى ترد فيها[٤]، فالمعنى عنده هو الاستعمال meaning is use[٥].

وقد كان ما ذكره فتجنشتاين بالغ الأثر فى أوستن فتصدى للرد على فلاسفة الوضعية المنطقية logical positivism فى محاضراته التى ألقاها فى أكسفورد ما بين سنتى ١٩٥٢ و١٩٥٤، وفى محاضرات دعى لإلقائها فى هارفارد سنة ١٩٥٥، وقد جمع إرمسون J.O.Urmson محاضرات أوستن التى ألقاها فى هارفارد وعدتها اثنتا عشرة فى كتاب نشر بعد وفاة أوستن

---

(١) Ibid, P. 28.

(٢) محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٥ ص ٢٩ فما بعدها.

(٣) السابق ص ٤٦.

(٤) السابق نفسه ص ٥٦ فما بعدها.

(٥) Levinson, S.C. (1983) P. 227.

المفاجئة سنة ١٩٦٠ بعنوان(١).

How to do Things with Words

وكان فلاسفة الوضعية المنطقية يرون اللغة وسيلة لوصف الوقائع الموجودة فى العالم الخارجى بعبارات إخبارية ثم يكون الحكم بعد ذلك على هذه العبارات بالصدق إن طابقت الواقع وبالكذب إن لم تطابقه، فإذا لم تطابق العبارة واقعًا فليس من الممكن الحكم عليها بصدق أو كذب، وهى من ثمَّ لا معنى لها، ومثال ذلك أن يقال الآن: "ملك فرنسا أصلع" فهذه العبارة لا تطابق الواقع، ولا يمكن الحكم عليها بصدق أو كذب، فلا معنى لها. وهم بذلك يخرجون من اللغة معظم أنواع الخطاب الأدبى والدينى والأخلاقى فهى بمعيارهم لا معنى لها(٢).

لقد أنكر أوستن أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم state of affairs وصفًا يكون إما صادقًا وإما كاذبًا وأطلق عليه المغالطة الوصفية descriptive fallacy، ورأى أن هناك نوعًا آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية فى تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم ولا يوصف بصدق ولا كذب، كأن يقول رجل مسلم لامرأته: **أنت طالق**، أو يقول: **أوصى بنصف مالى لمرضى السرطان** أو يقول وقد بشر بمولود: **سميته يحيى**، فهذه العبارات وأمثالها لا تصف شيئًا من وقائع العالم الخارجي، ولا توصف بصدق أو كذب، بل إنك إذا نطقت بواحدة منها أو مثلها لا تنشئ قولاً (to make statement) بل تؤدى فعلاً (perform action) فهى أفعال كلام،

---

(١) Ibid, P. 227.

(٢) Thomas, J. (1996) P. 29 f.
- Levinson, S.C. (1983) P. 227.

أو هى أفعال كلامية[١].

ولعلى أوجز الآن ما قدمه أوستن لنظرية الأفعال الكلامية فيما يأتي:

أولاً: ميز أوستن بين نوعين من الأفعال[٢]:

أ – أفعال إخبارية constative، وهى أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.

ب – أفعال أدائية performative، تنجز بها فى ظروف ملائمة أفعال أو تؤدى، ولا توصف بصدق ولا كذب، بل تكون موفقة happy كما أطلق عليها أو غير موفقة unhappy، ويدخل فيها التسمية، والوصية، والاعتذار والرهان، والنصح، والوعد.

ولا تكون الأفعال الأدائية موفقة عنده إلا إذا تحققت لها **شروط الملاءمة** felicity conditions، فإذا لم تتحقق كان ذلك إيذانا بإخفاق misfire الأداء، **وشروط قياسية** regulative، وهى ليست لازمة لأداء الفعل؛ بل لأدائه أداء موفقا غير معيب، فإذا لم تتحقق كان فى ذلك إساءة abuse أداء للفعل[٣].

---

(١) Thomas, J. (1996) P. 31.
- محمود أحمد نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية في: مجلة الدراسات اللغوية. الرياض م ١ ع ١ أبريل – يونيو ١٩٩٩ ص ١٦١ – ١٦٢.

(٢) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.175.
- Verschueren, J. (1999) P.22.

(٣) Geis, M.L. (1997): Speech act and Conversational Interaction. Cambridge University Press. P.4.
- Levinson, S.C. (1983) P.230.
- صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد. دار التنوير، بيروت ١٩٩٣ ص ١٤٣.

فأما الشروط التكوينية فهى[1]:

١- وجود إجراء عرفى conventional procedure مقبول، وله أثر عرفى معين كالزواج مثلاً أو الطلاق.

٢- أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة ينطق بها أناس معينون فى ظروف معينة.

٣- أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء.

٤- أن يكون التنفيذ صحيحًا.

٥- أن يكون التنفيذ كاملاً.

وأما **الشروط القياسية** فهي:

١- أن يكون المشارك فى الإجراء صادقًا فى أفكاره.

٢- أن يكون المشارك فى الإجراء صادقًا فى مشاعره.

٣- أن يكون المشارك صادقًا فى نواياه.

٤- أن يلتزم بما يلزم نفسه به.

ثانياً: حين تبين لأوستن أن تمييزه بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم وأن كثيرًا مما تنطبق عليه شروط الأفعال الأدائية ليس منها، وأن كثيرًا من الأفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأدائية رجع عودًا على بدء إلى السؤال: كيف ننجز فعلاً حين ننطق قولاً ؟[2].

وفى سعيه للإجابة عن هذا السؤال مرة أخرى رأى أن الفعل الكلامى

---

(١) صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ١٤٢ – ١٤٣.
- Levinson, S.C. (1983). P.229.

(٢) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٦٧.

مركب من ثلاثة أفعال، تعدّ جوانب مختلفة لفعل كلامى واحـــد، ولا يفـــصل أحدهما عن الآخر إلا لغرض الدرس وهى[1]:

١- الفعل اللفظى locutionary act:

وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم فى تركيب نحوى صحيح ينـــتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

٢- الفعل الإنجازى illocutionary act:

وهو ما يؤديه الفعل اللفظى من معنى إضافى يكمن خلـــف المعنـــى الأصلى.

٣- الفعل التأثيرى perlocutionary act:

ويقصد به الأثر الذى يحدثه الفعل الإنجازى فى السامع.

وقد فطن أوستن إلى أن الفعل اللفظى لا ينعقد الكلام إلا به، والفعـــل التأثيرى لا يلازم الأفعال جميعًا فمنها ما لا تأثير له فـــى الـــسامع، فوجـــه اهتمامه إلى الفعل الإنجازى حتى غدا لبَّ هذه النظرية فأصبحت تعرف بـــه أيضا، فتسمى أحيانًا النظرية الإنجازية[2].

ثالثـــاً: قدم أوستن تصنيفًا للأفعال الكلامية على أساس مـــن قوتهـــا الإنجازية illocutionary force يشتمل على خمسة أصناف، ولم يتـــردد فـــى

---

(١) Thomas, J. (1996) P.49.
- Helbig, G. Entwicklung der Sprachwissenschaft Seit 1970: Opladen 1990. S. 186.
- Levinson, S.C. (1983). P.236.

(٢) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٦٧.

القول بأنه غير راضٍ عن هذا التصنيف[1]:

١- **أفعال الأحكام verdictives:** وهى التى تتمثل فى حكم يصدره قاضٍ أو حَكَم.

٢- **أفعال القرارات exercitive:** وتتمثل فى اتخاذ قرار بعينه كالإذن أو الطرد، أو الحرمان، أو التعيين.

٣- **أفعال التعهد commissive:** وتتمثل فى تعهد المتكلم بفعل شيء، مثل الوعد، أو الضمان، أو التعاقد أو القسم.

٤- **أفعال السلوك behabitives:** وهى التى تكون ردّ فعل لحدث ما كالاعتذار، أو الشكر، أو المواساة، أو التحدى.

٥- **أفعال الإيضاح expositives:** وتستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأى مثل الاعتراض، أو التشكيك، أو الإنكار، أو الموافقة، أو التصويب، أو التخطئة.

على أن ما قدمه أوستن لم يكن كافيًا لوضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، لكنه كان كافيًا ليكون نقطة انطلاق إليها بتحديده لعدد من المفاهيم الأساسية فيها، وبخاصة مفهوم الفعل الإنجازى الذى أصبح مفهومًا محوريا فى هذه النظرية، حتى جاء جون سيرل فأحكم وضع الأسس المنهجية التى تقوم عليها، وكان ما قدمه عن الفعل الإنجازى illocutionary act والقوة الإنجازية illocutionary force كافيًا لجعل الباحثين يتحدثون عن "نظرية سيرل فى الأفعال الكلامية" بوصفها مرحلة أساسية تالية لمرحلة الانطلاق

---

(١) صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ٢٢٢ فما بعدها.

عند أوستن[١].

ويمكننا أن نوجز القول فى أهم ما جاء به سيرل على النحو الآتي:

١- نص سيرل على أن الفعل الإنجازى هو الوحدة الصغرى minimal unit للاتصال اللغوى، وأن للقوة الإنجازية دليلاً يسمى دليل القوة الإنجازية illocutionary force indicator يبين لنا نوع الفعل الإنجازى الذى يؤديه المتكلم بنطقه للجملة، ويتمثل فى اللغه الإنجليزية فى نظام الجملة word-order والنبر stress، والتنغيم intonation، وعلامات الترقيم punctuations فى اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل mood، وما يسمى الأفعال الأدائية performatives[٢].

٢- الفعل الكلامى عنده أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط أيضا بالعرف اللغوى والاجتماعي، ولخص ذلك فى عبارة مأثورة هى[٣]:

Meaning is more than a matter of intention, it is also a matter of convention.

٣- طوّر سيرل شروط الملاءمة عند أوستن فجعلها أربعة، وطبقها تطبيقًا محكمًا على كثير من الأفعال الإنجازية، وهذه الشروط هى[٤]:

١- **شرط المحتوى القضوى propositional content**: وهو يتحقق بأن يكون للكلام معنى قضوى (نسبة إلى القضية proposition التى

---

(١) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.177.

(٢) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧١ وما بعدها.

(٣) Verschueren, J. (1999). P.23.
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.177.

(٤) Verschueren, J. (1999). P.23.
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.177.

تقوم على متحدث عنه أو مرجع reference، ومتحدث به أو خبر predication والمحتوى القضوى هو المعنى الأصلى للقضية، ويتحقق شرط المحتوى القضوى فى فعل الوعد مثلاً إذا كان دالاً على حدث فى المستقبل يلزم به المتكلم نفسه.

٢- **الشرط التمهيدى preparatory**: ويتحقق إذا كان المتكلم قادرًا على إنجاز الفعل، لكن لا يكون من الواضح عند كل من المتكلم والمخاطب أن الفعل المطلوب سينجز فى المجرى المعتاد للأحداث أو لن ينجز.

٣- **شرط الإخلاص sincerity**: ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصًا فى أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع.

٤- **الشرط الأساسى essential**: ويتحقق حين يحاول المتكلم التأثير فى السامع لينجز الفعل.

وقد قدم سيرل الدليل على أن من الممكن بهذه الشروط الأربعة التمييز الميسور بين الأفعال الكلامية المختلفة، خذ مثلاً تطبيق هذه الشروط على فعل الالتماس(١):

١- **المحتوى القضوى**: فعل مستقبلى موجه إلى سامع.

٢- **الشرط التمهيدى**:

أ - المستمع قادر على أن يؤدى الفعل.

---

(١) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.178.

ب – ليس من الواضح لكل من المتكلم والسامع أن الفعل سوف ينجــز في ظروف طبيعية أو لن ينجز.

٣- **شرط الإخلاص:** المتكلم يريد حقا أن يؤدى السامع الفعل.

٤- **الشرط الأساسي:** ثمة محاولة لحث السامع على أداء الفعل.

رابعــاً: قدم سيرل تصنيفًا بديلاً لما قدمه أوستن من تصنيف للأفعال الكلامية يقوم على ثلاثة أسس منهجية هى:

١- الغرض الإنجازى illocutionary point.

٢- اتجاه المطابقة direction of fit.

٣- شرط الإخلاص sincerity condition.

وقد جعلها خمسة أصناف أيضاً[(١)]:

١- الإخباريات assertives:

والغرض الإنجازى فيها هو وصف المتكلم واقعة معينة من خــلال قضية proposition، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق والكذب واتجــاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم words-to-world وشرط الإخلاص فيها يتمثل فى النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها.

٢- التوجيهيات directives:

وغرضها الإنجازى محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شــىء معين. واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات world-to-words وشــرط

---

(١) Verschueren, J. (1996). P.24.

– محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧٧ فما بعدها.

الإخلاص فيها يتمثل فى الرغبة الصادقة، ويدخل فى هذا الصنف الأمر، والنصح، والاستعطاف والتشجيع.

٣- الالتزاميات commissives:

وغرضها الإنجازى هو التزام المتكلم بفعل شيء فى المستقبل. واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات. وشرط الإخلاص هو القصد intention. ويدخل فيها الوعد، والوصية.

٤- التعبيريات expressives:

وغرضها الإنجازى هو التعبير عن الموقف النفسى تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات مطابقة للعالم ولا العالم مطابقًا للكلمات، ويدخل فيها الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والمواساة.

٥- الإعلانيات declaratives:

والسمة المميزة لها أن أداءها الناجح يتمثل فى مطابقة محتواها القضوى للعالم الخارجي، فإذا أديت فعل إعلان الحرب أداءً ناجحًا فالحرب معلنة، وثمة سمة أخرى مميزة هى أنها تحدث تغييرًا فى الوضع القائم فضلاً عن أنها تقتضى عرفًا غير لغوي، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج إلى شرط إخلاص.

خامساً: استطاع سيرل أن يميز بين الأفعال الإنجازية المباشرة direct والأفعال الإنجازية غير المباشرة indirect، فبين أن الأفعال الإنجازية المباشرة هى التى تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم أى يكون ما يقوله مطابقًا لما يعنيه أما الأفعال الإنجازية غير المباشرة فهى التى تخالف فيها

قوتها الإنجازية مراد المتكلم، وقد ذكر سيرل المثال الآتــى بيانًــا للأفعــال الإنجازية غير المباشرة: إذا قال رجل لرفيق له على المائدة: **هــل تنــاولنى الملح** فهذا فعل إنجازى غير مباشر، إذ قوته الإنجازية الأصلية تــدل علــى الاستفهام الذى يحتاج إلى جواب، وهو مصدر بدليل الاستفهام "هــل". لكــن الاستفهام غير مراد للمتكلم، بل هو طلب مهذب يؤدى معنى فعــل إنجــازى مباشر هو: **ناولنى الملح**(١).

والأفعال الإنجازية غير المباشرة عند سيرل لا تدل هيئتها التركيبيــة على زيادة فى المعنى الإنجازى الحرفي، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم، وقد لفت إلى أن السامع يصل إلى مراد المتكلم بما أشرنا إليــه من مبدأ التعاون الحوارى عند جرايس(٢)، وبما أســماه ســيرل اســتراتيجية الاستنتاج inference stratigy(٣).

وقد لحظ سيرل بعد مناقشته لعدد كبير من الأفعال الإنجازيــة غيــر المباشرة أنَّ أهم البواعث إلى استخدام الأفعال غير المباشرة هو التأدُّب فــى الحديث(٤) كما لحظ بعض الباحثين أن كل الأفعال الكلامية أفعال غير مباشرة فيما عدا الأفعال الأدائية الصريحة(٥)، فنحن نتواصل بها أكثر من تواصــلنا بغيرها.

---

(١) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.191f.
- Lyons, J. (1996). P.252.
- Thomas, J. (1996). P.93 f.
- محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧٩.

(٢) انظر ص ٣٣ من هذا الكتاب، فما بعدها.

(٣) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٨١.

(٤) السابق نفسه.

(٥) Thomas, J. (1996). P.94.

وبعد، فلعلى أشير فى الختام إلى ما يأتى:

١- لعله قد ظهر مما قدمت ما للاتجاه التداولى من أهمية بالغة فى الدرس اللغوى المعاصر، فعلى الرغم من اتساع جوانب الدرس فيه وتعدد الموضوعات التى لا يجمع بينها غير ظواهر الاستعمال فهو يقدم لونًا من الدرس للغة فى تجلياتها الحية لا يمكن إغفاله أو الإغضاء عنه. ويبدو ذلك جليًا فى الأخطاء التداولية التى قد تجلب على المرء من المزعجات والمخاطر ما لا قبل له به.

٢- كان لفلاسفة اللغة الطبيعية أثر غير منكور فى نشأة هذا الاتجاه وتطويره، وبخاصة فلاسفة اللغة الطبيعية فى أكسفورد: أوستن، وجرايس، وسيرل.

٣- تعددت تعريفات التداولية، وكان لهذا التعدد أثره فى ترجمة المصطلح إلى اللغة العربية؛ فقد ترجم إلى الذرائعية، والمقصدية، والمقامية، والتداولية، والتداولية أكثرها شيوعًا، وأقربها إلى طبيعة البحث فيها إذ هو منظور فيه إلى "تداول" اللغة بين المتكلم والمخاطب الذى يدل على التفاعل الحى بينهما فى استعمال اللغة.

٤- ظهر مما عرضت أن للتداولية صلة وثقى بعدد من العلوم التى لها عناية بالاستعمال اللغوى كعلم الدلالة، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وتحليل الخطاب. وأشدها التباسًا بها علم الدلالة؛ لأن الباحثين لم يلتزموا الحدود التى رسمها بعض الباحثين بينهما، فجعل علم الدلالة علاقة بين العلامات اللغوية والعالم، والتداولية علاقة بين العلامات اللغوية ومفسريها، لكن كثيرًا من علماء الدلالة لا يتحرجون

من الخوض فى المسائل التداولية وهم يتحدثون عن مشكلات الدلالة، بل إن منهم من يرى أن التداولية ليست علمًا مستقلاً، بل ينبغى أن تنضوى تحت علم الدلالة.

٥- البحث فى التداولية محكوم بأعراف لغوية واجتماعية، وهو معنى بكيفية وصول السامع إلى مراد المتكلم، وما يقدمه المتكلم من وسائل لغوية فى سياق اجتماعى وثقافى معين ليساعد السامع على الوصول إلى مـراده، وهذه كلها أمور تتأبى على الضبط المنهجى، وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الباحثون أن يقدموا كثيرًا من الضوابط والأسس المنهجية التـى تحكم الاستعمال اللغوى.

٦- لعله قد ظهر أيضاً أن دراسة اللغة دراسة شكلية معزولة عن الـسياق الاجتماعى والثقافى لا يزال أمراً منقوصاً، لا يكتمل إلا بوضـع هـذه الدراسة الشكلية على محك الاستعمال، فهو وحـده القـادر علـى أن يسددها، ويمنحها كثيرًا من الحيوية، والانطلاق، والقبـول. علـى أن دراسة الاستعمال اللغوى لا تتم على وجهها الـصحيح بمعـزل عـن الدراسة الشكلية للجوانب اللغوية، فالجانبان إذن متكاملان فى دراسـة الظاهرة اللغوية، ولا يجوز أن نستغنى بأحدهما عن الآخر، أو نعلى من شأن أحدهما على حساب الآخر.

نحو نظرية عربية

للأفعال الكلامية

(١)

المتتبع للنظريات اللسانية المعاصرة يراها تتجه اتجاهين[1]:

أحدهما يعنى بدراسة النظام اللغوى وعلاقة عناصره بعضها ببعض دراسة شكلية معزولة عن السياق الاجتماعى والثقافى الذى تستخدم اللغة فيه. ويتميز هذا الاتجاه بعنايته بالشكل أكثر من عنايته بالمعنى، بل يَعُدّ المعنى المقامى خارج نطاق اهتمامه، وهو يُعنى بالتركيب أكثر من عنايته بالسياق الذى يستخدم فيه ويميل إلى معالجة الجمل المصنوعة artificial أكثر من ميله إلى معالجة اللغة فى تجلياتها الحية، واللغة بذلك لا تدرس بوصفها خطابًا discourse بل بوصفها نصًّا مجردًا abstract text وأبرز نظريات هذا الاتجاه البنيوية أو البنائية إن شئت Structuralism، والنحو التحويلى التوليدى Transformational Generative Grammar، ونحو التعلق أو التبعية Dependency Grammar.

والاتجاه الثانى يعنى بدارسة الاستخدام اللغوى والضوابط التى تحكمه، ودور المقام أو السياق غير اللغوى فى التواصل الإنسانى، ويتميز هذا الاتجاه بعنايته بكل من المتكلم والسامع والعلاقة بينهما، وما يرافق الكلام من حركات الجسم وتعبيرات الوجه، ومن يشاركون فى الاتصال اللغوى،

---

(١) انظر:

- Helbig, G.: Entwicklung der Sprachwissenschaft seit 1970., Westdeutscher Verlag Gmb H (Opladen 1990) S. 179.
- Green, K. And Lebhan, J.: Critical Theory & practice (London/ New Tork 1996) pp. 25 – 26.
- د. أحمد المتوكل: الوظائف التداولية فى اللغة العربية (الدار البيضاء ١٩٨٥)، ص ٨.
- وانظر كتابى: مدخل إلى دراسة الجملة العربية (بيروت ١٩٨٨) ص ٢٧ فما بعدها.

وبيئة الحدث المكانية والزمانية، كما يهتم بقدرة السامع على الكشف عن مقاصد المتكلم واستجابته لها، وما يستلزمه التواصل من معانٍ مقامية لا تستطيع النظريات الشكلية الكشف عنها أو تحليلها. وأبرز نظريات هذا الاتجاه: اللسانيات الاجتماعية Sociolinguistics واللسانيات النظامية Systemic Linguistics والنحو الوظيفى Functional Grammar والتداولية Pragmatics.

وعلى الرغم مما يبدو من اختلاف مجال البحث فى كلا الاتجاهين وما يستتبعه ذلك من اختلاف مناهج البحث وإجراءات التحليل، وعلى الرغم من إبداء أنصار كل اتجاه عدم الرضا عما يقوم به أنصار الاتجاه الآخر[١]. فإن الاتجاهين فى مدى النظر متكاملان فى دراسة الظاهرة اللغوية؛ إذ ليس من الممكن دراسة الاستخدام اللغوى دون معرفة بالنظام، وليس من الممكن أن تظل دراسة النظام اللغوى معلقة فى فراغ على الرغم مما قرره دى سوسير من قبل وأخذ به أصحاب الاتجاه الشكلى، ولا يزالون، من أن اللغة تدرس فى ذاتها، ومن أجل ذاتها[٢] من أجل ذلك أخذت جهود عدد من الباحثين تتجه إلى التوفيق بينهما، وذلك بإحدى طريقتين: الأولى توسيع النظرية الشكلية لتشمل الجوانب الاتصالية والمقامية، والثانية إعادة النظر فى النموذج النحوى نفسه لكى لا ينطلق من النظام، بل من الاستخدام[٣].

---

(١) انظر مثلاً نقد سيرل لتشومسكى فى:
Searle, J. R: Chomsky's Revolution in Linguistics. In: Harman (ed) On Noam Chomsky. Critical Essays (New York 1974) p. 16 ff.
وردّ تشومسكى عليه فى:
Chomsky, N.: Reflection on Language, (London 1976) p. 55 ff.

(٢) Saussure, F. de,: Course in General Linguistic (New York. 1959) p. 232.

(٣) Helbig, G.: Entwicklung der Sprachwissenchaft seit 1970. S. 181- 182.

(٢)

تعد نظرية الفعل الكلامى Speech Act Theory (ويطلق عليها أيضًا نظرية الحدث الكلامى، ونظرية الحدث اللغوى، والنظرية الإنجازية) فى نظر أغلب الباحثين جزءًا من اللسانيات التداولية Pragmatics، وبخاصة فى مرحلتيها الأساسيتين: مرحلة التأسيس عند أوستن J. L. Austin، ومرحلة النضج والضبط المنهجى عند تلميذه سيرل J.R. Searle وكلاهما من فلاسفة أكسفورد[١]. أما بعد هاتين المرحلتين فقد ناشتها بعض النظريات المعاصرة، وبخاصة اللسانيات التوليدية ولسانيات النص؛ إذ حاولت كل منهما أن تعدل فيها لتدخلها فى إطارها العام، وتخضعها لطرائق التحليل فيها، ومن أبرز من قام بهذا فى اللسانيات التوليدية كاتز، وفى لسانيات النص موتش، وفيفيجر[٢].

وسوف نعنى بعرض هذه النظرية فى مرحلتيها الأساسيتين عند كل من أوستن وسيرل عرضًا موجزًا يكشف عن منطلقاتها التأسيسية، وأسسها المنهجية، وما قام به سيرل من تطوير لها وتعديل مفضلين ألا نخلط عمل أوستن بعمل سيرل وباجتهادنا الشخصى كما فعل ذلك بعض الباحثين[٣]، بل

---

(١) Green, K. And Lebhan, J.: Critical Theory & Practice, p. 29.
- Levinson S.C.: Pragmatics. Cambridge University press 1983, p. 226.

(٢) Katz, J.J.: propositional Structure and Illocutionary force. A study of the contribution of Sentence Meaning to Speech Acts. The Harvester press 1977, p. 30 ff.
- Motsch, W. Viehweger, D.: Sprechhandlung, Satz und Text. In: Sprache und pragmatik. Lunder Symposium 1980. Hrsg. I. Rosengren. Lund 1981. S. 125 ff.

(٣) انظر مثلاً:
- Leech. G. N.: Principles of Pragmatics. Longman (London/ New York 1983) Chapter 9.
- Lyons, J.: Linguistic Semantics. An Introduction. Cambridge University press 1995. Chapter 8.

نذكر جهد كل منهما، ثم نحاول بعد ذلك – فى إطار المثاقفة والحوار مع الآخر – أن نحاور الأسس المنهجية لهذه النظرية بما فى تراثنا من أسس منهجية مستقرة تتفق فى كثير مع الأسس المنهجية لهذه النظرية سعيًا إلى وضع نظرية عربية موازية لهذه النظرية يظل لها وجهها العربى، ولسانها العربى أيضًا.

(٣)

يعد أوستن مؤسس هذه النظرية وواضع المصطلح الذى تعرف به الآن فى الفلسفة وفى اللسانيات المعاصرة[١]، وكان ذلك فى المحاضرات التى ألقاها فى جامعة أكسفورد فى العقد الثالث من القرن العشرين، ثم فى المحاضرات الاثنتى عشرة التى ألقاها فى جامعة هارفارد سنة ١٩٥٥ ونشرت سنة ١٩٦٢ بعد موته فى كتاب عنوانه:

How to do Things with Words[٢]

وكان أوستن قد تأثر بما نبه إليه فتجنشتاين Wittgenestein من أن اللغة قد تستخدم لوصف العالم من حولنا بيد أن هناك حشدًا من الاستعمالات الأخرى للغة لا تصف وقائع العالم، كالأمر، والاستفهام، والشكر واللعن، والتحية، والدعاء، وقدم ثبتًا طويلاً بهذه الاستعمالات المختلفة للغة، وأطلق

---

(١) Lyons, J. Lingusitic Semantics. P. 236.
ويذكر ليونز أن مصطلح Speech Act ترجمة لـ: "Sprechact" الذى ورد عند بيولر Bühler سنة ١٩٣٤ وقد استخدمه اللغويون ولا يزالون يستخدمونه بين حين وآخر بمعناه الأقرب إلى الدلالة غير الاصطلاحية وهو حدث الكلام act of speech. انظر الحاشية رقم (٢) من المرجع السابق.

(٢) Ibid, 236.
- Malmkjaer K.: The Linguistics Encyclopedia. (Speech – act theory) p. 416.

عليها ألعاب اللغة language games، وأسمى كل استعمال منها لعبة؛ لأن لـه قواعد يتفق عليها مستعملو اللغة كما يتفق اللاعبون على قواعد اللعبة. ورأى أن كل نوع من ألعاب اللغة محكوم بنوع مخصوص من السياق الاجتماعى ومحدد بأعراف اجتماعية معينة، من ثم فإن كل لعبة من ألعاب اللغة أو استخدام من استخداماتها يستحق اهتمامًا مساويًا لأى استخدام آخر، وأرسى مبدأ مثيرًا للجدل عند الفلاسفة: «المعنى هو الاستعمال Meaning is use»[1] من ثم تصدى أوستن للرد على فلاسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism الذين كانوا يرون اللغة أداة رمزية تشير إلى الوقائع الموجودة فى العالم الخارجى، ولا عمل للغة يعتد به عندهم إلا وصف هذه الوقائع بعبارات إخبارية، ثم يكون الحكم بعد ذلك على العبارة بالصدق أو الكذب إذا طابقت الواقع أو لم تطابقه. أما العبارات غير الإخبارية فهى عندهم زائفة ولا معنى لها، وهم لا يعتدون بها؛ لأنهم لا يجدون من وقائع العالم ما تطابقه أو يطابقها[2].

لقد أنكر أوستن أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارات الإخبارية هى "وصف" حال الوقائع State of affairs وصفًا يكون إما صادقًا أو كاذبًا،

---

(١) Lyons, J.: Semantics, Cambridge University Press, 1977, Vol. 2, p. 727.
- Levinson, S.C.: Pragmatics, Cambridge University Press, p. 227.
وانظر:
– صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوى عند مدرسة أكسفورد ص ١١٧ وما بعدها.
– فؤاد كامل، جلاء العشرى، عبد الرشيد صادق: الموسوعة الفلسفية المختصرة، راجعها وأشرف عليها: زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٦٣) من ٢١٢ – ٢١٣.

(٢) Lyons, J.: Linguistic Semantics, p. 237.
- Levinson, S. C.: Pragmatics. P. 227.

وأطلق عليه "المغالطة الوصفية descriptive Fallacy"[١]. ومضى يثبت أن بجانب هذه العبارات الوصفية نوعًا آخر من العبارات قد يتشابه فى التركيب مع العبارات الوصفية، لكنه لا يصف شيئًا فى الواقع الخارجى، ولا يحتمل الصدق أو الكذب، فإذا بشرت بمولود مثلاً وقيل لك سَمِّه، قلت: أسميه يحيى، وإذا رأيت أن توصى ببعض مالك لجهة من جهات الخير فقلت: أوصى بنصف مالى للجمعيات الخيرية، أو إذا قال لك رجل والشهود حضور: زوجتك ابنتى، فقلت: قبلت، فإن هذه العبارات ونحوها لا تصف شيئًا من وقائع العالم الخارجى، ولا تحتمل الصدق والكذب، بل إنك إذا نطقت بواحدة منها أو مثلها لا تلقى قولاً، بل تنجز فعلاً، فالقول هنا هو الفعل أو هو جزء منه؛ لأنك تنجز فعل التوصية بقولك "أوصى"، فالقول هنا ليس مجرد كلام، بل هو فعل كلام أو هو فعل كلامى[٢].

وظاهر أن أوستن ميّز فى هذه المرحلة بين نوعين من الأفعال: أفعال إخبارية constative تخبر عن وقائع العالم الخارجى وتكون إما صادقة وإما كاذبة، وقد آثر أن يعدل عن تسميتها أفعالاً وصفية descriptive، لأنه ليس كل ما يقبل الصدق والكذب وصفيًا[٣]. وأخرى تنجز

---

(١) Austin. J. L.: How to do Things with Words, Harvard University Press. (1992) p. 2 f.

وانظر:

- Lyons, J.: The Linguistic Semantics, p. 237.

(٢) Austin, J. L. (1962) p. 5 f.

وانظر:

- Althaus, H. P., Henne. H., Wiegand, H. E.: (Hrsg.) Lexikon der Germanistischen Linguistik. Max Niemeyer Verlag Tübingen 1980 (24- Sprechacttheorie) S. 287.

(٣) Austin, J. L: (1962) p. 3.

بها فى ظروف ملائمة أفعال أو تؤدى، وقد أطلق عليها مصطلح الأفعال الأدائية performative[(١)].

وكان أهم ما ميز به الأفعال الأدائية عن الأفعال الإخبارية أن الإخبارية لها خاصية أن تكون صادقة أو كاذبة على حين أن الأدائية ليس لها هذه الخاصية، إذ هى تستخدم لإنجاز فعل كالتسمية، والاعتذار، والترحيب، والنصح... إلخ، وهى من ثم لا توصف بصدق ولا كذب بل تكون موفقة أو سعيدة happy كما أطلق عليها، إذا راعى المتكلم شروط أدائها، وكان أهلاً لفعلها، وغير موفقة أو تعيسة unhappy إذا لم يراع المتكلم شروط أدائها. فلا يحقُّ لك مثلاً أن تقبل الزواج من هى زوجة لك فعلاً، ولا أن تسمى ابنًا لغيرك إلا إذا أذن لك أبواه بذلك، ولا توصى بمال غيرك للجمعيات الخيرية، ولا أن تعد بما لا تقدر عليه، فإن فعلت لم ينعقد بكلامك فعل وصار لغوًا من اللغو. وقد تعد مثلاً وأنت قادر على إنجاز ما تعد لكنك تضمر فى نفسك أن تخلف وعدك فلا يقع فعل الوعد: لأنك غير مخلص له، وقد تعاهد شخصًا على شئ ثم تنقض عهدك، فلا يقع فعل العهد؛ لأنك لم توف به بل نقضته، فهذه ثلاثة أنواع من الفعل الأدائى غير الموفق أو التعيس ذكرها أوستين[(٢)].

---

(١) Ibid, p. 6.

وقد أفرد أوستن للتمييز بين الأفعال الأدائية والإخبارية بحثًا كتبه بالفرنسية، وألقاه فيما يبدو فى مؤتمر أنجلو فرنسى سنة ١٩٥٨، ثم ترجمه من بعد وورنوك Warnok إلى الإنجليزية،، ونشره سيرل فى كتاب بعنوان فلسفة اللغة صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٧١.

Searle, J. R: (ed): The philosophy of Language, Oxford University press 1977, p. 13 ff.

(٢) Austin, J. L: Performative- constative. In: Searle, J. R. (ed) 1977 pp. 13 – 14.

- Austin, J. L: (1962) p. 132.

لقد أطلق أوستين على الشروط التى تتحقق بهـا الأفعـال الأدائيـة الصريحة شروط الملاءمة felicity conditions وحصرها فى ثلاثـة أنمـاط أساسية كل نمط منها يحتوى على شرطين، فهى إذن ستة شروط:

وذلك على النحو الآتى[1]:

أ – ١: وجود إجراء عرفى مقبول، وله أثر عرفى محدد كالزواج مـثلاً وأن يشتمل هذا الإجراء على كلمات محددة ينطق بها أشخاص محددون فى ظروف محددة. فإذا لم يوجد إجراء عرفـى مقبـول ذو أثـر معلـوم كالزواج فى الأفلام أو التمثيليات، أو إذا لم تنطق الكلمات على النحـو الصحيح المفهوم الذى ينعقد به الإجراء، أو إذا كان الـشخص الـذى يتولى الإجراء فاقد الأهلية للقيام به، أو إذا كانت الظروف غير ملائمة فإن الفعل لا يؤدى.

٢: ينبغى أن يكون أولئك الأشخاص مناسبين لهذا الإجراء المحـدد وأن تكون الظروف مناسبة أيضًا، فإذا طلب منك مثلاً أن تختار شخصًا ليساعد فى بحث ميدانى مثلاً، فاخترت شخصًا غير مناسـب لهـذه المهمة، فإن الفعل لم يؤد.

ب – ١: ينبغى أن يؤدى هذا الإجراء جميع المشاركين فيـه أداة صـحيحًا، بالبعد عن استعمال العبارات الغامضة أو الملبسة كأن تقول لرجـل جاء ليشترى منك منزلاً محددًا من منازلك: أبيعك منزلاً بمليون، أو أبيعك أحدها بمليون.

---

(١) Austin, J. L (1962) p. 14 ff.

وانظر: صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ١٤٢ فما بعدها.

– د. محمد العبد: الحدث اللغوى: مفهومه وأنواعه (القاهرة ١٩٩٦) ص ٨ فما بعدها.

٢: ينبغى أن يؤدى هذا الإجراء جميع المشاركين فيه أداءً كاملاً فإذا قال رجل لآخر: أبيعك منزلى بمليون ولم يقل الرجل قبلت كـــان الأداء ناقصًا.

جــ- ١: ولما كان هذا الإجراء يؤديه أشخاص ذوو أفكار معينة ومشاعر فإن على المشارك فيه أن يكون لديه تلك الأفكار والمشاعر التى يتطلبها الإجراء، فإذا قلت لشخص: أهنئك بهذه المناسبة السعيدة، وأنت فى قرارة نفسك لا تشعر بذلك بل بنقيضه، أو إذا قلت لشخص أعــدك بأن أساعدك وأنت تنوى ألا تساعده أو إذا قلت لرجل: أنصحك بكذا وأنت تقصد تضليله، فقد أسأت أداء الفعل.

٢: على المشارك فى الإجراء أن يوجه نفسه إلى ما يستتبعه ذلك مـــن سلوك ظاهر، فإذا قلت لشخص: أرحب بك ثم سلكت بعد ذلك معـــه سلوك غير المرحب فقد أسأت أداء الفعل.

ثم بين أوستن أن الفرق الكبير بين الشروط الأربعة الأولـــى التـــى تضمنتها أ، ب، والشرطين الأخيرين اللذين تضمنتهما (ج) يتمثـــل فـــى أن الشروط الأربعة لازمة لأداء الفعل، فإذا لم يتحقق واحد منها فـــإن الفعـــل لا يؤدى، أما إذا لم يتحقق شرط من الشرطين الأخيرين، فإن الفعل يؤدى، لكنه يؤدى أداء سيئًا[1]. وقد أطلق أوستن على الأفعال التـــى خالفـــت الـــشروط الأربعة مصطلح الإخفاقات "misfires"، وعلى ما خالف شرطًا من الشرطين الأخيرين مصطلح الإساءات "abuses"[2].

---

(١) Austin, J. L. (1962) p. 15.

(٢) Ibid. P. 16.

وقد كان تمييز أوستين لهذين النوعين من الشروط حـافزًا لـبعض الباحثين على تقسيم الشروط إلى قسمين اثنين: قسم يسميه الشروط التكوينية constituent وهى الشروط اللازمة لأداء الفعل فإذا لم تتحقق كان ذلك إيـذانًا بإخفاق الأداء. وقسم يسميه الشروط القياسية regulative، فإذا لم تتحقق نـتج عن ذلك سوء أداء للفعل أو أدى الفعل أداء معيبًا[1].

ولعله نقل ذلك عن سيرل كما سيأتى.

على أن الرجل فى سعيه إلى تمييز الأفعال الأدائية عـن الإخباريـة حاول أن يتلمس وسائل لغوية تميز الأفعال الأدائية فلحظ أن هذه الأفعال فى اللغة الإنجليزية يستخدم معها غالبًا ضمير المتكلم مسندًا إليه، والفعـل فـى صيغة المضارع المبنى للمعلوم، وتكون موجهة إلى مخاطب، وهو من ثـم يرى أنك إذا قلت: أعدك بكذا كان فعلاً أدائيًا لكنك إذا قلت: وعدتك بكذا، أو أعده بكذا لم يكن أدائيًا، والتفت أيضًا إلى معيار رآه نافعًا فى هـذا المجـال وهو أن الأفعال الأدائية يصح أن تستخدم معها كلمة "hierby" أمـا الأفعـال غير الأدائية فلا يصح استخدام هذه الكلمة معها[2] وهـو مـا أطلـق عليـه الباحثون من بعد "hierby test"[3].

على أن أوستن قد نبه إلى أن الفعل قد يؤدى أحيانًا بصيغة المبنـى لغير الفاعل أو بصيغة اسم المفعول نحو: يسمح لك بكـذا أو مـسموح لـك

---

(١) Geis, M. L.: Speech acts and Conversational Interaction, Cambridge University Press (1997). P. 4. Footnote 6.

(٢) Austin, J. L. Performative- Cosntative. In; Searle, J. R.: (1971) p. 15. Austin, J. L; (1962). p. 57.

(٣) Malmkjaer, K. (ed) The Linguistics Encyclopedia, p. 418.
- Levinson, S. C.: (1983) p. 232.

بكذا[١]. ثم مضى أوستن يتأمل الأفعال الأدائية فوصل إلى أنها نوعان: أدائيات صريحة explicit وأدائيات أولية primary[٢] وذكر لهما مثالين هما:

- أعدك أن أكون هناك.
- سأكون هناك.

فالمثال الأول صريح الدلالة على الوعد، ولا يحتمل غيره، فى حين أن المثال الثانى قد يكون وعدًا وقد لا يكون[٣]. فالوعد عادة يقال فى سياق يعتقد فيه الواعد أن المخاطب يتطلع إلى هذا الوعد ويتعلق به. فإذا سألك شخص عن المدعوين فى حفل، ولم يكن هو من بين المدعوين، فذكرت له أسماءهم ثم قلت: "وسأكون هناك". فلن يكون هذا القول وعدًا؛ لأن المخاطب ليس فى حاجة إليه، وليس عنده تعلق به أو رغبة فيه. أما إذا كان هذا المخاطب من بين المدعوين، وقال لك: والله لا أذهب إلى الحفل حتى تذهب أنت، فقلت: "سأكون هناك" كان قولك وعدًا؛ لذلك فإن الأدائيات الضمنية تعتمد اعتمادًا أساسيًا على المقام؛ إذ به تكون أدائيةً أو لا تكون، ولا كذلك الأدائيات الصريحة[٤]. من ثم كان إدراك الأدائيات الصريحة أيسر، لأنها تعلن عن نفسها فى كل سياق تقال فيه[٥].

---

(١) Austin, J. L. (1962) p. 57.

(٢) Austin, J. L. (1962) p. 57.

(٣) على الرغم من أن الرجل نص على أنه يفضل ألا يقابل الأدائيات الصريحة بغير الصريحة inexplicit – فقد شاع بين عدد من الباحثين مقابلة الصريحة بالضمنية – انظر:

- Austin, J. L: (1962) p. 59.
- Levinson, S.C. (1983) p. 231.
- Bright, W. (ed) International Encyclopedia of Linguistics, Vol. 4 p. 65.

(٤) Austin, J. L. (1962) p. 59.

(٥) Geis, M, L.: (1997) p. 5 f.

وبرغم ما بذله أوستن من جهد فى التمييز بـين الأفعـال الأدائيـة والإخبارية فقد ظل يرجع النظر فى هذا التقسيم حتى تبين له فى النهايـة أن الحدود بين هذين النوعين من الأفعال لاتزال غير واضحة، وأن ما وضـعه من شروط، وما أشار إليه من وسائل ليس كافيًا للتمييز بينهما؛ إذ وجـد أن شروط الأفعال الأدائية تنطبق أحيانًا على أفعال ليست أدائية، وأن أفعالاً غير أدائية تنطبق عليها شروط الأفعال الأدائية[1]؛ فعاد من حيث بدأ إلى السؤال: كيف تنجز فعلاً حين تنطق قولاً فرأى الفعل الكلامى مركبًا من ثلاثة أفعـال تؤدى فى الوقت نفسه الذى ينطق فيه بالفعل الكلامى، فهى ليست أفعالاً ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدًا وراء الآخر، بل هى جوانب مختلفـة لفعـل كلامى واحد، ولا يفصل أحدها عن الآخر إلا لغرض الدراسة فحسب وهى:

١- الفعل اللفظى locutionary act:

ويتكون من النطق بأصوات لغوية ينتظمها تركيب نحوى صحيح ينتج عنه معنى محدد هو المعنى الحرفى أو الأصلى المفهوم من التركيـب، ولـه مرجع يحيل إليه.

٢- الفعل الغرضى أو الإنجازى illocutionary act:

ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظى من وظيفة فى الاستعمال كالوعـد، والتحذير، والأمر والنصح... إلخ.

٣- الفعل التأثيرى perlocutionary act:

ويقصد به الأثر الذى يحدثه الفعل الإنجازى فى السامع أو المخاطب

---

(١) Austin, J. L.: Performative-cosntative. In; Searle, J. R.: (ed) 1971, p. 16 ff.

سواء أكان تأثيرًا جسديًا أم فكريًا أم شعوريًا[1].

ونسوق مثلاً يتصح به هذا الفعل الكلامى المركب من ثلاثة أفعال: إذا دخل عليك شخص وقال لك: "خلف هذا الباب أفعى". فالفعل اللفظى هو الهيئة التركيبية لهذه الجملة بأصواتها التى نطقت وبتركيبها النحوى الصحيح، وبمعناها الحرفى الذى يقرر أن خلف الباب أفعى، ومرجعه وجود أفعى فعلاً خلف الباب. والفعل الإنجازي هو ما يقصده المتكلم بهذا القول، وهو: التحذير من الأفعى، والفعل التأثيرى هو ما يخلفه هذا القول من أثر فيك، قد يكون الفزع، أو الهرب من المكان، أو النهوض لقتلها[2]... إلخ.

وقد أدرك أوستن أن الفعل اللفظى لا ينعقد الكلام إلا به، وأن الفعل التأثيرى لا يلازم الأفعال جميعًا، فمنها ما لا تأثير له فى السامع أو المخاطب، من ثم كان الفعل الإنجازى عنده أهمها جميعًا، فوجه إليه همه حتى أصبح لُبَّ هذه النظرية، وأصبحت تعرف به أيضًا، فيطلق عليها أحيانًا نظرية الفعل الإنجازى أو النظرية الإنجازية.

على أنَّ الفعل الإنجازى يرتبط عند أوستن ارتباطًا وثيقًا بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يبذل الجهد الكافى للوصول إليه، ولهذا يقوم مفهوم قصد المتكلم speeker intention الذى يعبر عنه بالإنجاز illocution بدور مركزى فى نظرية الفعل الكلامى.

وقد قام أوستن فى المحاضرة الأخيرة (الثانية عشرة) بتقديم تصنيف

---

(١) Austin, J. L. (1962) p. 101 ff.

(٢) Helbig, G: (1990) S. 1985.

والمثال الذى ذكره هلبج هو:

Der Hun ist bissig

للأفعال الكلامية على أساس ما أسماه "قوتها الإنجازيـــة" illocutionary force فجعلها خمسة أصناف لكنه لم يتردد فى القول بأنه غيـــر راض عـــن هـــذا التصنيف[١]:

١- **أفعال الأحكام verdictives**: وهى التى تعبر – كما يدل المصطلح – عن حكم يصدره محلّف، أو محكّم، أو حكَم، وليس من الضرورى أن تكون الأحكام نهائية أو نافذة، فقد تكون تقديرية أو ظنية مثل: يبرئ، يقـــدر، يعين، يقوّم، يشخص (مرضًا)، يحلل[٢].

٢- **أفعال القرارات exercitives**، التى تعبر عن اتخاذ قرار فى صالح شـــئ أو شخص أو ضده مثل: يأذن، يطرد، يحرم، يجند، يختـــار، يوصـــى، يحذر، يصرح بــــ، يُحدث، يعتذر، ينصح[٣].

٣- **أفعال التعهد commissives**: وهى التى تعبر عن تعهد المتكلم بفعل شئ أو إلزام نفسه به مثل: أعد، أتعهد، أتعاقد على، أضمن، أقـــسم علـــى، أقبل[٤].

٤- **أفعال السلوك behabitives**: وهى التى تعبر عـــن رد فعـــل لـــسلوك الآخرين، ومواقفهم، ومصائرهم كالاعتذار، والشكر، والتعاطف، والفقد، والمواساة، والتحية، والرجاء، والتحدى[٥].

٥- **أفعال الإيضاح expositives**: وهى الأفعال التى تستخدم لتوضيح وجهة

---

(١) Austin, J. L. (1962) p. 150.
(٢) Ibid, p. 152.
(٣) Austin, J. L. (1962) p. 154.
(٤) Ibid, p. 156.
(٥) Ibid, p. 159.

النظر أو بيان الرأى وذكر الحجة مثل: الإثبات، والإنكار، والمطابقة، والملاحظة والتنويه، والإجابة، والاعتراض، والاستفهام، والتشكيك، والموافقة، والتصويب[1].

(٤)

لم يستطع أوستن أن يحقق ما سعى إليه من وضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، فلم يكن ما قدمه من تصور كافيًا ولا قائمًا على أسس منهجية واضحة ومحددة؛ فقد خلط بين مفهوم الفعل قسمًا من أقسام الكلام والفعل حدثًا اتصاليًا، ولم يقم تحديده للأفعال وتصنيفه لها على أساس راسخ فتداخلت فئاتها ودخل فى بعض الفئات ما ليس منها[2] لكنه برغم ذلك وضع بعض المفهومات المركزية فى النظرية، ومن أهمهما تمييزه بين محاولة أداء الفعل الإنجازى والنجاح فى أداء هذا الفعل، وتمييزه بين ما تعنيه الجملة وما قد يعنيه المتكلم بنطقها، وتمييزه بين الصريح من الأفعال الأدائية والأولى منها، فضلاً عن تحديده للفعل الإنجازى الذى يعدُّ مفهومًا محوريًا فى هذه النظرية.

على أن التطوير الأساسى للنظرية تحقق على يد سيرل فيما يعرف بالمرحلة الأساسية الثانية للنظرية، فقد ظهرت على يده نظرية منتظمة

---

(١) Ibid, p. 160 f.

(٢) Lyons, J.: (1977)p. 740.
- Helbig, G.: (1990) S. 187.

وانظر:
– صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوى عند مدرسة أكسفورد ص ٢٠٦ فما بعدها.
– د. محمد العبد: الحدث اللغوى: مفهومه وأنواعه ص ٣٩ فما بعدها.

systematic لاستعمالات اللغة بمصطلحات الأفعال الكلامية، قائمة علـــى أن الكلام محكوم بقواعد مقصدية intentional، وأن هذه القواعد يمكن أن تحـــدد على أسس منهجية واضحة ومتصلة باللغة(١). والرجل على كل حال لم يبـــدأ من فراغ، بل بنى على ما ابتدأه أوستن وأخذ يحكمه شيئًا فشيئًا حتى أصـــبح خلقًا سويًا(٢).

ومن الممكن أن نحدد أهم ما قام به سيرل فيما يأتى:

أولاً: قام بتعديل التقسيم الذى قدمه أوستن للأفعال الكلاميـــة فجعلـــه أربعة أقسام، أبقى منها على القسمين الإنجازى والتأثيرى(٣)، لكنه جعل القسم الأول وهو الفعل اللفظى قسمين:

أحدهما: الفعل النطقى utterance act: وهو يشمل الجوانب الـــصوتية والنحوية والمعجمية.

والثانى: الفعل القضوى propositional act: وهو يشمل المتحدث عنه أو المرجع reference، والمتحدث به أو الخبر predication(٤) ونصَّ على أن الفعل القضوى لا يقع وحده، بل يستخدم دائمًا مع فعل إنجازى فـــى إطـــار كلامى مركب؛ لأنك لا تستطيع أن تنطق بفعل قضوى دون أن يكـــون لـــك مقصد من نطقه(٥). كما نص على أن الفعل الإنجازى هو الوحدة الـــصغرى

---

(١) Bright, W.: (ed): International Encyclopedia of Linguistics. Vol. 4, p. 565.

(٢) Levinson, S. C.: (1983) p. 238.

(٣) Searle, J. R.: Speech Acts. An Essay in the philosophy of language. Cambridge University Press, 1969, pp. 24- 25.

(٤) Ibid, p. 24.

(٥) Ibid, p. 25.

minimal unit للاتصال اللغوى[١]. ولإيضاح ذلك نذكر لك الجمل الآتية:

١- يقرأ زيد الكتاب. ٢- أيقرأ زيد الكتاب؟

٣- يا زيد، اقرأ الكتاب. ٤- لو يقرأ زيد الكتاب !

عند النطق بأىّ من هذه الجمل ينجز المتكلم ثلاثة أنواع من الأفعال فى وقت واحد:

١- الفعل النطقى: ويتمثل فى نطقك الصوتى للألفاظ على نسق نحوى ومعجمى صحيح.

٢- الفعل القضوى: ويتمثل فى مرجع هو محور الحديث فيها جميعًا، هو زيد فى الجمل الأربع، وخبر هو فيها جميعًا قراءة الكتاب، والمرجع والخبر يمثلان معًا قضية proposition هى: قراءة زيد الكتاب، والقضية هى المحتوى المشترك common content بينها جميعًا.

٣- الفعل الإنجازى: وهو: الإخبار فى الأولى، والاستفهام فى الثانية، والأمر فى الثالثة، والتمنى فى الرابعة[٢].

وينبغى أن نشير إلى أن الفعل التأثيرى perlocutionary ليس له أهمية كبيرة عند سيرل، لأنه ليس من الضرورى عنده أن يكون لكل فعل تأثير فى السامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما[٣].

---

(١) Searle. J. R: What is a Speech Act? In: The Philosophy of Language. P. 39.

(٢) Searle. J. R.: (1969), p. 22 ff.
- Searle. J. R.: (1971), p. 42 f.

(٣) Stammarjohann, H. (Hrs): Handbuch der Linguistik. Allgemeine und angewandte Sprachwissenschaft. (München 1975) S. 458.

ويدل على القوة الإنجازية دليل يسمى دليل القوة الإنجازية illocutionary force indicator يبين لنا نوع الفعل الإنجازى الذى يؤديه المتكلم بنطقه للجملة، ويتمثل فى اللغة الإنجليزية فى نظام الجملة word order، والنبر stress، والتنغيم intonation، وفى علامات الترقيم punctuation فى اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل mood وما يسمى الأفعال الأدائية performative(١).

ثانياً: رأى سيرل أن الفعل الكلامى أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط أيضًا بالعرف اللغوى والاجتماعى، ولكى يوضح ذلك ضرب المثل الآتى: فلنفترض أننى جندى أمريكى فى الحرب العالمية الثانية وأن الإيطاليين أسرونى، وافترض أننى أردت أن ألقى فى روع هؤلاء الإيطاليين أننى ضابط ألمانى لكى يطلقوا سراحى، فما أريده هو أن أقول ذلك باللغة الألمانية أو الإيطالية، ولما كنت لا أجيد آيا من اللغتين فقد حاولت أن أقول لهم: «إننى ضابط ألمانى» باستخدام جملة من اللغة الألمانية تذكرتها مما كنت أدرسه فى المدرسة من دروس اللغة الألمانية، ثقة منى بأنه ليس من هؤلاء الإيطاليين من يجيد اللغة الألمانية بحيث يستطيع أن يكشف الخطة التى أدبرها، فالتفت إليهم قائلاً:

Kennest du das Land, wo die Zitrone blühen ?

ثم حلَّل ذلك قالاً: إن قصد المتكلم بهذه الجملة هو أن يقول: إننى ضابط ألمانى ليؤثر فى المخاطبين فيطلقوا سراحه، لكن هذه الجملة فى اللغة الألمانية لا تعنى ذلك، بل تعنى: هل تعرف الأرض التى يزهر فيها الليمون"

---

(١) Searle. J. R.: (1969), p.30
- Searle, J. R.: (1971) p. 45 f.

ولا يسمح العرف اللغوى فى الألمانية باستخدام هذه الجملة فى هذا السياق، وهذا دليل على أن قصد المتكلم وحده لا يكفى، بل لابد من العرف اللغوى أيضًا. ثم لخص سيرل ذلك فى عبارة مأثورة هى[1]:

"Meaning is more than a matter of intention, it is also a matter of convention".

ثالثاً: استطاع سيرل أن يطور تصور أوستن لشروط الملاءمة أو الاستخدام felicity conditions التى إذا تحققت فى الفعل الكلامى كان موفقًا، فجعلها أربعة شروط، وطبقها تطبيقًا موجزًا ومحكمًا على أنماط من الأفعال الإنجازية، فطبقها على أفعال الرجاء، والإخبار، والاستفهام والشكر، والنصح، والتحذير، والتحية، والتهنئة وبين ما قد يحتاجه كل منها إلى بعض شروط إضافية، وما يستغنى منها عن بعض الشروط ونكتفى هنا بذكر هذه الشروط مطبقة على فعل الرجاء[2]:

١- شرط المحتوى القضوى propositional content:

فعل فى المستقبل مطلوب من المخاطب.

٢- الشرط التمهيدى preparatory:

أ - المخاطب قادر على إنجاز الفعل، والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز الفعل.

ب - ليس من الواضح عند كل من المتكلم والمخاطب أن المخاطب سينجز الفعل المطلوب فى المجرى المعتاد للأحداث.

---

(١) Searle. J. R.: (1971), p. 45 f.

(٢) Searle. J. R.: (1969), p. 66 f.
- Searle. J. R.: (1971) p. 53.

٣- شرط الإخلاص sincerity:

المتكلم يريد حقًا من المخاطب أن ينجز هذا الفعل.

٤- الشرط الأساسى essential:

محاولة المتكلم التأثير فى المخاطب لينجز الفعل.

ولم يكتف سيرل بذلك بل قال إنّ هناك (على الأقل) اثنى عشر بُعدًا dimension يختلف بها كل فعل إنجازى عن الآخر، ومضى يذكرها مفصلة[١] ونوجزها فيما يلى:

١- الاختلاف فى الغرض الإنجازى illocutionary point للفعل فالغرض الإنجازى للأمر مثلاً هو محاولة التأثير فى السامع ليقوم بفعل ما، على حين أن الغرض الإنجازى من الوعد مثلاً هو إلزام المتكلم نفسه بفعل شئ ما للمخاطب.

على أن الغرض الإنجازى يعد جزءًا من القوة الإنجازية لكنه ليس إياها، فالغرض الإنجازى من الرجاء مثلاً هو نفسه الغرض الإنجازى للأمر، لكن القوة الإنجازية فى كل منهما تختلف اختلافًا بينًا، فالقوة الإنجازية نتاج عناصر عديدة ليس الغرض الإنجازى إلا واحدًا منها.

٢- الاختلاف فى اتجاه المطابقة direction of fit.

فاتجاه المطابقة فى بعض الأفعال الإنجازية من الكلمات إلى العالم كالإخباريات assertions وهو فى بعضها من العالم إلى الكلمات كالوعد والرجاء.

---

(١) Searle. J. R.: Expression and Meaning. Srudies in the Theory of Speech Acts, Cambridge University Press, 1981, p. 2 ff.

٣- الاختلاف فى الموقف النفسى الذى يعبر عنه المتكلم، فالـذى يعـد أو يتوعد يعبر عن مقصدية الإنجاز، والذى يأمر، أو يطلـب، أو يرجـو يعبر عن رغبة فى أن ينجز السامع الفعل، والذى يعتذر يعبر عن الندم على ما فرط منه.

٤- الاختلاف فى القوة أو فى الدرجة التى يعرض بها الغرض الإنجـازى فقولك مثلاً "أقترح أن نذهب إلى السينما" وقولك: "أصرّ على أن نذهب إلى السينما" كل منهما يتفق مع الآخر فى الغـرض الإنجـازى لكنـه عُرض فى كل منهما بدرجة مختلفة من القوة، فهو فى القـول الثـانى أقوى منه فى القول الأول وأشد.

٥- الاختلاف فى منزلة كل من المتكلم والسامع، فإذا طلب الـضابط مـن الجندى أن يفعل شيئًا كان أمرًا، أما إذا طلب الجندى من الـضابط أن يفعل شيئًا كان اقتراحًا أو رجاءً، لكنه لا يكون أمرًا بحال.

٦- الاختلاف فى طريقة ارتبـاط القـول باهتمامـات المـتكلم والـسامع كالاختلاف بين المدح والرثاء أو التهنئة والتعزية، وهو نمط آخر مـن أنماط الشرط التمهيدى preparatory condition.

٧- الاختلاف فى العلاقة بسائر عناصر الخطاب والسياق الذى يقـع فيـه، فقولك: أجيب، أو أستدل، أو أستنتج، أو أعترض على... يربط الأقوال التالية بالأقوال السابقة وبالسياق الملابس لها.

٨- الاختلاف فى المحتوى القضوى propositional content الذى تحـدده القوة الإنجازية والوسائل الدالة، كـالاختلاف بـين الإخبـار والتوقـع فالإخبار يكون عن أمر مضى، والتوقع يكون لأمر مستقبل.

٩- الاختلاف فى أن يكون القول دائمًا فعلاً كلاميًا، وأن يمكــن أن يكــون فعلاً كلاميًا لكننا لسنا فى حاجة إلى أن نجعله فعــلاً كلاميًــا، فأنــت تستطيع مثلاً أن تصنف الأشياء وأنت تقول: أنا أصنف هذه الأشياء إلى (أ) و(ب)، لكنك قد لا تحتاج إلى قول أى شئ لتصنيف الأشــياء، إذ يكفى أن تضع ما هو منها من النوع (أ) فى الصندوق المخصص لــ (أ) وما هو من النوع (ب) فى الصندوق المخصص لــ (ب). كــذلك يمكن أن تقول عن تقدير القيمة أو تــشخيص الحالــة، "أنــا أقــدر" أو "أشخص" لكن من الممكن أن تقدر أو تشخص دون أن تقول شيئًا على الإطلاق.

١٠- الاختلاف فى أن يقتضى أداء الفعل عرفًا غير لغــوى أو لا يقتــضى كالزواج وإعلان الحرب، فلا يجوز الزواج إلا فى إطار عرف غيــر لغوى، وكذلك إعلان الحرب لا يجوز أن يقوم به شخص إلا فى إطار عرف غير لغوى، ولا كذلك أفعال مثل الوعد أو الإخبــار فمثلهــا لا يحتاج إلا إلى العرف اللغوى.

١١- الاختلاف فى أن تكون الأفعال قابلة للأداء أو لا تكون، فمعظم الأفعال الإنجازية قابلة للأداء مثل أقرر، أعد، آمر، استنتج، لكن ثمة أفعالاً لا تؤدى بالقول فقط فأنت لا تستطيع أن تقنع شخصًا بشئ بقولك أنا أقنعك أو أن تفزعه بقولك: أنا أفزعك.
فليس كل الأفعال الإنجازية أفعالاً أدائية.

١٢- الاختلاف فى أسلوب أداء الفعل كالاختلاف بين الإعلان والإســرار، فهما لا يختلفان فى الغرض الإنجازى، ولا فى المحتوى القضوى، بل يختلفان فى أسلوب الأداء فحسب.

رابعاً: أعاد سيرل النظر فى تصنيف أوستن للأفعال الإنجازية فبين ما فيه من أوجه الضعف[1]، وأهمها جميعًا فى رأيه أنها لم تقم على أساس واضح أو متين أو على مجموعة من الأسس، ولم يسلم منها فيما يرى إلا صنف واحد هو التعهديات commissives فقد صنفه أوستن على أساس منهجى واضح هو الغرض الإنجازى[2] فكان على سيرل أن يقدم تصنيفًا بديلاً للأفعال الإنجازية أحكم وأضبط، وقد أقام تقسيمه على أسس منهجية ثلاثة ورد ذكرها فى الأبعاد التى يختلف بها كل فعل إنجازى عن الآخر، ونص على أنها أهم هذه الأبعاد جميعًا، وأنه سيبنى عليها تصنيفه للأفعال الإنجازية وهى[3]:

أ – الغرض الإنجازى illocutionary point.

ب – اتجاه المطابقة direction of fit.

جـ – شرط الإخلاص sincerity condition.

وقد جعلها كأوستن خمسة أصناف[4] نذكرها موجزة على النحو الآتى:

١ – الإخباريات Assertives:

والغرض الإنجازى فيها هو نقل المتكلم واقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية proposition يعبر بها عن هذه الواقعة. وأفعال هذا الصنف

---

(١) Searle. J. R.: (1981), p.8 ff.
(٢) Ibid, p. 10.
(٣) Ibid, p. 5.
(٤) Ibid, p. 12 ff.

كلها تحتمل الصدق والكذب. واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلـــى العـــالم words-to-world ويتضمن هذا الصنف معظم أفعال الإيـــضاح expositives عند أوستن وكثيرًا من أفعال الأحكام verdictives.

٢- التوجيهيات Directives:

وغرضها الإنجازى محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شئ ما. واتجاه المطابقة فيها من العـــالم إلـــى الكلمـــات World-to-words وشـــرط الإخلاص فيها يتمثل فى الإرادة أو الرغبة الصادقة، والمحتوى القضوى فيها هو دائمًا فعل السامع شيئًا فى المستقبل. ويدخل فى هذا الصنف الاســتفهام، والأمر والرجاء والاستعطاف والتشجيع، والدعوة والإذن والنصح، بل التحدى أيضًا الذى جعله أوستن فى أفعال السلوك behabitives. وكثير مـــن أفعـــال القرارات exercitives عند أوستن تدخل فى هذا الصنف.

٣- الالتزاميـــات Commissives:

وغرضها الإنجازى هو التزام المتكلم (مرة أخرى بدرجات متفاوتة) بفعل شئ فى المستقبل. واتجاه المطابقة فى هذه الأفعـــال مـــن العـــالم إلـــى الكلمات world-to-words وشرط الإخلاص هو القصد Intention، والمحتوى القضوى فيها دائماً فعل المتكلم شيئًا فى المستقبل، على أن كثيراً ممـــا عـــده أوستين من هذا الصنف لا يدخل فيه على الإطلاق.

وظاهر أن اتجاه المطابقة فى الالتزاميات والتوجيهيات واحـــد فهـــل يسوّغ ذلك ضمهما فى قسم واحد ؟ والجواب أن ذلك غير ممكـــن لـــسببين: أحدهما أن المرجع فى الالتزاميات هو المتكلم أمـــا فـــى التوجيهيـــات فهـــو المخاطب. والثانى أن المتكلم فى الالتزامات لا يحاول التأثير فـــى الـــسامع، وفى التوجيهيات يحاول التأثير فيه.

٤- التعبيريات Expressives:

وغرضها الإنجازى هو التعبير عن الموقف النفسى تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجى ولا العالم الخارجى يطابق الكلمات. وكل ما هو مطلوب الإخلاص فى التعبير عن القضية ويدخل فى هذا الصنف أفعال الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والتعزية، والترحيب.

٥- الإعلانيات Declarations:

والسمة المميزة لهذا الصنف من الأفعال أن أداءها الناجح يتمثل فى مطابقة محتواها القضوى للعالم الخارجى، فإذا أديت أنا فعل تعيينك رئيسًا للوفد أداءً ناجحًا فأنت رئيس الوفد وإذا أديتُ فعل إعلان الحرب أداءً ناجحًا، فالحرب معلنة، وأهم ما يميز هذا الصنف من الأفعال عن الأصناف الأخرى أنها تحدث تغييرًا فى الوضع القائم، فضلاً عن أنها تقتضى عرفًا غير لغوى. واتجاه المطابقة فى أفعال هذا الصنف قد يكون من الكلمات إلى العالم ومن العالم إلى الكلمات، ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص.

خامسًا: كان أوستن قد فرق بين الأفعال اللفظية والأفعال الإنجازية وفرق بين الأفعال الإنجازية الصريحة والأولية primary، ثم جاء سيرل فخطا فى هذا الاتجاه خطوة أخرى واسعة تتمثل فى التمييز بين ما أسماه الأفعال الإنجازية المباشرة direct وغير المباشرة indirect أو الحرفية literal وغير الحرفية non-literal أو الثانوية secondary والأولية primary، وأكثرها شيوعًا عنده هو المصطلح الأول "المباشرة وغير المباشرة"، فالأفعال

الإنجازية المباشرة عنده هى التى تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فيكون معنى ما ينطقه مطابقًا مطابقة تامة وحرفية لما يريد أن يقول[١] وهو يتمثل فى معانى الكلمات التى تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التى تنتظم بها الكلمات فى الجملة، ويستطيع السامع أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معًا[٢]. أما الأفعال غير المباشرة فهى التى تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم فالفعل الإنجازى يؤدى على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازى آخر؛ فلو أنك قلت لصاحبك وأنتما جالسان إلى المائدة "هل تناولنى الملح؟" فإن هذا فعل إنجازى غير مباشر إذ معناه الحرفى هو الاستفهام، وهو مصدر بالدليل الإنجازى illocutionary indicator وهو "هل"، لكن الاستفهام غير مراد لك، وأنت لا تنتظر أن يجيبك صاحبك بنعم أو بلا، بل مرادك أن تطلب منه طلبًا مهذبًا أن يناولك الملح. وظاهر إذن أن الفعل الإنجازى السابق فعل إنجازى غير مباشر إذ تخالف قوته الإنجازية الحرفيَّة قوته الإنجازية غير الحرفية التى هى مراد المتكلم[٣] مع ملاحظة أن التنغيم intonation يختلف باختلاف القوة الإنجازية حرفية وغير حرفية[٤].

لقد ناقش سيرل عددًا وفيرًا من الأفعال الإنجازية غير المباشرة وبخاصة تلك التى تكون استفهامًا مقصودًا به الطلب، ولحظ أن أهم البواعث

---

(١) Searle. J. R.: (1981), p.30.
(٢) Ibid. p. 117.
(٣) Ibid. p. 30.
- Levinson, S.C. (1983) p. 246.
(٤) Searle. J. R.: (1981), p. 42.

إلى استخدام الأفعال غير المباشرة هو التأدب فى الحديث[١] ثم اختار التوجيهيات غير المباشرة indirect directives نموذجًا، فقسمها إلى مجموعات بحسب قدرة السامع على أداء الفعل، ورغبته فيه والبواعث إليه، ورغبة المتكلم أن يؤدى السامع فعلاً ما واستجابة السامع له[٢] وناقش عددًا من التعميمات generalizations التى تفسر غالب استعمالاتها وتحصر الاستثناء منها[٣].

وكان سيرل قد قرر أن المتكلم لا يقصد ما يقول فحسب، بل يتعدى قصده ما قاله إلى ما هو أكثر منه[٤] فالأفعال الإنجازية غير المباشرة لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة فى المعنى الإنجازى الحرفى، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم speaker meaning[٥] والمشكلة فى هذا النوع من الأفعال هو كيف يقول المتكلم شيئًا ويعنى شيئًا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنًا أن يسمع المخاطب شيئًا له معنى ويفهم منه معنى آخر؟ لقد حاول سيرل أن يحل هذا الإشكال بمبدأ التعاون الحوارى conversational cooperation بين المتكلم والسامع وما عند المخاطب من علم بجوانب الموضوع[٦] ثم بما أسماه استراتيجية الاستنتاج inference strategy عند السامع التى تمكنه من الوصول إلى المعنى غير المباشر للرجاء مثلاً

(١) Ibid. p. 48.
(٢) Ibid. p. 36 ff.
(٣) Ibid. p. 39 ff., p. 45.
(٤) Ibid. P. 30.
(٥) Ibid. p. 42.
(٦) Ibid. pp. 47, 49.

بعد عشر خطوات من الاستدلال(١).

ولقد لحظ بعض الباحثين أننا نتواصل بالأفعال الإنجازية غير المباشرة أكثر من تواصلنا بالأفعال الإنجازية المباشرة، فالأفعال الإنجازية التى لا تستخدم إلا مباشرة قليلة جداً، وهى تقتصر فى الغالب على ما يسمى الأفعال المؤسساتية أو التشريعية كالتوكيل والتفويض والوصية والتوريث والإجارة ونحوها، لأن الأفعال الكلامية إن استخدمت هنا غير مباشرة فسوف تؤدى إلى اللبس وضياع الحقوق(٢).

على أنَّ من الممكن وضع بعض الضوابط للتمييز بين هذين النوعين من الأفعال المباشرة وغير المباشرة بتحديد ثلاثة فروق جوهرية(٣):

أحدها: أن القوة الإنجازية للأفعال المباشرة تظل ملازمة لها فى مختلف المقامات. أما الأفعال الإنجازية غير الحرفية فموكولة إلى المقام لا تظهر قوتها الإنجازية إلا فيه.

ثانيها: أن القوة الإنجازية للأفعال غير المباشرة يجوز أن تلغى، فإذا قال لك صاحبك: أتذهب معى إلى المكتبة؟ فقد تلغى القوة الإنجازية غير المباشرة وهى الطلب ليقتصر الفعل على قوته الإنجازية المباشرة وهى الاستفهام.

---

(١) Ibid. p. 46 f.

(٢) Helbig. G. (1990) S. 201.
- Levinson, S. C. (1983) p. 264.

(٣) د. أحمد المتوكل: آفاق جديدة فى نظرية النحو الوظيفى منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط ١٩٩٣) ص ٢٢ فما بعدها.

ثالثها: أن القوة الإنجازية غير المباشرة لا يتوصل إليها إلا عبر عمليات ذهنية استدلالية تتفاوت من حيث البساطة والتعقيد، أما القوة الإنجازية المباشرة فتؤخذ مباشرة من تركيب العبارة نفسه، من هنا لم تعن النظريات الشكلية إلا بالقوة الإنجازية المباشرة أو الحرفية، أما غير المباشرة، أو غير الحرفية فتقع خارج نطاق اهتماماتها.

وقد لفت سيرل إلى نوع آخر من الأفعال الكلامية غير المباشرة يرتبط بما يسمى الاستلزام الحوارى conversational implicature، وأصبح الآن نظرية متكاملة فى إطار التداولية والنحو الوظيفى. ويتضح هذا النوع من الأفعال من المحاورة القصيرة الآتية بين طالب وصديقه:

أ - ألا تزورنى الليلة؟

ب - سأمتحن صباح غد.

فالفعل الإنجازى: "سأمتحن صباح غدٍ" ليس جوابًا مباشرًا عن الطلب، لكن فهم منه أمران أحدهما مباشر أو حرفى وهو الإخبار بموعد امتحان المخاطب، والثانى غير مباشر أو غير حرفى وهو الاعتذار عن عدم تلبية الدعوة.

والفعل الإنجازى غير المباشر بنوعيه محول عن الفعل الإنجازى المباشر، ومن ثم فإن الفعل الإنجازى غير المباشر يتضمن الفعل الإنجازى المباشر، ولا ينعكس(١).

---

(١) Helbig, G.: (1990) S. 200.

(٥)

١- إذا التفتنا إلى تراثنا اللغوى الموزع بين كتب النحو، واللغة، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه، والتفسير، والقراءات - بما هو وحدة واحدة - وجدنا فيه اتجاهين بارزين يماثلان اتجاهى النظريات اللسانية المعاصرة أحدهما: يعنى بالنظام اللغوى الذى يشمل أنظمة فرعية صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، لكل منها مكوناته وعناصره، وعلاقاته بالمكونات والعناصر الأخرى داخل النظام الفرعى، ثم علاقة كل نظام فرعى بالآخر، دون التفات مقصود إلى مقتضيات المقام وقرائن الأحوال. والثانى يعنى بالمقام وما يتصل به من قرائن غير لفظية تشمل منزلة المتكلم والسامع وعلاقة كل منهما بالآخر، وحالة كل منهما النفسية والذهنية، وحركاته الجسمية، وسكوته، والبيئة المكانية التى تشهد الحدث اللغوى وجمهور المشاركين فيه. على أنهم لم يكتفوا بالسياق الاجتماعى، بل ضموا إليه السياق الثقافى والشرعى. ولست أشك فى أن وراء ذلك كله نظرية تداولية محكمة تنتظر من يكشف عن جانبيها التنظيرى والتطبيقى فى ضوء معارف العصر، ومن الممكن - فى إطار هذه النظرية التداولية العامة - تطوير نظريات فرعية عديدة، منها نظرية عربية الوجه واللسان للأفعال الكلامية.

والمدخل الصحيح إلى هذه النظرية العربية للأفعال الكلامية باب من أبواب علم المعانى هو "الخبر والإنشاء"، وما ورد من مناقشات تتصل به فى كتب أصول الفقه، والفقه، والنحو، واللغة. فإذا استطعنا أن نعالج ما فيه من بعض أنواع الخلل والقصور، وأن نحكم منهج البحث فيه فى ضوء نظرية الأفعال الكلامية فربما استطعنا أن نصل إلى وضع نظرية عربية للفعل الكلامى موازية للنظريات الغربية تأخذ منها وتعطيها فى إطار مثاقفة متكافئة.

٢- قبل أن أناقش ما ورد فى هذا الباب تمهيدًا لإعادة صياغته أودّ أن أشير إلى أساسين منهجيين يعدان من أسس النظرية المقامية بعامة، ومن أسس هذه النظرية بخاصة هما: عرفية الاستعمال ومقصد المتكلم.

أولاً: عرفية الاستعمال:

يرى علماؤنا أن استعمال اللغة منوط بما تعارف عليه أبناؤها فى ألفاظها وصيغها وتراكيبها ودلالاتها وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس وأحكام الشرع. من ثمَّ كان العرف عندهم ثلاثة أعراف: عرفًا لغويًا استعماليًا، وعرفًا اجتماعيًا، وعرفًا شرعيًا.

أما العرف اللغوى فقد يكون فى الألفاظ وقد يكون فى التراكيب وقد أوضح الإمام الغزالى ذلك أيما إيضاح فى نصوص كثيرة نذكر منها قوله: "الاسم يسمى عرفيًا باعتبارين: أحدهما أن يوضع الاسم لمعنى عام ثم يخصص عرف الاستعمال - من أهل اللغة - ذلك الاسم ببعض مسمياته كاختصاص اسم الدابة بذوات الأربع مع أن الوضع لكل ما يدبّ.. والاعتبار الثانى أن يصير الاسم شائعًا فى غير ما وضع له أولاً، بل فيما هو مجاز فيه كالغائط.. فصار أصل الوضع منسيًا والمجاز سابقًا إلى الفهم بعرف الاستعمال"[1].

وهو يحتكم إلى عرف الاستعمال فى رفضه فهم القدرية لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ إذا قالوا: هو مجمل؛ لأن الأعيان لا تتصف بالتحريم، وإنما يحرم فعل ما يتعلق بالعين، وليس يُدرَى

---

(١) الغزالى، أبو حامد محمد بن محمد: المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق د. حمزة بن زهير حافظ (المدينة المنورة ١٤١٣هـ) ٣/١٥ - ١٦.

ما ذلك الفعل، فيحرم من الميتة مسُّها، أو أكلها، أو النظر إليها، أو بيعها، أو الانتفاع بها، والأم يحرم منها النظر، أو المضاجعة، أو الوطء وليس بعضها أولى من بعض. وقد عقب الغزالى على هذا الفهم بقوله: وهذا فاسد ثم قال: "ومن أنس بتعارف أهل اللغة، واطلع على عرفهم علم أنهم لا يستريبون فى أن من قال: "حرمت عليك الطعام والشراب" أنه يريد الأكل دون النظر والمس، وإذا قال: "حرمت عليك هذا الثوب" أنه يريد اللبس، وإذا قال: "حرمت عليك النساء" أنه يريد الوقاع. وهذا صريح عندهم مقطوع به، فكيف يكون مجملاً ؟"[1].

وهو يحتكم إلى عرف الاستعمال قبل مجئ الشرع لمعرفة المقصود بقوله – صلى الله عليه وسلم – "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان" قال: "وليس الأمر كذلك. وكلامه – صلى الله عليه وسلم – يجلّ عن الخلف، فالمراد به رفع حكمه – لا على الإطلاق – بل الحكم الذى عرف بعرف الاستعمال – قبل ورود الشرع – إرادته بهذا اللفظ. فقد كان يفهم – قبل الشرع – قول القائل لغيره: "رفعت عنك الخطأ والنسيان" إذ يفهم منه رفع حكمه – لا على الإطلاق – وهو المؤاخذة بالذم والعقوبة"[2].

على أن الغزالى لم يكن أول لافت إلى أثر العرف اللغوى فى الاستعمال، بل كان الالتفات إليه منذ وقت مبكر جدًا فى تاريخ الفكر اللغوى العربى، فلم تكن سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس رضى الله عنهما وجواب ابن عباس عنها إلا بيانًا لجريان ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه على

(١) السابق ٣/٣٩ – ٤٠.
(٢) السابق نفسه ٣/٤١، ٦٢، ١٥٦، ١٥٧، ٣١٥.

مقتضى العرف اللغوى عند العرب. ولم يكن كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى إلا شاهدًا على ذلك[1].

وأما العرف الاجتماعى فلعله يظهر من فهمهم لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والكلأ والنار" والماء عام يشمل ما أحرزه الناس وما لم يحرزوه، لكنه قصر على غير المحرز لما جرت بذلك عادة الناس"[2] وقد نص ابن القيم على أن الفتوى تتغير بتغير العرف والعادة فإذا حلف رجل: "لا ركبت دابة" و"كان الحالف ممن عادته ركوب نوع خاص من الدواب كالأمراء ومن جرى مجراهم حملت يمينه على ما اعتاد من ركوب الدواب، فيفتى فى كل بلد بحسب عرف أهله ويفتى كل أحد بحسب عادته"[3].

وأما العرف الشرعى فقد نص عليه الإمام الغزالى، ورأى أنه فى منزلة العرف اللغوى. قال: "والمختار عندنا أنه لا سبيل إلى إنكار تصرف الشرع فى هذه الأسامى [يقصد الألفاظ الإسلامية] ولا سبيل إلى دعوى كونها

---

(١) انظر كتابى: لغة القرآن الكريم فى جزء عم. دار النهضة – بيروت ١٩٨١، ص ٩٤ فما بعدها.
وراجع د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل نافع ابن الأزرق، دار المعارف – مصر ١٩٨٧، ط ٢، ص ٣٠٩ فما بعدها.

(٢) محمد مصطفى شلبى: المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى وقواعد الملكية والعقود فيه. دار النهضة – بيروت ١٩٨٥، ص ٣٥٧.

(٣) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر: إعلام الموقعين عن رب العالمين. راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرءوف سعد (دار الجيل – بيروت ١٩٧٣) ٣/٥٠.
وانظر: الشاطبى، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى: الموافقات فى أصول الشريعة، شرحه وكشف مراميه، وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز، واعتنى بهذه الطبعة الشيخ إبراهيم رمضان (دار المعرفة – بيروت ١٩٩٤) وما بعدها.

منقولة عن اللغة بالكلية كما ظنه قوم، ولكن عرف اللغة تصرف فى الأسامى من وجهين:

أحدهما: التخصيص ببعض المسميات، كما فى الدابة. فتصرف الشرع فى الحج والصوم والإيمان من هذا الجنس، إذ للشرع عرف فى الاستعمال كما للعرب.

والثانى: فى إطلاقهم الاسم على ما يتعلق به الشئ ويتصل به، كتسميتهم الخمر محرمة، والمحرم شربها، والأم محرمة، والمحرم وطؤها. فتصرفه فى الصلاة كذلك؛ لأن الركوع والسجود شرط شرطه الشرع فى تمام الصلاة، فشمله الاسم بعرف استعمال الشرع[1].

وقد احتكم الإمام الغزالى إلى عرف الشرع فى الوصول إلى المقصود من قوله – صلى الله عليه وسلم – "لا صلاة إلا بطهور"، و"لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب"، و"لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل" و"لا نكاح إلاّ بولى"، و"لا نكاح إلا بشهود"، و"لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه"، و"لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد". فهذا نفى لما ليس منفيًا بصورته. قال: "وعرف الشرع فى تنزيل الأسامى الشرعية على مقاصده كعرف اللغة. فلا يشك فى أن المشرع ليس يقصد بكلامه نفى الصورة فيكون خلفًا، بل يريد نفى الوضوء والصوم والنكاح الشرعى، فعرف الشرع يزيل هذا الاحتمال، فكأنه صرّح بنفى الصلاة الشرعية والنكاح الشرعى"[2].

ثانياً: مقصد المتكلم:

لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، وهذا القصد كما

---

(١) الغزالى: المستصفى ٣/٢٠ – ٢١.

(٢) السابق ٣/٤٥ – ٤٦.

يرى الأصوليون محدد عند المتكلم وثابت لا يتغير، وهو لـــذلك يتخـــذ مـــن الرسائل الكلامية والمقامية ما يعين السامع على إدراك ما يريد، ولكن مراتب السامعين تتفاوت فى إدراك مقصود المتكلمين تبعًا لتفاوت قـــدراتهم العقليـــة واللغوية والثقافية.

وقد حدد الإمام الغزالى الطريق التى يفهم بها مراد المتكلم بقوله:

«ويكون طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التى بها المخاطبة. ثم إن كان "نصًا" لا يحتمل كفى فيه معرفة اللغة. وإن تطرق إليه الاحتمـــال فـــلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينـــة إمـــا لفـــظ مكشوف كقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ والحق هو العشر. وإما إحالة على دليل العقل، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وقولـــه عليـــه السلام: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» وإما قرائن أحـــوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تـــدخل تحـــت الحـــصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها، فينقلها المشاهدون من الـــصحابة إلـــى التابعين بألفاظ صريحة، أو مع قرائن من ذلك الجنس، أو من جـــنس آخـــر، حتى توجب علمًا ضروريًا بفهم المراد، أو توجب ظنًا، وكل ما ليس له عبارة موضوعية فى اللغة فتتعين فيه القرائن»(١).

من أجل ذلك حمل ابن القيم على من أفتى بطلاق امـــرأة قـــال لهـــا زوجها: إذا أذنت لك فى الخروج إلى الحمام فأنت طالق، فتهيأت للخروج إلى الحمام فقال لها: اخرجى وابصرى. ولم يكن قصده بقوله الإذن بل التهديـــد،

---

(١) الغزالى: المستصفى ٣/٣٠ – ٣١.

فكان ما أفتى به المفتى أخذًا بظاهر اللفظ دون وقوف على قصد المتكلم، فأفتى كما قال ابن القيم بما لم يأذن به الله ورسوله، ولا أحد من أئمة الإسلام[١] ولهذا حذر ابن القيم من مغبة إهمال قصد الكلام فقال: «فإياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه فتجنى عليه وعلى الشريعة، وتنسب إليها ما هى بريئة منه، وتلزم الحالف والمقرّ والناذر والعاقد ما لم يلزمه الله ورسوله به»[٢] ثم لفت إلى أنه لابدَّ للمتكلم من إرادتين: إرادة التكلم باللفظ اختيارًا، وإرادة موجبه ومقتضاه[٣].

وفى ضوء هذا نفهم لِمَ لا يُعتد بطلاق المكره، وطلاق الغضبان الذى لا يعى ما يقول، واللغو من الأيمان، ولم رفع التكليف عن النائم والمجنون، فإنما الأعمال بالنيات، والأمور بمقاصدها[٤].

على أن القصد قد يلتبس على بعض أهل اللغة إذا وقف عند المعنى الأصلى للألفاظ دون إدراك للمعنى الاستعمالى أو جهل السياق لحداثة سن أو غلبة هوى. ومن ذلك ما أورده الإمام الشاطبى من أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق عليهم ذلك، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٥] ومن ذلك ما أورده من أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن الزبعرى: فقد

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٣/٥١.
(٢) السابق نفسه ٣/٥٣ – ٥٤.
(٣) السابق نفسه ٣/٦٢.
(٤) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٣/٥٢، ٥٣، ١٠٨، ١١١.
(٥) الشاطبى: الموافقات ٣/٢٤٣.

عُبدت الملائكة وعُبد المسيح! فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – «ما أجهلك بلغة قومك يا غلام»[1].

قال الإمام الشاطبى رحمه الله: «والذى يجرى على أصل مسألتنا أن الخطاب ظاهره أنه لكفار قريش، ولم يكونوا يعبدون الملائكة ولا المسيح، وإنما كانوا يعبدون الأصنام، فقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عام فى الأصنام التى كانوا يعبدون، فلم يدخل فى العموم الاستعمالى غير ذلك، فكان اعتراض المعترض جهلاً منه بالمساق، وغفلة عما قصد فى الآيات، وما روى من قوله: «ما أجهلك بلغة قومك يا غلام» دليل على عدم تمكنه من فهم المقاصد العربية، وإن كان من العرب لحداثته وغلبة الهوى عليه فى الاعتراض أن يتأمل مساق الكلام حتى يتهدى للمعنى المراد، ونزل قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ بيانًا لجهله»[2].

هذان إذن أصلان راسخان تقوم عليهما النظرية المقامية العربية بعامة، ونظرية الأفعال الكلامية بخاصة: عرفية الاستعمال، ومقصد المتكلم. وقد ألمح الشاطبى إلى أن ما جرى به العرف فى استعمال اللغة خطوة سابقة على الوقوف على قصد المتكلم، فإذا صح له العرف بدا له المراد[3].

وليس بغريب بعد ذلك أن يقيم ابن خلدون حد اللغة على هذين الأصلين فيقول: «اعلم أن اللغة فى المتعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانى، فلابد أن تصير ملكة متقررة فى العضو

(١) السابق ٣/٢٤٧.
(٢) الشاطبى: الموافقات ٢/٢٤٧ – ٢٤٨.
(٣) السابق ٣/٣٧٥.

الفاعل لها وهو اللسان. وهو فى كل أمة بحسب اصطلاحاتهم[1].

٣- تعددت تقسيمات علمائنا للكلام بحسب المعنى المراد دون أن يذكر كثير منهم المعايير التى قسم الكلام على أساس منها، فقسمه السكاكى إلى خبر وطلب[2] قال السيوطى: «.... وقال كثيرون: أقسام ثلاثة: خبر وطلب وإنشاء. قالوا لأن الكلام إما أن يقبل التصديق والتكذيب أو لا، الأول الخبر، والثانى إن اقترن معناه بلفظه فهو الإنشاء، وإن لم يقترن بل تأخر عنه فهو الطلب، والمحققون على دخول الطلب فى الإنشاء، وأن معنى اضرب مثلاً هو طلب الضرب مقترنًا بلفظه، وأما الضرب الذى يوجد بعد ذلك فهو متعلق الضرب لا نفسه. وقال قطرب: أقسام الكلام أربعة: خبر، واستخبار - وهو الاستفهام - وطلب، ونداء، فأدرج الأمر والنهى تحت الطلب. وضعّف بأن الاستخبار داخل تحته أيضًا، وبأن نحو: بعث واشتريت خارج منه.

وقال بعضهم: خمسة: خبر، وأمر، وتصريح، وطلب، ونداء. وقال الأخفش: ستة: خبر، واستخبار، وأمر، ونهى، ونداء، وتمن. وقال بعضهم عشرة: نداء ومسألة، وأمر، وتشفع، وتعجب، وقسم، وشرط، ووضع، وشك، واستفهام. وقال بعضه: تسعة، بإسقاط الاستفهام لدخوله فى المسألة. وقال بعضهم ثمانية بإسقاط التشفع لدخوله فيها، وقال بعضهم سبعة بإسقاط الشك؛ لأنه من قسم الخبر. وقال بعضهم ستة عشر: أمر، ونهى، وخبر، واستخبار، وطلب، وجحود، وتمن، وإغلاظ، واختبار، وقسم، وتشبيه، ومجازاة، ودعاء،

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون، ضبط وشرح وتقديم د. محمد الإسكندرانى (دار الكتاب العربى - بيروت ط ٢، ١٩٩٨) ص ٥٠١.

(٢) السكاكى، أبو يعقوب بن أبى بكر: مفتاح العلوم، البابى الحلبى بمصر ط ١ سنة ١٩٣٧، ص ٧٨.

وتعجب، واستثناء. والتحقيق انحصاره فى القسمين الأولين، ورجوع بقية المذكورات إليها»[1] وكان قد قال فى موضع سابق: «فالحذاق من النحاة وغيرهم، وأهل البيان قاطبة على انحصاره فى الخبر والإنشاء»[2].

وقد أكثر العلماء وبخاصة المتأخرون منهم من مناقشة مفهوم كل من الخبر والإنشاء، واستخدموا فى ذلك أساليب الجدل والحجاج، وقواعد المنطق والاستدلال[3]، وليس بنا الآن أن نعرض لكل ذلك، بل نقتصر منه على ما ذكروا أنه المشهور وعليه التعويل. قال القزوينى: «ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنه إما أن يكون له خارج يطابقه أو لا يطابقه، أو لا يكون له خارج، الأول الخبر، والثانى الإنشاء»[4]، ثم قال: «اختلف الناس فى انحصار الخبر فى الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثرون صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التعويل»[5].

فالخبر إذن ما كان له واقع يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه فهو صادق، وإن لم يطابقه فهو كاذب. وأما الإنشاء فليس له واقع يطابقه أو لا يطابقه، ولا يوصف بصدق ولا كذب. وقد عرفنا أن من العلماء من فرق بين الإنشاء والطلب، فالإنشاء ما اقترن معناه بلفظه والطلب ما تأخر معناه عن

---

(١) السيوطى: همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين – منشورات محمد على بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨، ١/٤٦ – ٤٧ وانظر: السبكى: عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص ١/١٧٢.

(٢) السيوطى همع الهوامع ١/٤٦.

(٣) انظر: شروح التلخيص – دار الكتب العلمية – بيروت د. ت ١/١٣٦ وما بعدها.

(٤) القزوينى: جلال الدين أبو عبد الله: الإيضاح، ضمن شروح التلخيص ١/١٦٣ وما بعدها.

(٥) السابق ١/١٧٣ وما بعدها.

لفظه. قال السيوطى: «والمحققون على دخول الطلب فى الإنشاء، وأن معنى اضرب مثلاً هو طلب الضرب مقترنًا بلفظه، وأما الضرب الذى يوجد بعد ذلك فهو متعلق الضرب لا الضرب نفسه»[1] وذكر من حالات الماضى: «أن ينصرف إلى الحال وذلك إذا قصد به الإنشاء كبعت واشتريت وغيرهما من ألفاظ العقود، إذ هو عبارة عن إيقاع الفعل بلفظ يقارنه فى الوجود»[2] وتلك سمة أخرى فارقة تميز الإنشاء عن غيره.

ولعلنا نلحظ أن ما ذكروه من تحديد للخبر ملتبس وغير دقيق؛ فتحديد الخبر بأنه ماله واقع يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه فهو صادق، وإن لم يطابقه فهو كاذب تحديد غير مستقيم؛ فالأخبار المستقبلة كلها ليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه سواء أكانت مصدرة بدليل استقبال كالسين وسوف ولن وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، و﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ و﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أم لم تكن مصدرة بدليل استقبال نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ و ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾. ومن ذلك الأخبار التى تحمل حكمًا شرعيًا مثل: "يعيد صلاته" فى جواب من سأل عمن صلى بغير وضوء، و"يصوم شهرين متتابعين" فى جواب من سأل عمن أفطر فى نهار رمضان عمدًا. ومن ذلك أيضًا الأخبار التى تحمل معنى الطلب مثل آمرك بكذا وأنهاك عن كذا، وأسألك عن كذا، وأرجوك أن تفعل، ويجب أن تفعل، فهى عندهم من الخبر لا من الإنشاء،

(١) السيوطى: همع الهوامع ٤٧/١.
(٢) السابق ٣٧/١، والمغربى، أبو يعقوب: مواهب الفتاح. ضمن شروح التلخيص ١٦٧/١، ١٦٨.

وليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه.

كذلك صدق الخبر أو كذبه، هل هو منوط بذات الخبر؟ أو بذات قائله؟ لئن كان منوطًا بذات الخبر فهذا يعنى أنه لابدَّ أن يقطع عن سياقه، وهذا ضد الاتجاه المقامى، وإن كان منوطًا بذات قائلة فهذا يعنى أن نفتح الباب لاتهام الناس كل الناس بالكذب والشك فيهم، فلا نتلقى منهم خبرًا إلا مستريبين فيهم، وهو موقف غير سوى بلا شك فإذا عاملنا الناس على أنهم صادقون إلى أن يثبت العكس سقط هذا المعيار.

وليس من شك فى أن كثيرًا من الأخبار لا يقبل الكذب كالأخبار الواردة فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومثلها الأخبار التى تعبر عن حقائق أو مسلمات، كقولك: الشمس تطلع من المشرق، والخمسة أكثر من الثلاثة والولد أسنُّ من ولده ونحو ذلك، وهناك أخبار أيضًا لا تقبل الصدق كأخبار مدعى النبوة، وكقلب المسلمات نحو الشمس تطلع من المغرب أو الوالد أصغر سنًا من ولده.

وهذا أمر لم يغب عن بعض علمائنا، فالإمام الغزالى ذكر أن الأخبار ثلاثة أقسام: القسم الأول: ما يجب تصديقه كالأخبار المتواترة، وما أخبر الله عنه، وما أخبر الرسول به، وما أجمعت عليه الأمة، وكل خبر يوافق ما أخبر الله تعالى عنه أو رسوله، وكل خبر من أمور الدين ذكره المخبر بين يدى الرسول وبمسمع منه ولم يكن غافلاً عنه، فسكت عليه، وكل خبر ذكر بين جماعة يستحيل تواطؤهم فأمسكوا عن تكذيبه.

والقسم الثانى ما يعلم كذبه ومنه ما علم خلافه بضرورة العقل، أو النظر، أو الحس، أو المشاهدة أو أخبار التواتر، كمن أخبر عن الجمع بين

الضدين، وإحياء الموتى فى الحال، وأنّا على جناح نسر أو فى لجة بحر، ومنه ما يخالف النص القاطع من الكتاب، والسنة المتواترة، وإجماع الأمة، ومنه ما صرح بتكذيبه جمع كثير يستحيل فى العادة تواطؤهم على الكذب إذا قالوا: حضرنا معه فى ذلك الوقت فلم يجر ما حكاه من الواقعة أصلاً، ومنه ما سكت الجمع الكثير عن نقله والتحدث به مع جريان الواقعة بمشهد منهم ومع إحالة العادة السكوت عن ذكره لتوفر الدواعى على نقله كالإخبار بأن أمير البلدة قتل فى السوق على ملأ من الناس ولم يتحدث أهل السوق به.

والقسم الثالث «ما لا يعلم صدقه ولا كذبه فيجب التوقف فيه»[1].

وأما تحديدهم للإنشاء فهو أحسن حالاً وأقوم قيلاً، وإن كان لا يسلم أيضًا من مأخذ عليه؛ فقد رأينا المحققين منهم يدخلون الطلب فى الإنشاء، لأن الطلب كما يقولون هو "إيقاع فعل يلفظ يقارنه فى الوجود، فطلب الضرب مقترن بلفظه فى الوجود". ولا شك أن هذا ينطبق أيضًا على قولك: يضرب زيد عمرًا؛ لأن الإخبار بالضرب مقرون بلفظه فى الوجود. وعندئذ تسقط الحدود بين الخبر والإنشاء والطلب.

ونخلص من ذلك إلى أمر نراه على درجة بالغة من الأهمية وهو أن منطلق التفكير فى هذه النظرية عند أوستن وعند علمائنا واحد، فهم لم يقصروا الكلام – كما فعل فلاسفة الوضعية المنطقية – على ما له واقع إذا طابقه كان صادقًا، وإذا لم يطابقه كان كاذبًا بل تجاوزوا ذلك إلى ما سعى أوستن جاهدًا لإثباته وعدّه فلاسفة اللغة الغربيون إنجازًا كبيرًا، وهو أن من الكلام مالا واقع له يطابقه أو لا يطابقه، ولا يوصف بصدق ولا كذب،

---

(١) الغزال: المستصفى: ١٦٢/٢.

ووصلوا إلى الفكرة المحورية التى كانت المنطلق إلى وضع هذه النظرية، وهى أن من الكلام ما يكون فعلاً أو إيقاعًا لفعل بلفظ يقارنه فى الوجود. وليس وراء ذلك تماثل بين وجهتى النظر.

من هنا أرى أننا إذا عدلنا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، وقسمناه تقسيمًا أوليًا إلى أفعال يكون اللفظ بها إيقاعًا لفعل، وأفعال تصف وقائع العالم الخارجى أو تخبر بها، أو إلى أفعال إيقاعية وأفعال إخبارية، أو إلى إيقاعيات وإخباريات إن شئت الاختصار، فسوف نضع اللبنة الأولى فى بناء نظرية عربية للأفعال الكلامية، ونتخلص فى الوقت نفسه من تقسيم مضطرب وملتبس.

على أن تقسيم الكلام بحسب مقصود المتكلم إلى إيقاعيات وإخباريات لا يزال فى حاجة إلى إعادة النظر فيه وبخاصة فيما يتصل بالإخباريات، إذ ينبغى أن تكون مقصورة على وصف وقائع العالم الخارجى، فيخرج بذلك منها كل ما كان دالاً على الطلب بصيغة الخبر، وما كان منها دالاً على التعبير عن حالة المتكلم النفسية والشعورية تجاه الآخرين، فإذا أظهرت لشخص حبك له، أو سعادتك به أو اعتزازك، أو ترحيبك أو مواساتك فإنك لا تلقى إليه خبرًا، بل تعبر عن شعور: وكذلك يخرج منها التزام المتكلم أمام غيره بأداء فعل فى المستقبل، فحين تقول لصاحبك: أعدك المجئ فأنت لا تلقى إليه خبرًا، بل تلتزم أمامه بأداء فعل فى المستقبل. ومن ثم نرى أن تقسيم الأفعال الكلامية فى اللغة العربية يمكن أن يستفاد فيه من تقسيم أوستن وسيرل ومما وضعه سيرل من ضوابط للتقسيم على النحو الآتى:

أولاً: الإيقاعيات:

وهى التى يكون إيقاع الفعل فيها مقارناً للفظه فى الوجود، فأنت توقع بالقول فعلاً، وينبغى أن تتسع لتشمل أفعال البيع والشراء، والهبة والوصية، والوقف، والإجارة، والإبراء من الدين، والتنازل عن الحق، والزواج، والطلاق، والإقرار والدعوى والإنكار والقذف، والوكالة... إلخ، وهذه كلها يقع الفعل بمجرد النطق بلفظها كما نص على ذلك الفقهاء[1]، بل إن منها ما يقع وإن كان المتكلم هازلاً، فقد جاء فى حديث أبى هريرة المشهور عن النبى – صلى الله عليه وسلم – «ثلاث جدّهن جد، وهزلهن جدّ: النكاح، والطلاق، والرجعة»[2].

وقد وضع الفقهاء شروطًا صارمة لصحة هذا النوع من الأفعال لا تكاد تختلف عن الشروط التى وضعها كل من أوستن وسيرل، وأهمها أن يكون الكلام واضح الدلالة على المراد بحيث يفهم منه إيقاع الفعل المراد فهما لا لبس فيه، وأن يكون متبعًا أعراف أهل اللغة، فلا ينعقد الزواج مثلاً بألفاظ الإباحة أو الإعارة أو الإجارة أو الوصية، وأن يعلم كل من المتكلم والمخاطب ما صدر عن الآخر ويوافق عليه، وأن يكون إيقاع الفعل كاملاً، فإذا كان مما يحتاج إلى إيجاب وقبول فلا يكفى الإيجاب وحده ولا القبول وحده، وأن يكون زمن الفعل حاضرًا أو مستقبلاً لفظًا ومعنى أو معنى فقط، فإذا كان ماضيًا لفظًا ومعنى كان إخبارًا[3].

(١) محمد مصطفى شلبى: المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى، ص ٤٣٤.
(٢) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٢٣/٣.
(٣) انظر: محمد مصطفى شلبى: المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى، ص ٤٢٠ وما بعدها، والسيوطى: همع الهوامع ٣٧/١.

وقد يكون إيقاع الفعل صريحًا وقد يكون ضمنيًا، فقد ورد إيقاع الوعد مثلاً صريحًا فى قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ ووقع ضمنيًا فى قوله تعالى مخاطبًا أم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقد تضمن القول الكريم وعدين: الرد والرسالة، ثم ذكر القرآن الكريم من بعد أن الرد كان وعدًا من الله وسكت عن الرسالة؛ لأنه لم يكن قد حان وقتها بعد فقال تعالى:﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾.

ومن اللازم أن نقرر أنَّ هذه الشروط ليس مقصورة على الإيقاعيات، بل هى شروط عامة لأداء أى فعل كلامى أداءً ناجحًا، ويضاف إليها شرط الإخلاص فى أداء الفعل، وهو مطلوب أيضًا فى كل الأفعال الكلامية، وتحققه قاعدة أصولية تقول: الأمور بمقاصدها؛ ذلك أن الفعل يعد صحيحًا أو فاسدًا – برغم تحقق الشروط الظاهرة – بنية فاعله، فإذا أوقع المرء الفعل بلفظ ونوى عدم إنجازه فإن الفعل لا يقع على وجهه الصحيح؛ بل يقع فاسدًا، سواء أكان ذلك فى الإيقاعات أم فى غيرها. قال ابن القيم: "فالنية روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها. والنبى – صلى الله عليه وسلم – قال كلمتين كفتا وشفتا وتحتهما كنور العلم وهما قوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» فبين فى الجملة الأولى أن العمل لا يقع إلا بنية، ثم بين فى الجملة الثانية أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه. وهذا يعم العبادات، والمعاملات، والأيمان، والنذور، وسائر العقود والأفعال»[1].

---

(١) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١١١/٣.

ثانياً: الطلبيـات:

وهى تضم كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب بغض النظر عــن صيغتها، وهو أمر أخذ به الأصوليون والفقهاء وبعض المتكلمين قال الغزالى مشيرًا إلى عبارات مثل: أمرتك، وأوجبت عليك، وفرضت وحتمــت، فــإن تركت فأنت معاقب: «وهذه الألفاظ الدالة على معنى الأمر تسمى أمــرًا»[1] وقال: «فإن قول الشارع" أمرتكم بكذا" و"أنــتم مــأمورون بكــذا» أو قــول الصحابى "أُمِرْتُ بكذا" كل ذلك صيغ دالة على الأمر»[2] ثم أورد مناقــشتهم لفريق من المعتزلة ينكر كلام النفس ويتحزّب فى فهمه للأمر ثلاثة أحزاب:

الأول: يزعم أنَّ قوله: "افعل أمر لذاته وجنسه، وأنه لا يتــصور ألا يكون أمرًا فقيل له هذه الصيغة قد تصدر للتهديد كقوله تعــالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وقد تصدر للإباحة كقول عز وجل: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ فقــال: ذلك جنس آخر، لا من هذا الجنس، وعقب عليه بقوله: وهو مناكرة للحس.

أما الحزب الثانى – وفيهم جماعة من الفقهاء – فاعترفوا بأن قولـــه: "افعل" ليس أمرًا بمجرد صيغته ولذاته، بل لصيغته ولتجرده عــن القــرائن الصارفة له عن جهة الأمر إلى التهديد والإباحة وغيرهما.

بل لقد رأى بعض العلماء أن "افعل" لغير الأمر إلا إذا صرفته قرينة إلى معنى الأمر، لأننا إذا سلمنا بإطلاق العرب هذه الــصيغة علـــى أوجـــه مختلفة فليس أحدها بأولى من الآخر.

---

(١) الغزالى: المستصفى ٣/١٢١، والشاطبى: الموافقات ٣/١٤٢.
(٢) السابق ٣/١٢٨.

أما الحزب الثالث: وهو من محققى المعتزلة فرأى أن "افعل" ليس أمرًا لصيغته وذاته، ولا لكونه مجردًا من القرائن مع الصيغة، بل يصير أمرًا بثلاث إرادات: إرادة المأمور به، وإرادة إحداث الصيغة، وإرادة الدلالة بالصيغة على الأمر دون الإباحة والتهديد وغيرهما.

وقد رأى الغزالى أنه لا معنى لاعتبار الإرادة الثالثة لأنها متضمنة فى الأولى[1] ثم ذكر خمسة عشر معنى استعماليًا لصيغة "افعل"[2] فالأمر عندهم كما يرد بصيغته "افعل" أو "فلتفعل" يرد بغيرهما فقد يكون بلفظ الأمر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، وبلفظ الفرض: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وبلفظ الكتابة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ وبالجار والمجرور ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وبجزاء الشرط: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، وبالوصف: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، وبالوعد بحسن الجزاء عليه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾، والوصية: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾[3].

كذلك النهى يجرى عليه ما قرروه للأمر. قال الغزالى: «اعلم أن ما ذكرناه من مسائل الأوامر تتضح به أحكام النواهى، إذ لكل مسألة وزان من النهى على العكس فلا حاجة إلى التكرار»[4].

---

(١) السابق نفسه ١٢٢/٣ فما بعدها.
(٢) الغزالى: المستصفى ١٢٩/٣ – ١٣٠.
(٣) على حسب الله: أصول التشريع الإسلامى (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢١٤.
(٤) الغزالى: المستصفى ١٩٨/٣.

فالنهى عندهم يتسع ليشمل كل الأفعال الكلامية الدالة على النهى، فيشمل المضارع المسبوق بلا الناهية نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، والأمر الدال على الترك: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، ولفظ النهى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ﴾ ولفظ التحريم: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ونفى الحل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، ونفى الحدث: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ووصف الشئ بأنه شر: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾، وجعله سببًا للإثم: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وقرنه بوعيد: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)].

والاستفهام داخل فى الطلب، لأن الاستفهام كما قالوا استخبار، والاستخبار طلب من المخاطب أن يخبرك عن شئ تريد معرفة خبره[(٢)] وله دليل لفظى يدل عليه ويتمثل فى حرفى الاستفهام هل والهمزة، وفى أسماء الاستفهام التى تكون ركنًا فى الإسناد أو مكملاً من مكملاته، ثم فى تنغيم الاستفهام. وينبغى أن يتسع أيضًا ليشمل الأفعال الكلامية الدالة على الاستفهام كالسؤال والاستفهام والاستعلام والاستخبار والاستنباء، والاستفسار ونحوها.

ويمكننا أن نقرر أن الغرض الإنجازى من الطلبيات هو التأثير فى المتكلم ليفعل شيئًا أو يخبر عن شئ، وقد فرق السيوطى بين الطلب بالأمر والنهى، والطلب بالاستفهام بالاختلاف فى اتجاه المطابقة فقال: "والفرق بين

---

(١) على حسب الله: أصول التشريع الإسلامى، هامش ص ٢١٩.
(٢) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٤٥.

الطلب فى الاستفهام وبين الطلب فى الأمر والنهى والنداء واضح، فإنك فـــى الاستفهام تطلب ما هو فى الخارج ليحصل فى ذهنك نقش له مطابق، وفيمـــا سواه تنقش فى ذهنك، ثم تطلب أن يحصل له فى الخارج مطابق" وهو نـــص صريح فى اتخاذ اتجاه المطابقة معيارًا للتقسيم، وهو عين ما أخذ به سيرل.

ثالثًا: الإخبـــاريات:

وينبغى أن تقتصر على الأفعال التى تصف وقائع وأحداثًا فى العـــالم الخارجى، ويدخل فيها ما تنقله الصحف ونشرات الأخبار إلينا مما يدور فـــى العالم من أحداث وشئون عسكرية وسياســـية وثقافيـــة واجتماعيـــة ودينيـــة واقتصادية وعلمية.

والغرض الإنجازى لهذا النوع من الأفعال هو نقل الواقع نقلاً أمينًـــا، فإذا تحققت الأمانة فى النقل فقد تحقق شرط الإخلاص، وإذا تحقـــق شـــرط الإخلاص أنجزت الأفعال إنجازًا ناجحًا أو تامًا، وإلا أصبحت أخبارًا معيبة. واتجاه المطابقة فى هذه الأفعال من الكلمات إلى العالم.

رابعـاً: الالتزاميـات:

وهى أفعال كلامية يقصد بها المتكلم الالتـــزام طوعًـــا بفعـــل شـــئ للمخاطب فى المستقبل بحيث يكون المتكلم مخلصًا فى كلامه، عازمًا علـــى الوفاء بما التزم به كأفعال الوعد، والوعيد، والمعاهدة، والضمان، والإنذار... إلخ، واتجاه المطابقة فى هذا النوع من الأفعال من العـــالم إلـــى الكلمـــات. فالالتزاميات والطلبيات تشتركان فى اتجاه المطابقة، لكـــن المرجـــع فيهمـــا مختلف، فهو فى الالتزاميات المتكلم، وفى الطلبيات المخاطب.

خامسًا: التعبيـريات:

وهى أفعال كلامية يعبر بها المتكلم عن مشاعره فى حالات الرضـا والغضب والسرور والحزن والنجاح والفشل... إلخ، وليس مـن الـلازم أن تقتصر هذه الأفعال على ما هو خاص بالمتكلم من الأحداث، بل تتعداها إلـى ما يحدث للمشاركين فى الفعل، وتنعكس آثاره النفـسية والـشعورية علـى المتكلم. ويدخل فيها أفعال الشكر، والاعتذار، والتهنئة والمواسـاة، وإظهـار الندم، والحسرة، والتمني، والشوق والحب والكره... إلخ. ومما ورد منها فى القرآن الكريم قوله تعالى على لـسان زكريـا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهارًا للضعف وقوله تعالى على لـسان مـريم: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ إظهارًا للحزن والتحسر.

وليس لهذا النوع اتجاه للمطابقة، إذ يغنى عنه شرط الإخلاص فـإذا تحقق أنجز الفعل إنجازًا ناجحًا.

وهكذا نرى أن من الممكن تقسيم الأفعال الكلامية العربيـة تقـسيمًا خماسيًا يطابق ما قدمه سيرل ويفيد من بعض ضوابطه فيما عدا مـا أطلـق عليه سيرل الإعلانيات وأطلقنا عليه الإيقاعيـات لانـسجامه مـع طبيعـة الاستعمال فى اللغة العربية، فضلاً عن أننا اخترنا أن نطلق على قسم منهـا "الطلبيات" واختار أن يطلق عليه "التوجيهيات". ولسنا نزعم أن ما قدمناه من تقسيم للأفعال استوفى كل الأغراض التى يريد المتكلم أن يحققهـا بكلامـه، ولكنها محاولة للتقسيم أقرب إلى واقع الاستعمال منها إلى نوازع الاستدلال، وظواهر الأشكال.

٤- علماؤنا على أن الكلام لا ينعقد إلا بالإسناد الأصلى، أو بنـسبة

تامة بين طرفين أحدهما المسند إليه والآخر المسند. يقول رضى الدين الاستراباذى فى شرحه لقول بن الحاجب: «الكلام ما تضمّن كلمتين بالإسناد، ولا يتأتى ذلك إلا فى اسمين، أو فى فعل واسم»: «والكلام ما تضمن الإسناد الأصلى، وكان مقصودًا لذاته... وإنما قال بالإسناد ولم يقل بالإخبار؛ لأنه أعم؛ إذ يشمل النسبة التى فى الكلام الخبرى والطلبى والإنشائى، كما ذكرنا. واحترز بقوله: "بالإسناد" عن بعض ما ركب من اسمين كالمضاف والمضاف إليه والتابع والمتبوع، وبعض المركب من الفعل والاسم نحو ضربك، وعن جميع الأنواع الأربعة الأخر من التركيبات الثنائية الممكنة بين الكلم الثلاث، وهى: اسم مع حرف، وفعل مع فعل، أو حرف، وحرف مع حرف. وذلك لأن أحد أجزاء الكلام هو الحكم، أى الإسناد الذى هو رابطة، ولابد له من طرفين: مسند ومسند إليه. والاسم بحسب الوضع يصلح لأن يكون مسندًا ومسندًا إليه، والفعل يصلح لكونه مسندًا لا مسندًا إليه. والاسم مع الحرف لا يكون كلامًا؛ إذ لو جعلت الاسم مسندًا فلا مسند إليه، ولو جعلته مسندًا إليه فلا مسند... والفعل مع الفعل أو الحرف لا يكون كلامًا لعدم المسند إليه، وأما الحرف مع الحرف فلا مسند فيهما ولا مسند إليه»[1].

وذكر أبو يعقوب المغربى أن "الكلام الذى يحسن السكون عليه، لا محالة يتضمن نسبة المسند إلى المسند إليه"[2] وبين المقصود بالنسبة فقال: «هى تعلق أحد الطرفين وهما المسند والمسند إليه بالآخر على وجه التمام،

---

(١) رضى الدين الاستراباذى: شرح الرضى على الكافية. تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس – بنغازى ط ٢، سنة ١٩٩٦، والغزالى: المستصفى ٢٤/١، والسيوطى، همع الهوامع ٤٦/١.

(٢) المغربى، أبو يعقوب: مواهب الفتاح، ضمن شروح التلخيص ١٦٥/١.

وذلك بأن يحسن السكوت عليه معنى»[١] وبيَّن الدسوقى أنه بالنسبة التامة تخرج النسبة الناقصة كالتقييدية، والتوصيفية، كغلام زيد، والحيوان الناطق فلا يقتضيها الكلام[٢]، ورأى السكاكى «أن هذا النوع من الكلام لا يفتقر في تأديته إلى أزيد من دلالات وضعية، وألفاظ كيف كانت ونظم لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق» وأعقب ذلك بقوله: «وهو الذى سميناه فى علم النحو "أصل المعنى"»[٣].

وقد تجاوز عبد القاهر الجرجانى حقيقة وقوع هذا النوع من الكلام فى اللغة العربية إلى القول بأنه لابدَّ واقع فى اللغات جميعًا فكأنه يريد أن يقول إنه من العالميات اللغوية universals يقول:

«فمن الثابت فى العقول والقائم فى النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه... ولما كان الأمر كذلك أوجب ألا يعقل إلا من مجموع جملة: فعل واسم كقولنا خرج زيد، أو اسم واسم كقولنا زيد منطلق، فليس فى الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل، وبغير هذا الدليل، وهو شئ يعرفه العقلاء فى كل جيل وأمة، وحكم يجرى عليه الأمر فى كل لسان ولغة»[٤].

وعلى الرغم من أننا لا نوافق عبد القاهر على أن الظواهر المشتركة بين اللغات جميعًا تقرر عقلاً، بل هى تقرر استقراءً فإننا نستطيع أن نقرر

---

(١) السابق نفسه.

(٢) الدسوقى، محمد بن محمد عرفة، حاشية الدسوقى على السعد بهامش شروح التلخيص ١/١٦٤.

(٣) السكاكى: مفتاح العلوم، ٧٨.

(٤) عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٥٢٨.

مطمئنين أن ما يقصده علماؤنا بالكلام الذى يقوم على مجرد الإسناد أو نسبة المسند إلى المسند إليه هو عين ما يقصد أوستن بالفعل اللفظى، ويقصده سيرل بالفعل القضوى. أما ما يقصده كل منهما بالفعل الإنجازى وهو الذى يحمل قصد المتكلم فيكاد علم أصول الفقه كله يكون قائمًا على هذا النوع من الأفعال. وقد أوضحنا ذلك بما لا يحتاج إلى تكرار القول فيه عند الحديث عن مقصد المتكلم، بل إن علماء الأصول أدركوا ما لم يدركه سيرل وأستاذه ففصلوا القول فى الكلام الذى يحمل مقصود المتكلم فقسموه من حيث وضوح الدلالة إلى واضح وغير واضح، فالواضح ينقسم إلى محكم ومفسر ونص وظاهر وغير الواضح ينقسم إلى خفى ومشكل ومجمل ومتشابه وتحدثوا عن طرق الدلالة فرأى الجمهور أنها أربعة: دلالة بالعبارة ودلالة بالإشارة ودلالة بالفحوى ودلالة بالاقتضاء[1].

على أن الأصوليين لم يكونوا منفردين بهذا الإدراك لما يُطلق عليه الأفعال الإنجازية، بل شاركهم فى ذلك بعض علماء العربية فقد وجدت نصًا لعبد القاهر الجرجانى فيه إدراك بيّن للمقصود بالفعل اللفظى أو القضوى، والفعل الإنجازى. يقول: «ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعل من غير أن تريد إسناده إلى شئ مظهر أو مقدّر. وكان لفظك به، إذا أنت لم ترد ذلك، وصوتا تصوته سواء»[2]. ووجدت نصًا للسكاكى واضح الدلالة على هذا الإدراك يقول فيه: «.... وأعنى بالفهم فهم ذوى الفطرة السليمة، مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب: إن زيدًا منطلق إذا سمعه العارف

(١) انظر: د. طاهر حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين (الإسكندرية ١٩٨٣) ص ١٢٩ فما بعدها.

(٢) عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٥٢٧.

بصياغة الكلام من أن يكون مقصودًا به نفى الشك أو رد الإنكـــار، أو مـــن تركيب: زيد منطلق من أنه يلزم مجرد القصد إلى الإخبار..» [١].

ومما هو بالغ الدلالة على ذلك أيـضًا مـا روى مـن أن الكنـدى الفيلسوف قال للمبرد: إنى لأجد فى كلام العرب حشوًا؛ يقولون: زيد قـائم، وإن زيدًا قائم، وإن زيدًا لقائم، والمعنى واحد. قال المبرد بل المعانى مختلفة: زيد قائم إخبار، وإن زيدًا قائم جواب عن سؤال سائل، وإن زيدًا لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه[٢].

فسؤال الكندى وجواب المبرد يكشف لنا عن موقفين أحدهما لفيلسوف لا يرى فى الكلام إلا معناه القضوى دون نظر إلى معناه الإنجازى الذى يراد به، فهو لا يرى فى الأمثلة السابقة إلا نسبة القيام إلى زيد، والقـضية تقـوم على هذه النسبة؛ فلم يتجاوزها فكره، أما المبرد فهو لغوى أديـب ذو بـصر حديد بأن المعنى الذى يقصده المتكلم يتخذ له من الوسائل اللغوية والمقامية ما يعين على إدراكه فقد أدرك أن قصد المتكلم مراعى فيه حال المخاطب، فزيد قائم إخبار لأن المخاطب خالى الذهن عن الخبر، وفى "إن زيداً قائم" نفى لشك المخاطب فى الخبر، وفى "إن زيدًا لقائم" ردّ لإنكاره.

وأريد أن ألفت هنا إلى أن علماءنا كانوا على وعى بأن قصد المتكلم الذى تعبر عنه هذه الأفعال هو الذى يحدد الطريقة التى يتحدث بها، ويتغيـر تعبيره عنه قوة وضعفًا بتغير الموقف الكلامى. فالطلب مثلاً غرض أساسـى من أغراض المتكلم سبقت الإشارة إليه، لكنه يتفاوت شدة وليناً؛ فقـد يكـون

---

(١) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ٧٧.

(٢) عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٣١٥.

أمرًا على سبيل الاستعلاء يوجب الطاعة، وقد يكون التماسًا بين متساويين فى المنزلة، وقد يكون دعاء من الأدنى للأعلى[1] وكل ذلك منظور فيه إلى طبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب. أما من حيث نوع الطلب فقد يكون طلبًا برفق فيكون عرضًا كقول الشاعر:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا[2]

وقد يكون بحث وإزعاج فيكون تحضيضًا كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، و﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾[3].

وقد تتمثل درجة القوة فى الفعل الإنجازى فى اختيار المادة اللغوية التى تعبر عن هذه القوة. فالثناء مثلاً أقوى من المدح؛ لأن الثناء كما يقول أبو هلال العسكرى مدح مكرر[4] والسبّ مثلاً أقوى من الشتم؛ لأن السبّ هو الإطناب فى الشتم والإطالة فيه[5] واللمز أجهر من الهمز[6] والإبلاغ أشد اقتضاء للمنتهى إليه من الإيصال[7] والذكاء تمام الفطنة[8] والجور أقوى من

(١) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٢.

(٢) ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله: شرح ابن عقيل. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة ط ١٤، ٢/٣٥١.

(٣) المالقى، أحمد بن عبد النور: وصف المبانى فى شرح حروف المعانى، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط ٢، سنة ١٩٨٥، ص ٣٦١.

(٤) العسكرى، أبو هلال: الفروق فى اللغة – تحقيق لجنة إحياء التراث فى دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣، ط ٥، ص ٤٢.

(٥) العسكرى: الفروق فى اللغة، ص ٤٣.

(٦) السابق، ص ٤٤.

(٧) السابق، ص ٥٦.

(٨) السابق، ص ٧٧.

أقوى من الظلم؛ لأن الظلم نقصان الحق، والجور العدول عن الحق[1] والفزع أقوى الخوف؛ لأنه خوف مفاجئ[2]... إلخ.

وقد رتبوا بعض الأفعال من حيث درجة شدتها مع أن غرضها الإنجازى واحد فقالوا مثلاً[3]: أول مراتب الحب الهوى ثم العلاقة، ثم العشق، ثم الشغف، ثم الجوى، ثم التتيم، ثم التبل، ثم الهيام، وهو أن يغلبه الهوى فيهيم على وجهه.

وهناك وسائل أخرى من الممكن أن تقوى الفعل أو تضعفه كالنبر والتنغيم وحركات الجسم وتعبير الوجه ونظرة العين[4] فضلاً عن مقويات أخرى مثل: لا ريب، لا جدال، لا جرم، والأفعال الدالة على اليقين مثل أرى، أعلم، ألفى، وهناك مضعفات مثل أشك، أزعم، إخال، أظن، أرجح، أرتاب، فى رأيى، فيما أعلم... إلخ.

٥- ميز علماؤنا أيضًا الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة وهم وإن لم يعرفوا هذا المصطلح عرفوا ما يدخل فيه ويندرج تحت وأطلقوا عليه مصطلحات أخرى لعل أقربها إليه: مقتضى الظاهر وما خرج عن مقتضى الظاهر[5]. وقد بذل علماء المعانى والأصول جهدًا كبيرًا فى تحديد المعانى غير المباشرة أو الخروج عن مقتضى الظاهر على خلاف بين الفريقين فى

---

(١) السابق، ص ٢٢٦.

(٢) السابق، ص ٢٣٧.

(٣) إبراهيم اليازجى: نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد. مكتبة لبنان – بيروت ١٩٨٥، ط ٣، ص ٢٤٥.

(٤) انظر: ابن جنى، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد على النجار، دار الكتب المصرية ١٩٥٢، ٢/٣٧٠، ٣٧١.

(٥) انظر: السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٤.

المنهج والهدف. وكان الأصوليون أقرب إلى البحث التداولي من علماء المعاني، فقد عد البلاغيون كل خروج عن مقتضى الظاهر بلاغة، والحق أن هذا غير صحيح على إطلاقه، فقد يكون كذلك إذا انضمت إليه خصائص أسلوبية وتخييلية، ولكنه بغير هذه لا يعدو أن يكون معنى اتصالاً يقضيه المقام، فأنت لا تستطيع أن تعد من البلاغة مثلاً قول قائل لصاحبه وهما واقفان أمام مخبز مثلاً: "هل معك نقود ؟ مع أنه استفهام لا يراد به معناه الأصلي أو ظاهر لفظه، بل يريد به المتكلم أمرين أن يعلمك أنه ليس معه نقود، وأن يطلب منك إعطاءه نقودًا يشترى بها خبزًا.

على أننى وجدت عندهم إدراكًا واضحًا لمفهوم الأفعال الكلامية ذات المعنى الحرفى أو الأصلى أو المباشر، فقد حدد عبد القاهر الجرجانى نظير ما أطلق عليه سيرل الأفعال الحرفية أو المباشرة بأنها «ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق[1]. ثم قال مجردًا هذا النوع من الكلام من المزية: «وإذا كان بينًا فى الشئ أنه لا يحتمل إلا الوجه الذى هو عليه حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج فى العلم بأن ذلك حقه، وأنه الصواب، إلى فكر وروية، فلا مزية، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل فى ظاهر الحال غير الوجه الذى جاء عليه وجهًا آخر»[2].

وقد كان علماء الأصول – كما قلنا – أكثر دقة، وأقرب إلى واقع

(١) الجرجانى، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٦٢.

(٢) الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٢٨٦.

الاستعمال فجعلوا تحت ما يطلق عليه الغربيون الأفعال الحرفيـة فروعًـا، وحددوا المعنى الحرفى أو الأصلى تحديدًا دقيقًا، وبينوا أنواعه ووضعوا لكل منها مصطلحًا يميزه عن غيره[1] فقد أطلقوا مصطلح "المحكم" على ما يـدل بألفاظه على معناه الواضح الذى لا يقبل تأويلاً ولا تخصيصًا ولا نسخًا، ومنه قوله تعالى فى قاذفى المحصنات: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة»، ويجب العمل بما دل عليه وجوبًا قطعيًا، وهو يوافق الأفعال الحرفية أو المباشرة موافقة تامة. ومما يدل بألفاظه على معناه الواضح الذى لا يقبل التأويل ولا التخصيص – وإن احتمل النسخ – ما أطلقوا عليه مصطلح "المفسر" كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. فقد فسرت السنة مجمل كل منهما، لكن ظل لـه معنـاه الأصلى، ولا فرق بينه وبين المحكم إلا قبول النسخ.

وقد فطن علماء الأصول إلى نوع من الأفعال الكلامية يقصد به معناه الحرفى، لكن هذا المعنى الحرفى ليس الهدف من سوق الكلام بـل الهـدف معنى حرفى آخر، فالمعنيان مرادان، لكن أحدهما هو الهدف من سوق الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فهو صريح فى تحليل البيـع وتحريم الربا، لكن ليس هذا هو الهدف من سوق الكلام، بـل الهـدف نفـى المماثلة بين البيع والربا ردًا على الكفار الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، وقد أطلق علماء الأصول على المقصود الأصلى من سوق الكلام مـصطلح "النص" وعلى المقصود تبعًا مصطلح "الظاهر".

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك: د. طاهر حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين، ص ١٢٩ وما بعدها.

على أنهم عادوا فأطلقوا مصطلح "دلالة العبارة" على المتبادر فهمه من التركيب سواء أكان مقصودًا أصالة أم تبعًا.

أما الأفعال الكلامية غير المباشرة، وهى التى تدل هيئتها التركيبية على معنى لا يقصده المتكلم، فكأنه يقول شيئًا ويعنى شيئًا آخر، فقد أدرك علماؤنا منها نوعين: نوعًا لا يستلزمه الحوار، ونوعًا يستلزمه الحوار عادة، أما النوع الأول فيتمثل فى خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أو عن أصل المعنى، وأصل المعنى هو المعنى الحرفى الذى تطابق نسبة الكلام فيه مقصود المتكلم، أو يكون ما قاله هو ما يعنيه. وليس من الممكن عندهم الوصول إلى ما خرج عن الأصل إلا بمعونة القرائن ومقامات الكلام، من ثم قد يكون من الأولى أن نطلق على هذا النواع من الأفعال الأفعال المقامية وقد بين عبد القاهر الجرجانى ذلك فى إيضاحه للكناية أبلغ بيان فقال: "فينبغى أن تنظر إلى هذه المعانى واحدًا واحدًا وتعرف محصولها وحقائقها، وأن تنظر أولاً إلى الكناية، وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم "هو كثير رماد القدر" وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت إنه كلام جاء عنهم فى المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلّوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة ويطبخ فيها للقرى والضيافة، وذلك لأنه إذا كثر الطبخ فى القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة[1].

---

(١) عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٤٣١.

ولعل السكاكى أهم من عرض للأفعال الطلبية التى جاوزت معناها الأصلى إلى معنى مقامى، فقد تجاوز سرد الأغراض التى يخالف فيها ظاهر اللفظ مراد المتكلم إلى بيان كيفية انتقال المعنى الأصلى إلى المعنى المقامى.

لقد رأى السكاكى أن المعانى الأصلية للطلب خمسة هى التمنى، والاستفهام، والأمر، والنهى، والنداء[1] (والتمنى – فيما أرى – ليس طلبًا، بل هو تعبير عن رغبة تحوك فى النفس فهو داخل فى التعبيريات، أما النداء فلا يعدُّ فعلاً كلاميًا، لأنه لا يعبر عن قضية proposition أو لا يقوم على الإسناد، وتقديرهم لإسناد محذوف غير مقبول).

على أية حال لقد ذكر السكاكى أن الطلب بأنواعه يخرج عن المعنى الأصلى إلى المعنى المقامى حتى يمتنع بقرائن الأحوال ومقامات الكلام إجراؤه على الأصل فيتولد عنه معنى آخر يخالف المعنى الأصلى.

وقد أفاض الرجل فى بيان كيفية انتقال المعنى من الاستفهام – وهو المعنى الأصلى – إلى معان مقامية، وأكثر من الأمثلة بحيث أصبح ما يريده شديد الوضوح، وهو يدرك أن المقام قد يمنع إجراء الاستفهام على أصله فيقتضى المقام أن يتولد عنه تركيب آخر فى البنية الباطنة، ثم لا يلبث أن يتحول إلى البنية الظاهرة حاملاً معه المعنى المقامى، قال: «... أو إذا قلت لمن تراه لا ينزل: ألا تنزل فتصيب خيرًا، امتنع أن يكون المقصود بالاستفهام التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلاً، ويوجه بمعرفة قرينة الحال إلى نحو: ألا تحب النزول مع محبتنا إياه؟ وولّد معنى العرض. وكما إذا قلت لمن تراه يؤذى الأب: "أتفعل هذا؟" امتنع توجيه الاستفهام إلى فعل الأذى لعلمك

---

(١) السكاكى، مفتاح العلوم، ص ١٤٦.

بحاله، وتوجه إلى ما لا تعلم مما يلابسه من نحو: أتستحسن؟ وولّد معنى الإنكار والزجر، أو كما إذا قلت لمن يهجو أباه مع حكمك بأن هجو الأب ليس شيئًا غير هجو النفس: هل تهجو إلا نفسك؟ أو: غير نفسك؟ امتنع إجراء الاستفهام على ظاهره لاستدعائه أن يكون الهجو احتمل عندك توجهًا إلى غيره، وتولد منه بمعونة القرينة الإنكار والتوبيخ. أو إذا قلت لمن يسئ الأدب: ألم أؤدب فلانًا؟ امتنع أن تطلب العلم بتأديبك فلانًا وهو حاصل، وتولّد منه معنى الوعيد والزجر. أو كما إذا قلت لمن بعثت إلى مهم وأنت تراه عندك: أما ذهبت؟ بعُد امتناع الذهاب عن توجه الاستفهام إليه لكونه معلوم الحال، واستدعى شيئًا مجهول الحال مما يلابس الذهاب مثل: أما يتيسر لك الذهاب؟ وتولد منه الاستبطاء والتحضيض أو إذا قلت لمن يتصلف وأنت تعرفه: ألا أعرفك؟ امتنعت معرفتك به عن الاستفهام، وتوجه إلى مثل أتظنني لا أعرفك؟ وتولد معنى الإنكار والتعجب والتعجيب، أو كما إذا قلت لمن جاءك: أجئتني؟ امتنع المجئ عن الاستفهام وولد بمعونة القرينة التقرير»[1].

على أن السكاكى لم يقتصر فى ذلك على الاستفهام، بل طرده فى كل أنواع الطلب، فقال فى بيان كيفية انتقال المعنى الأصلى للأمر إلى المعنى المقامى: "... أو كما إذا قلت لمن يدعى أمرًا ليس فى وسعه: افعله، امتنع أن يكون المطلوب بالأمر بيان عجزه، وتولد التعجيز والتحدى. أو كما إذا قلت لعبد شتم مولاه وأنك أدبته حق التأديب، أو أوعدته على ذلك أبلغ إيعاد: "اشتم مولاك" امتنع أن يكون المراد الأمر بالشتم والحال ما ذكر، وتوجه بمعونة قرينة الحال إلى نحو: اعرف لازم الشتم، وتولد منه معنى التهديد"[2].

---

(١) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٤٧.
(٢) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٤٧.

وقال فى النهى: «... أو كما إذا قلت لعبد لا يمتثل أمرك: "لا تمتثل أمرى" امتنع طلب ترك الامتثال لكونه حاصلاً، وتوجه إلى غير حاصل مثل: لا تكثرت لأمرى، ولا تبال به، وتولد منه معنى التهديد»[1].

وكذلك فعل فى التمنى والنداء.

أما النوع الثانى من الأفعال المقامية فهو الذى يستلزمه الحوار عادة فيرد فيه المخاطب على المتكلم بما لا يصح حرفيًا أن يكون ردًا عليه، ولا يمكن إدراك ذلك إلا بأنواع من الاستدلال يقوم بها المتكلم ليفهم ما رد به المخاطب. وقد يقع ذلك من المتكلم ومن المخاطب معًا فى حوار واحد، وتتفاوت مراحل الاستدلال بساطة وتعقيدًا بقرب ما يقوله المتكلم أو المخاطب مما يتوقعه الآخر من رد أو بعده عنه، فمن ذلك ما رووا من أن الفرزدق دخل البصرة يومًا وذهب إلى المربد فألفى غلامًا ينشد شعرًا جزلاً يشبه شعره، فقال له: يا غلام. هل كانت أمك تأتى إلى دمشق؟ فرد الغلام: بل أبى[2]، وليس من الممكن أن يكون الغلام قد رد هذا الرد إلا بعد أن مرت بذهنه سريعًا مراحل من الاستدلال انتهى بها إلى أن الفرزدق قصد التعريض بأمه، فما كان منه إلاّ أن رد له اللطمة بمثلها فكان رده تعريضًا بأم الفرزدق. وليس من شك فى أن كل النظريات اللغوية الشكلية تعجز عن تحليل هذا الحوار تحليلاً دلاليًا صحيحًا، فقصارى ما تستطيع هو تحليل المعنى الأصلى أو الحرفي، وهو غير مراد هنا قطعًا.

ومن ذلك أيضًا ما أطلق عليه السكاكى مصطلح "الأسلوب الحكيم"

---

(١) السابق نفسه.

(٢) د. عبد العزيز قلقيلة: البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٨٧، ص ١١٦.

وقد حدده بقوله: «وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب كقول الشاعر:

أتت تشتكى عندى مزاولة القـرى وقد رأت الضيفان ينحون منزلـى
فقلت كأنى مـا سـمعت كلامهـا هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى

أو السائل بغير ما يطلب كما فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ﴾ قالوا فى السؤال: ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثم يتزايد قليلاً حتى يمتلئ ويستوى، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فأجيبوا بما ترى. وكما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف»[1].

وقد ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله لتوخى التنبيه له بألطف وجه إلى تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه، أو أهم له إذا تأمل.. «وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجى، وسل سخيمته حتى آثر أن يحسن على أن يسىء، غير أن سحره بهذا الأسلوب؛ إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله: لأحملنك على الأدهم، فقال متغابيًا: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب مبرزًا وعيده فى معرض الوعد، متوصلاً أن يريه بألطف وجه أن امرأ مثله فى مسند الإمرة المطاعة خليق بأن يُصفد لا أن يَصفد، وبأن يعد لا أن يوعد»[2].

على أنى أريد أن ألفت إلى أن ابن أبى الإصبع قد ذكر للاستلزام الحوارى مصطلحًا آخر غير ما ذكره السكاكى هو مصطلح "الحيدة" وقد

(١) السكاكى: بمفتاح العلوم، ص ١٥٥ – ١٥٦.
(٢) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٥ – ١٥٦.

عرفها بقوله: «وهو أن يجيب المسئول بجواب لا يصلح أن يكون جوابًا عما سئل عنه» وهو عين ما يقصدونه بالاستلزام الحوارى conversational implicature لكنه لم يقدم شواهد ولا أمثلة له[1].

وبعد فلعل فيما قدمت من فكر تراثى عربى أصيل ما يؤكد قدرة هذا التراث على المثاقفة والحوار مع بعض النظريات اللسانية المعاصر ندًا لند ونظيرًا لنظير، يفيد ويستفيد.

ولعل فيما قدمت أيضًا ما يقنع بأنه – مع شئ من الضبط المنهجى – يمثل نظرية عربية الوجه واللسان للأفعال الكلامية لا تزال فى حاجة إلى تضافر الجهود لإبرازها وإحكامها، ولعله يحفز إلى الكشف عن النظرية المقامية العربية التى تكمن خلفها.

ولعل فيما قدمت أيضًا ما يحث على تجاوز ما نغرق فيه من جزئيات التراث التى تسد علينا كل منافذ الرؤية الشاملة إلى آفاق من التنظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير ومواكبة العصر الذى نعيش فيه. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

---

(١) ابن أبى الإصبع المصرى: بديع القرآن، تحقيق د. حنفى محمد شرف، ط ٢، د.ت، ص ٢٨٢.

التصنيف النوعى للغات

والعاميات

يقوم هذا البحث على دراسة جانبين متلازمين من جوانب نظرية اللغة قلّ فى الدرس اللغوى المعاصر أن يفترقا، أو أن يدرس أحدهما بمعزل عن الآخر، فهما جانبان لشيء واحد أو هما وجهان لعملة واحدة كما يقولون، ذانك هما التصنيف النوعى للغات language typology والعالميات universals[١].

والمقصود بالتصنيف النوعى للغات تصنيف لغات العالم أنواعا أو أنماطا types على أساس مما تختلف فيه كل لغة عن غيرها فى خواصها التركيبية أو تتفق فيه. وهذا الاختلاف أو الاتفاق ليس عشوائيًا كما قد يسبق إلى الظن، ولكنه مرتبط بأسباب، ومحكوم بضوابط وقوانين يكشف عنها التصنيف[٢].

والمراد بالعالميات السمات اللغوية المشتركة الكامنة تحت الاختلاف الظاهر بين اللغات، التى يكشف البحث التصنيفى عن تماثلها[٣]، إضاءة

---

(١) Comrie, B. (1989): Language Universals & Linguistic Typology. The University of Chicago Press. P. 33, 35.
- Hockett, Ch. F.: The Problem of Universals in Language, in: Greenberg J.H. (ed) 1973: Universals of Language. The M.I.T press. P.61.

(٢) Comrie, B.: Linguistic Typology, in: Newmeyer, F. J. (ed). 1993: Linguistics.
The Cambridge Survey. Vol.1 Linguistic Theory: Foundations. P. 450
- Mallinson, G. & Blake, B.J. (1981): Language Typology. North-Holland Publishing Company, Amesterdam. New York. Oxford. P.7.
- Dressler, W.: Sprachtypologie, in: Althaus, H.P. Henne-H, Wiegand, H.E (Hrsg.) 1980: Lexikon der Germanistischen Linguistik (LGL). Niemeyer Verlag-Tübingen. S. 636.

(٣) Malmkjaer, K.: Language Typology, in: Malmkjaer, K. & Anderson, J.M. (eds) 1991 The linguistics Encyclopedia. London and New York. P. 272.

لطبيعة اللغة البشرية human language وإدراكًـا لعمـل العقـل البـشرى، وإيضاحا للوحدة النفسية psychic unity عند البشر، واكتـشافا لـشبكة مـن العلاقات بين اللغات ظاهرة وباطنة، وعونا على صوغ فروض عملية تقوى الحدس العلمى وتساعد عليه، ويمكن بها التنبؤ بظواهر لغوية يتعذر الوصول إليها بالبحث التاريخى أو المقارن[1]. كما يستطاع بها كشف الغموض الذى قد يكتنف بعض الظواهر اللغوية، فضلاً عن إسهام فى ترسيس reconstruction اللغات الأمات proto-language[2].

وظاهر أن بين التصنيف النوعى للغات والعالميات علاقة وثيقة، ولا تعارض بينهما أو تداخل، بل هما متكاملان[3]. فإذا كان التـصنيف النـوعى قائمًا على الاختلاف بين اللغات فإنّ العالميات تقوم على ما بينها من تماثل[4]. والتصنيف النوعى شرط أساسى للقول بالعالميات.

والبحث فى العالميات وما يتصل بها مـن تحديـد مفـاهيم عالميـة للمصطلحات والإجراءات أساس جوهرى لبحث تصنيفى واسع المدى. يقول

---

(١) Greenberg, J. H. (1974): Language Typology: A historical and analytic overview. The Hague-Paris. P. 54 – 55.
- Dressler, W. (1980). S. 636.
- Haarmann, H. Grundzüge der Sprachtypologie Kohlhammer Verlag. Stuttgart (1976). S. 7.
- Hockett, Ch. F. (1973). P. 61.
- Mallinson & Blake (1981). P. 10.

(٢) Hopper, P. J.: Historical Linguistics: Typology and Universals, in: Bright, W. (ed.) 1992: International Encyclopedia of Linguistics Oxford University Press. Vol. 2. P. 136 – 137.

(٣) Comrie, B. (1989). P. 33.
- Crystal, D. (1989): The Cambridge Encyclopedia of Language. Cambridge University Press. P. 84.

(٤) Crystal, D. (1989). P. 84.

هوكت: "القول بأن اللغات التى فيها السمة (أ) فيها أيضًا السمة (ب) قول ينتمى إلى العالميات اللغوية التى تعدّ نوعًا من الفرض العلمى الناتج عن التحليل التصنيفى. ولهذا فإن التصنيف النوعى شرط أساسى للقول بعالميات لغوية"[1]. ويقول مالينسون وبليك: "البحث فى العالميات اللغوية يعد الآن الأساس الجوهرى للبحث التصنيفى واسع المدى، والبحث فى العالميات يتطلب أيضًا دراسات تصنيفية لإنجازه عبر أوسع مدى من اللغات"[2] فلا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا استقلال لأحدهما عن الآخر إلا أن يكون لغرض الدرس.

وقد غلا كومرى – وهو من الباحثين البارزين فى هذا المجال – فرأى أن الدراسات التى تحمل عنواناتها ذكرا لأحدهما دون الآخر إنما تفصل بينهما فصلاً متعسفًا غير جائز[3]. ثم وقع هو نفسه. فيما أخذه على غيره[4]. والحق أن الفصل بينهما فى عنوانات بعض الكتب والدراسات لا يعنى أن أحدهما معزول عن الآخر أو يقوم دونه، بل يعنىُ تسليطِ الضوء على أحد الجانبين دون إسقاط الآخر أو عزله، وعلى أساس من هذا سوف يختص كل منهما فى هذا البحث بحديث.

التصنيف النوعى للغات:

ثمة عقبات تعترض طريق من يتصدى لتصنيف لغات العالم، لعلّ أهمها ما يأتى:

---

(١) Hockett, Ch. F. (1973). P. 61.

(٢) Mallinson, G. & Blake, B. J. (1981), P. 6.

(٣) Comrie, B. (1989). P. 34.

(٤) Comrie, B. (1993). P. 447.

أ – عدد اللغــات:

لا يتفق الباحثون على عدد اللغات فى العالم الأن، ويرى أغلــبهم أن عددها يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف، ومنهم من يقدر لها مدى أوسع يتراوح بين ثلاثة آلاف، وعشرة آلاف[١].

ونظر بعضهم إلى أن كثيرًا من هذه اللغات لا يتكلمها إلا قلة قليلة من الناس تقدر ببضع مئات، وأن منها ما يواجه خطر المــوت بــسبب هجــرة السكان إلى مواطن فقدوا فيها تراثهم الثقافى واســتخدامهم المطــرد للغــتهم الأصلية، فرأوا أن عدد اللغات التى يعتد بها لا يتجاوز ثلاثة آلاف[٢]. ومهما يكن من أمر فمن الصعوبة بمكان الإجابة القاطعة عن السؤال: كم لغــة فــى العالم الآن؟ ولهذه الصعوبة أسباب من الممكن إجمالها فيما يأتى:

١– التمييز بين اللغة واللهجة:

ليس من الميسور أحيانًا القطع بأن جماعتين لغويتين تتحــدثان لغــة واحدة أو لهجتين للغة واحدة. فهل الصرب والكروات مثلاً يتحدثون لغتــين مختلفتين أو لهجتين للغة الواحدة؟ بعبارة أخرى هل تعد الصربية لغة مختلفة عن الكروانية؟ وهل الهولندية Dutch التى يتحدثها الناس فى المناطق الواقعة على أطراف هولندا وألمانيا هى الهولندية التى يتحدثها الناس فى أمــستردام؟

---

(١) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998): An Introduction to Language. Harcourt Brace College Publishers. Orlando. P. 477.
- McArthur, T. (ed.) 1996: The Oxford Companion to the English Language. Oxford University Press. New York. P. 525.
- Crystal, D. (1989). P. 284.

(٢) O'Grady, W. – Dobrovolsky, M.-Katamba, F. (1996) Contemporary Linguistics. An Introduction. Longman London and New York. P. 372.
- West, F. (1975): The Way of Language. An Introduction. USA. P. 42.

أيهما تعد لغة مستقلة، وأيهما تعد لهجة من لهجات اللغة الألمانية؟

لقد حاول اللغويون وضع معيار ينحل به هذا الإشكال، فارتضى كثير منهم ما أطلق عليه معيار الفهم المتبادل mutual intelligibility وجعلوا لـه القول الفصل فى التمييز بين اللهجات التى تنتمى إلى لغة واحـدة، واللغـات التى يستقل بعضها عن بعض[١]. وبهذا المعيـار يعـدون إنجليزيـة لنـدن، وإنجليزية إدنبره، وإنجليزية كيب تاون، وإنجليزية سيدنى، وإنجليزية تورنتو، وإنجليزية ميامى لهجات للغة واحدة هى اللغة الإنجليزية، لأن أصحاب هـذه اللهجات جميعًا يفهم بعضهم بعضا. وبهذا المعيار أيـضًا يعـدون إيطاليـة فلورنسا وفرنسية باريس لغتين مستقلتين، لأن أهـل إحـداهما لا يفهمـون الأخرى. وبه أيضًا يعدون الصربية والكرواتية لهجتين للغة واحدة يـسمونها الصرب - كرواتية لما بين الناطقين بكل منهما من فهم متبادل، وبه أيضًا لا يعدون الصينية لغة واحدة بل لغات منفـصلة (الكانتونيزيـة، والمندرينيـة والهاكاوية...) ولكل منها لهجات متعددة[٢]. وبـه أيـضًا يعـدون هولنديـة أمستردام وألمانية ميونخ لغتين مستقلتين، بل يعدون بـه اللهجـة الـسعودية واللهجة المغربية لغتين مستقلتين لا لهجتين من لجهات العربية الفصحى[٣].

---

(١) O'Grady, Dobrovolsky, Katamba (1996). P. 372.
- Fromkin & Rodman (1998). P. 476.
- West, F. (1975). P. 45.

(٢) يرى بعض الباحثين أن هذه لهجات للصينية بالرغم من عدم تحقق معيـار الفهـم المتبادل بين المحدثين بها؛ لما يجمع بينها من وحدة الثقافـة، والـسياسة، والنظـام الكتابى. انظر
- Fromkin & Rodman (1998). P. 477.
- Crystal, D. (1989). P. 285.

(٣) O'Grady et al (1996). P. 373.

على أن هذا المعيار اللغوى لا يسلم لهم، إذ تتصارع معـه عوامـل سياسية، وثقافية واجتماعية وتاريخية، ودينية، وعرقية حين لا تتطابق هـذه العوامل مع معيار الفهم المتبادل، فالسويديون والدانمركيون والنرويجيون مثلاً من الممكن أن يفهم كل منهم كلام الآخر على نحو يكثر أو يقـل، لكـن إذا تدخلت المعايير غير اللغوية أصبح لدينا خمس لغات على الأقل، مع أنهمـا بمعيار الفهم المتبادل لغتان اثنتان. وقل مثل ذلك فى اللغات التى ليس بينهـا إلا اختلافات لغوية قليلة كالهندية والأوردو، والفلمنكية، والهولنديـة Dutch والصربية والكرواتية، بل إن هذه العوامل قد تطغى على المعيار اللغوى فتعد لغات ليس بين الناطقين بها فهم متبادل لهجات للغة واحدة، واللهجات الثلاث لـ Lapp (فى شمال اسكندنافيا) مثل لذلك[1].

٢- الاكتشـافات:

لا يزال العلماء حتى يوم الناس هذا يكتشفون مناطق من العالم لم يكن لأحد علم بها، بخاصة فى حوض نهر الأمازون ووسط أفريقيا وأهـل هـذه المناطق يتحدثون لغات غير معروفة، لم يضعها اللغويون فى الحسبان حـين أرادوا الوقوف على عدد اللغات فى العالم، ذلك بأن المسح اللغـوى للغـات العالم ليس شاملاً حتى الآن، بل لم تتوفر إلا فى العقود الثلاثـة أو الأربعـة الأخيرة معلومات كافية عن التصنيف المفصل للغات الأفريقيـة. ولا تـزال لغات كثيرة فى أمريكا الجنوبية واستراليا غير معروفة إلى حد ما. وقد يظن أن أهل هذه المناطق يتحدثون لهجة من لهجات لغة معروفة، لكـن البحـوث

---

(١) Fromkin & Rodman (1998). P. 476 f.
- Crystal, D. (1989). P. 248.

الحديثة أثبتت أنها لغات جديدة مستقلة(١).

٣- حياة اللغات وموتها:

تعد اللغة حية إذا كان لها أهل أحياء يتحدثونها فى الوقت الحاضر حديثًا مطردًا. وليس من السهل القول بأن أهل بعض اللغات أحياء أو أموات، فاذا كانوا أحياء فليس من الميسور القول بأنهم لا يزالون يستخدمون لغتهم استخدامًا مطردًا أو لا(٢).

وعلى الرغم من أن العلماء اكتشفوا مناطق من العالم لم يكونوا على علم بها، ووجدوا أهل هذه المناطق يتحدثون لغات غير معروفة لهم فقد تبين لهم أن كثيرًا من هذه اللغات يموت سريعًا بسبب القرارات السياسية أو الإغراءات الاقتصادية أو الأمراض الوبائية. وقد سجل الباحثون سنة ١٩٦٢ أن الناطقين بالتروماى Trumai المستخدمة فى إحدى قرى فنزويلا نقص عدد مستعمليها بسبب وباء الأنفلونزا إلى أقل من عشرة أشخاص، كما لحظوا أن اللغات الهندية في البرازيل، وكانت فى القرن التاسع عشر تقدر بأكثر من ألف لغة، انخفض عددها الآن إلى أقل من مائتين(٣).

ب - قاعدة البيانات:

يعتمد اللغويون فى تصنيفهم للغات على قاعدة بيانات data base تشمل وصفًا للغات التى يرغبون فى تصنيفها من المفترض فيه أن يكون دقيقًا

---

(١) O'Grady et al. (1996). P. 389.
- McArthur (ed.) 1996. P. 525.

(٢) Crystal, D. (1989). P. 284.
- McArthur (ed.) 1996. P. 525.

(٣) Crystal, D. (1989). P. 284.

وشاملاً، وهذا الوصف يتاح لهم من خلال مصادر أولية primary sources ومصادر ثانوية secondary sources ورواة informants[(١)].

أما المصادر الأولية فالمقصود بها كتب النحو التى تصف نظام لغة من اللغات، وهذه الكتب إما شديدة الاختصار فلا تشمل كل الظواهر، وإما شديدة الاتساع والتفصيل فلا يطيق الباحثون الصبر عليها والإحاطة بها، ناهيك عن اهتزاز الثقة فيما تقدمه بعض كتب النحو من وصف يتسم أحيانًا بالخلط والاضطراب والتناقض. وثمة أمور أخرى تؤثر فى دقة الوصف والثقة به، منها: أن يكون الباحث ابنًا للغة أو لا يكون، وأن يكون جمعه للمادة اللغوية التى يصفها جمعًا من مصادر أصلية أو وسيطة، وأن يكون للبحث هدف سابق يسعى إلى تحقيقه أو لا يكون[(٢)].

وأما المصادر الثانوية فالمقصود بها المصادر التى تأخذ أخذًا مباشرًا عن مصادر أصيلة، فيكون لها من القيمة العلمية ما لتلك المصادر، لكن المشكل أنّ عددًا منها يأخذ عن مصادر قديمة تجاوزها البحث العلمى، وبعضها لا يأخذ عن مصدر أصيل أخذًا مباشرًا، بل يكون بينه وبين المصدر الأصيل مراجع ثانوية عديدة، وقد اجترح بعض الباحثين هذا الإثم الذى نتج عنه تأريث أخطاء كثيرة، ومن هؤلاء كيان Keenan (سنة ١٩٧٨ ب ص ١٨٥) الذى أخذ مادة دراسته عن دالابون Dalabon، وأخذها هذا عن كومرى Comrie (١٩٧٨ ص ٣٨٦ – ٣٨٧)، وأخذها كومرى عن سلفرشتاين Silverstein (١٩٧٦ ص ١٢٩)، وأخذ سلفرشتاين عن كابل Capell (١٩٦٢)

---

(١) Mallinson & Blake (1981). P. 12 f.
(٢) Ibid, P. 14.

وهو المصدر الأصيل[1].

ولعل أفضل المصادر جميعًا المصدر الأخير وهو الرواة informants، وقد زاد اعتماد الباحثين على الرواة الأحياء زيادة كبيرة بعد أن زاد عدد المهاجرين واللاجئين والدارسين والباحثين من جنسيات مختلفة ولغات شتى وأخذ اللغويون منذ وقت بعيد يستثمرون وجود هؤلاء فى وصف لغات أخرى غير اللغات الأوروبية التى قتلت بحثا. وبرغم ما يستخدمه الباحثون من وسائل متقدمة فى تسجيل المادة اللغوية ووصفها فإن هذه المادة تتعرض فى بعض الأحيان لأخطاء الملاحظة errors of observations وأخطاء المبالغة فى التعميم over-generalization، وأخطاء تتعلق بالعينات أو النماذج التى يجرى عليها البحث sampling errors فضلاً عن توجيه الاهتمام إلى سمات بعينها، أو الخطأ فى إرجاع بعض الظواهر إلى أصل مشترك common parentage[2].

ج – منهج الوصف:

من المشكلات المنهجية أن بعض الباحثين الذين يعمدون إلى وصف لغات ماتت أو انقرضت قد يستخدمون فى ذلك معايير وصفت بها لغة حية يعرفونها فيسقطون عليها تصورات وقواعد جاهزة مستنبطة من لغة أخرى، ويضعونها فى إطار نظرى لا يناسبها[3]. وقد كان العكس صحيحًا أيضًا فى مرحلة مبكرة من الوصف اللغوى، إذ كانوا يصفون لغات حية كالإنجليزية

---

(١) Ibid, P. 15.

(٢) Bell, A.: Language Samples, in: Greenberg (ed.) 1978: Universals of Human Language. Vol. 1 Method & Theory. Stanford University Press, Stanford, California. P. 126 f.

(٣) Mallinson & Blake (1981). P. 14- 15.

وصفًا مقيسًا على وصف لغة ماتت كاللاتينية. وغنى عن الذكر أن لهذا أثره في صحة الوصف ودقة النتائج.

د – العلاقات بين اللغات:

يتجاهل بعض الذين يصفون اللغات ما بين أصحابها من علاقات ثقافية واجتماعية وتاريخية تترك آثارها فى اللغات بدرجات متفاوتة قد تؤثر فى دقة الوصف. فقد تختلف لغتان تنتميان تاريخيًا إلى أصل واحد اختلافًا بينا، وقد تتقارب لغتان تقاربًا شديدًا من دون أن تنتميا إلى أصل واحد، هذا فضلاً عن أن التقارب والاختلاف لا يكون فى الظواهر اللغوية على درجة واحدة، فقد تختلف اللغتان مثلاً اختلافًا بينا فى الظواهر النحوية، وتتفقان اتفاقًا ظاهرًا فى الظواهر الفونولوجية أو يحدث العكس. وقد يكون التقارب شديدًا فى الثروة اللفظية فتقترض إحدى اللغتين ألفاظًا كثيرة من الأخرى من دون أن يكون التقارب على هذا النحو فى غيرها من المستويات اللغوية[١] وليس من الميسور فى بعض الأحيان إرجاع التماثل بين اللغات إلى نمط تركيبى، أو أصل وراثى، أو امتداد إقليمى[٢].

على أن هذه العقبات لم تصرف الباحثين عن السّعى الحثيث إلى تصنيف ما استطاعوا الوقوف عليه من لغات العالم محاولين تذليل الصعوبات، واقتحام العقبات، وحل المشكلات قدر الطاقة بإيجاد المعايير التى تكفل لهم دقة الوصف والتصنيف قدر المستطاع، فقدموا لنا ثلاثة أنواع

---

(١) Crystal, D. (1989). P. 294.

(٢) Comrie, B. (1993) P. 449.

وانظر: ج. فندريس: اللغة. تعريب عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦١ – ٣٦٣.

أساسية من التصنيف هى التصنيف الجينى أو الوراثى genetic والتصنيف الاقليمى areal والتصنيف اللغوى linguistic[1]. وسوف نعرض الآن إن شاء الله لهذه الأنواع موجزين الحديث فى النوعين الوراثى والإقليمى ومفصلين القول فى التصنيف اللغوى، وهو المراد بالتصنيف النوعى عند الإطلاق.

التصنيف الوراثى genetic classification:

يرجع تاريخ البحث المنهجى فى العلاقات بين اللغات التى يعتقد أنها تنحدر من أصل واحد إلى أواخر القرن الثامن عشر، وقد صادف تطبيقه على اللغات الهندية – الأوروبية قبولاً واسعًا شجع الباحثين على تطبيقه على مجموعات أخرى من اللغات، فأخذوا يقارنون بين مجموعات منها على نحو منتظم ومفصل للكشف عما بينها من تماثل يسوغ القول بانحدارها من أصل واحد[2]. من هنا ظهر ما يسمى التصنيف الوراثىْ للغات على أساس من نسبها أو أصلها descent، فاللغات التى تطورت عن لغة أمّ تتجمع معاً، ويقال إنها ذات صلة وراثية[3]. هذه اللغة الأمّ قد تكون لغة تاريخية استعملت فعلاً فى مرحلة زمنية بعينها، ومن ثم يستدل عليها من خلال الوصول إلى

---

(١) ثمة تصنيفات أخرى لم يرتضها العلماء أهمها التصنيف العرقى "الإثنولوجي"، وصاحب هذا التصنيف هو فريدريش ملر Friedrich Müller، فقد صنف اللغات على أساس المميزات العرقية للشعوب الناطقة بها كتجعد الشعر أو ملاسته. وقد رأى فندريس أنه تصنيف شديد الغرابة، ولا يثبت على التمحيص؛ لأنه ليس هناك ارتباط بين اللغة والمميزات العرقية، وكل محاولة للربط بينهما لا طائل من ورائها. (فندريس: اللغة ص ٢٩٨).

(٢) Crystal, D. (1989). P. 292.
وانظر: رمزى بعلبكى: فقه العربية المقارن. دراسات فى أصول العربية وصرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية. دار العلم للملايين – بيروت ١٩٩٩ ص ٢٤.

(٣) O'Grady et al (1996). P. 373.

النصوص المكتوبة بهذه اللغة، كما هى الحال فى اللغة اللاتينية، وقد تكون مفترضة يستدل عليها بالترسيس reconstruction كما هى الحال فى اللغات الأمات التى لم يعثر لها على نصوص أو شواهد كاللغة الهندية الأوروبية الأم واللغة السامية الأم. واللغات التى تنحدر من لغة أم سواء أكانت تاريخية أم مفترضة تسمى لغات شقيقة cognate language، فالعربية والحبشية والآرامية، مثلاً، لغات شقيقة لانحدارها من السامية الأم، والبرتغالية والإسبانية والإيطالية لغات شقيقة لانحدارها من اللاتينية وهى لغة تاريخية[1].

ولعل أول من مهد السبيل لهذا النوع من البحث فى القرن الثامن عشر الباحث الإنجليزى آدم سميث Adam Smith، وعليه اعتمد الأخوان فريدرش وأوجست فيلهلم شليجل فى وضع علم اللغة التاريخى والمقارن فى بداية القرن التاسع عشر[2].

لقد نشط البحث المقارن بين اللغات فى القرن التاسع عشر بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية، وكان فريدرش شليجل أول من طالب بجعل اللغة السنسكريتية منطلقاً للمقارنات اللغوية[3].

واستطاع فرانتس بوب Franz Bopp (١٧٩١ – ١٨٦٧) فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يقارن بين اللغات الهندية الأوروبية متتبعاً مراحلها التاريخية فى محاولة لاستخلاص خصائص اللغة الهندية الأوروبية

(١) Ibid.
– رمزى بعلبكي: فقه العربية المقارن ص ٢٤.
(٢) Dressler, W.: (1980). S. 637.
(٣) محمود فهمي حجازي: أسس علم اللغة العربية (القاهرة ١٩٧٩) ص ١٢٨ – ١٢٩.

الأم التى انحدرت منها هذه اللغات[١].

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نزع البحث اللغوى إلى إخضاع اللغة إلى ما تخضع له العلوم الطبيعية وصولاً إلى استخراج نظمها، وقوانينها، ومراحل تطورها تأثرًا بنظرية داروين فى نشوء الكائنات الحية وتطورها.

وكان شلايشر Schleicher (١٨٢١ – ١٨٦٨) الذى تخصص فى العلوم البيولوجية معجبا بنظرية داروين فحاول نقل التفسير التطورى للكائنات الحية إلى اللغات، وقد نظر فرأى علماء النبات يصنفون النباتات فى أسر اعتمادًا على ما بينها من تماثل فى البنية والخصائص، فانتهج هذا النهج فى مقارنة اللغات[٢]. ثم شاع هذا النوع من تصنيف اللغات حتى عدّ تصنيف اللغات فى أسر على أساس ما بينها من علاقات جينية أو وراثية أشهر طرائق تصنيف اللغات[٣].

ولعلّ أشهر أسرة لغوية هى الأسرة الهندية الأوروبية. وعلى الرغم من أنها تشتمل على نحو مائة لغة فهى لا تعدّ أسرة كبرى بالنظر إلى العدد الكلّى للغات العالم، لكنها على كل حال كبرى الأسر اللغوية فى العالم من حيث عدد المتكلمين بها، إذ يبلغ نحو بليونى متكلم بها من أهلها[٤] ولما كان بعض لغاتها أقرب إلى بعضها من بعض فقد كونت اللغات المتقاربة فروعًا

---

(١) السابق نفسه.
– وانظر: رمزي بعلبكي (١٩٩٩) ص ١٨ – ١٩.
(٢) محمود فهمى حجازى (١٩٧٩) ص ١٢٩.
(٣) Comrie, B. (1993). P. 447.
(٤) O'Grady et al (1996). P. 391.

لهذه اللغة بلغت تسعة هى: الجرماني، والسلتى، والرومانسى، والهللينى، والألباني، والأرمينى، والبلطيقى، والسلافى، والهندى الإيرانى(١).

وثمة أسر لغوية أخرى كثيرة(٢). منها الأسرة الأفريقية الآسيوية وهى أسرة كبرى موجودة فى شمال أفريقيا وشرقها وجنوب غرب آسيا، وهى تشتمل على نحو مائتين وخمسين لغة يتحدث بها نحو مائتى مليون، ويعتقدون أن اللغة الأم التى انحدرت منها هذه اللغات وجدت فى الألف السابع قبل الميلاد، ولها فروع هى: الفرع السامى، وهو صاحب أطول تاريخ وأكبر عدد من المتكلمين، واللغة الكبرى فيه هى اللغة العربية التى يستخدمها لغة أولى نحو مائة وخمسين مليونًا فضلاً عن عدد آخر من الملايين يستخدمونها لغة ثانية، وفرع المصرية القديمة التى يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، والفرع البربرى الذى يبلغ عدد لغاته نحو عشرين لغة يتحدث بها فى شمال أفريقيا نحو اثنى عشر مليونًا. والفرع الكوشى الذى يبلغ عدد اللغات فيه نحو ثلاثين لغة يتكلمها نحو ثلاثة ملايين، والفرع التشادى، وتصنيفه فى الأسرة الأفريقية الآسيوية لا يتسم بالوضوح الكامل، وأهم لغاته الهوسا التى يتحدث بها نحو خمسة وعشرين مليونًا بوصفها لغة أولى، وملايين عديدة بوصفها لغة ثانية(٣).

وعلى الرغم من أن اللغويين نجحوا فى تصنيف آلاف من لغات

---

(١) Ibid.
- Crystal, D. (1989). P. 298.

(٢) انظر فى تفصيل ذلك الفصول ٥٠، ٥١، ٥٢ المعقودة لأسر اللغات فى:
Crystal, D. (1989). P. 292 – 352.

(٣) Ibid, P. 316.
- Fromkin & Rodman (1998). P. 477.
- محمود فهمى حجازى (١٩٧٩) ص ١٣٣.

العالم فى أسر فلا يزال هناك لغات كثيرة ليس من الممكن تصنيفها فـــى أى من هذه الأسر، لأنها لا تمت بصلة تاريخية أو تركيبية لأية لغة أخرى، وقد أطلقوا على هذا النوع من اللغات مـصطلح اللغــات المعزولــة language isolates كلغة الباسك Basque التى يتكلمها الناس فى شـمال إسـبانيا وفــى الجنوب الغربى من فرنسا وكالسومرية من اللغات المنقرضة(١).

وقد حاول العلماء فى السنوات الأخيرة أن يـضموا بعـض الأســر المتقاربة إلى بعض ليكونوا ما أسموه الأســرة الكبــرى phylum أو macro family كالأسرة التى أطلقوا عليها الأسرة الأوروبية الآسيوية euroasiatic، ولا تزال هذه المحاولات موضع خلاف حتى الآن، لأنهـا تتحـدى الـصيغ المستقرة فى علم اللغة(٢).

ومن الجدير بالذكر أنّ بعض اللغويين حذر مما يحمله مصطلح "أسرة لغوية" من ايحاء بأن اللغات كالأسر فعلاً من حيـث الانتـساب ودرجـات القرابة. وقد وقع فى هذا الشرك بعض علماء اللغة الذين تناسوا ما فى هـذا المصطلح من مجاز فأخذوا يضعون قوائم بأنساب اللغات، واستباحوا القـول بأن اللاتينية مثلاً ولدت الفرنسية والإيطالية، وتكلموا من ثـم عـن اللغـات الأمهات واللغات البنات واللغات الأخوات، وبنات الخالات مـن اللغـات(٣). وكلها فيما يرى فندريس: "مصطلحات سيئة لأنها تعطى فكرة زائفـة عـن علاقة اللغات بعضها ببعض، إذ لا شئ من الشبه بين قرابة اللغـات وبـين

---

(١) O'Grady et al (1996). P. 407.
- Crystal, D. (1989). P. 326.

(٢) O'Grady et al (1996). P. 408.

(٣) Fromkin & Rodman (1998). P. 474.

التتابع أو التوالد بالمعنى الفسيولوجى لهذه المصطلحات"[١].

ويرى "أننا إذا قلنا إنّ الفرنسية قد خرجت من اللاتينية فمعنى ذلك أن الفرنسية هى الصورة التى صارت إليها اللاتينية خلال العصور فى إقليم من الأقاليم، وإذن فليست الفرنسية فى كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها"[٢].

التصنيف الإقليمى: areal classification

يقوم التصنيف الإقليمى للغات على رصد ما بينها من تماثل ناتج عن تجاورها فى نطاق إقليمى أو جغرافى واحد، وليس من الممكن إرجاعه إلى أصل تاريخى ثابت، أو القول بأنه من قبيل المصادفة[٣].

وليس من شك فى أن التجاور المكانى يؤدى إلى أنواع من التبادل الثقافى بين الشعوب المتجاورة، لابدّ أن تترك آثارها فى لغاتها ثم لا تلبث هذه الآثار أن تصبح ظواهر لغوية تميز إقليما بعينه تمييزًا لغويًا عن غيره من الأقاليم. وقد تأخذ هذه الظواهر فى البداية صورة الاقتراض اللغوى الذى لا يقتصر على الألفاظ، بل يتجاوزها إلى الصيغ والتراكيب، وربما تجاوز ذلك كله إلى ما أسماه هومبولت الصيغة اللغوية الداخلية innere Sprachform ويعنى بها القوانين اللغوية الباطنة التى ترسم قوانين الفكر[٤].

---

(١) ج. فندريس: اللغة ص ٣٦٧.
- Crystal, D. (1989). P. 292.

(٢) ج. فندريس: اللغة ص ٣٦٧.

(٣) Dressler, W. (1980). S. 636.
- Comrie, B. (1989). P. 205.

(٤) Dressler, W. (1980). S. 637.
- Bussmann, H. (1983) Lexikon der Sprachwissenschaft. Kröner Verlag. Stuttgart. S. 212.

وإذا كان فقهاء اللغة قد وضعوا للدلالة على اللغات التى تنحدر من أصل لغوى واحد مصطلح الأسرة اللغوية language family فقد تبنوا المصطلح الألمانى الاتحاد اللغوى Sprachbund للدلالة على اللغات التى تستخدم فى نطاق إقليمى أو جغرافى واحد، وتشترك فى ظواهر لغوية ليس من المستطاع إرجاعها إلى أصل وراثى. وقد شاع استعمال هذا المصطلح فى لغته الألمانية فى المراجع اللغوية غير الألمانية لما لم يجد الباحثون فى الإنجليزية أو غيرها مصطلحًا أدل منه على المراد(١).

ولعل أبرز مثل للإقليم اللغوى هو الاتحاد اللغوى فى البلقان Balkan Sprachbund(٢). وتتألف نواته من أربع لغات هى اليونانية الحديثة، والألبانية، والبلغارية، والرومانية. وهذه اللغات الأربع هى فى الحقيقة هندية أوروبية لكنها من فروع مختلفة؛ فاليونانية الحديثة تنتمى إلى الفرع الهللينى، والألبانية تمثل فرعًا مستقلاً، والبلغارية تنتمى إلى الفرع السلافى، على حين أن الرومانية تنتمى إلى غصن subbranch من الفرع الإيطالى، وهى تشترك فى عدد من السمات ليس من الممكن ردها إلى أصل وراثى. فاليونانية الحديثة مثلاً تشترك مع اللغات البلقانية فى سمات تختلف اختلافًا بينًا عن اليونانية القديمة، والبلغارية فيها سمات تشيع فى اللغات البلقانية وتخالف اللغات السلافية الأخرى، وقل مثل ذلك فى الألبانية والرومانية(٣). ولما كان

---

(١) Comrie, B. (1989). P. 204.

(٢) ثمة اتحادات لغوية أخرى كتلك التى فى شبه القارة الهندية، وجنوب شرق آسيا، وأمريكا الجنوبية. انظر:

- Mallinson & Blake (1981). P. 17.

- رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٢٣.

(٣) Comrie, B. (1993). P. 448.

- Comrie, B. (1989). P. 205.

- Mallinson & Blake (1981). P. 17.

لهذه اللغات شواهد تاريخية.ودراسات مقارنة مع لغات أخرى ليست داخلة فى الاتحاد اللغوى البلقانى، فإننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أى السمات ترجع إلى الأصل الوراثى وأيها يرجع إلى الأثر الإقليمى[١].

على أن من اللازم التنبيه إلى أن من الممكن أن نجد فى العالم لغات تظهر فيها الخواص اللغوية التى تميز الاتحاد اللغوى البلقانى، لكنها لا تعدّ عضوًا فيه لأنها تفتقر إلى التجاور المكانى[٢].

التنصيف النوعى (= اللغوى) Typological classification :

يقوم التنصيف النوعى للغات على أساس من تماثلها فى الخواص التركيبية structural charachteristics تماثلاً يميز كل صنف فيها عن آخر دون نظر إلى انتمائها إلى أصل تاريخى واحد، أو امتداد مكانى محدد[٣].

وإذا كان التصنيف الوراثى يقوم على رصد ما بين اللغات من علاقات تاريخية أدت إلى تماثلها فى سمات لغوية بعينها، وإذا كان التصنيف الإقليمى يقوم على معرفة ما للامتداد الجغرافى من أثر فى لغات متجاورة أدت إلى تماثل بينها فى سمات لغوية معينة، فإن التصنيف النوعى يجعل السمات اللغوية هى أساس التصنيف، وبهذا تدخل فيه لغات تنتمى إلى أصل واحد، ولغات لا تنتمى إلى أصل واحد، وتدخل فيه أيضًا لغات متجاورة ذات

---

(١) Comrie, B. (1989). P. 205.

(٢) Comrie, B. (1989). P. 51.

(٣) Commrie, B. (1993). P. 449.
- Hopper, P.J. (1992) Vol. 2. P. 136.
- Dressler, W. (1980). P. 636.
- O'Grady et al (1996). P. 374.

امتداد جغرافي واحد، ولغات متباعدة لا تشملها مساحة جغرافية واحدة[1] وهو بذلك أعم من النوعيين السابقين وأشمل لهما إذ هو متحرر من قيود الزمـــان والمكان، لا يتقيد بانتماء تاريخي ولا امتداد مكاني، بل يتسع ليشمل الـسمات المتماثلة التي تشيع في لغات العالم جميعا، وبه تـصبح العالميــات اللغويـة ظاهرة للعيان. من ثم قد يكون من الغريب أن يقرر رمزي بعلبكي أن المنحى الوراثي أو التكويني – كما آثر أن يسميه – هــو الأصــل، والنــوعي هــو الفرع[2]، ولعله نظر إلى أقدمهما نشأة فجعله أصلاً، وجعل أحدثهما فرعا[3]. لكن العلاقة بينهما لا تفهم في ضوء الأصلية والفرعية.

ويعتمد البحث التصنيفي على استقراء لغات العــالم للوقــوف علــى السمات التي تستحق الاهتمام من حيث بروزها، وقيمتها اللغويــة وشــيوعها لتكون أساس التصنيف النوعي. وهو يقوم على افتراضين سابقين: أحدهما أن بين اللغات سمات مشتركة من الممكن الوقوف عليها بمقارنة بعضها ببعض، والثاني أن بين بعض اللغات اختلافات في الخواص والسمات تسوغ تصنيفها في أنماط، فلولا هذه الاختلافات لصارت كلها نمطًا واحدًا أو لغة واحدة[4].

والتصنيف الناجح هو الذي يزودنا بأكبر قدر من السمات تتميز بــه

---

(١) Mallinson & Blake (1981). P. 5.
- Greenberg, J. H. (974). P. 56.

(٢) رمزي بعلبكي (١٩٩٩) ص ٢٣.

(٣) ذكر جرينبرج أنّ أول من استخدم مصطلح "Typology" بمعنى التصنيف اللغوي للغات هم لغويو مدرسة براغ في المؤتمر الأول لفقهاء اللغة السلافونية المقام ســنة ١٩٢٨. انظر:
- Greenberg, J. H. (1974). P. 13.

(٤) Comrie, B. (1993). P. 449.

لغات عن لغات[١].

أما كيفية التصنيف فقد تكون بإحدى ثلاث كلها مقبول عند الباحثين[٢]:

الأولى: مقارنة عدد محدود من اللغات للوقوف على السمات المشتركة بينها، ثم اختبار تحقق كل سمة منها فى أكبر عدد من اللغات.

الثانية: مقارنة أكبر عدد ممكن من اللغات بعضها ببعض للوقوف على السمات الأربع التى تشيع فيها جميعا، وتحديدها، واختبار صدق النتائج.

الثالثة: وضع احتمالات منطقية للتصنيف، ثم النظر فيما يتحقق منها فى اللغات وما لا يتحقق، وقد ضرب كومرى أمثلة لذلك منها سمة استخدام الضمائر المنعكسة فى اللغات. فرأى أن ثمة احتمالات أربعة:

١- استخدام ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب جميعًا استخدامًا انعكاسيًا.

٢- استخدام ضمائر المتكلم والمخاطب دون الغائب استخدامًا انعكاسيًا.

٣- استخدام ضمائر الغائب دون المتكلم والمخاطب.

٤- عدم استخدام الضمائر استخدامًا انعكاسيًا لأى من المتكلم والمخاطب والغائب.

---

(١) Hockett, Ch. F. (1973). P. 62.

(٢) Comrie, B. (1989). P. 34 f.
- Dressler, W.: (1980). S. 313.

وقال كومرى: "وعندما توزع اللغات على هذه الأنماط الممكنة منطقيًا فإننا سوف نجد عددًا ضخمًا من اللغات يحقق الاحتمال الأول والاحتمال الثانى، والاحتمال الرابع، لكننا لن نجد لغة تحقق الاحتمال الثالث"(١).

على أن من الممكن أن تكون أية سمة لغوية فى لغة من اللغات منطلقًا للتصنيف اللغوى بشرط أن يؤدى هذا التصنيف إلى بيان قيمة من قيم التركيب اللغوى، فقد يجوز مثلاً أن نصنف اللغات على أساس ما فيها من تقابل صوتى voice opposition أو خلوها منه، ففى نظام الصوامت فى الإنجليزية والروسية واليابانية أمثلة لوجود هذا التقابل، وفى الكيشوية Quechua، والهاوائية Hawaiian والديربالية Dyrbal (وهى لغة السكان الأصليين فى استراليا) أمثلة للغات التى تخلو من هذه الظاهرة. وعلى الرغم من أن هذا يبدو تصنيفًا جيّدًا فاللغويون لا يرتضونه، لأنه لا يقدم شيئًا مفيدًا لتحليل التركيب اللغوى(٢).

ويطمح علماء التصنيف النوعى إلى التمكن من مقارنة أنظمة لغوية كاملة بأنظمة لغوية كاملة، ولكنهم لا يزالون يعملون من خلال أنظمة فرعية subsystems على أساس من معايير تصنيفية محددة إلى أن يتمكنوا من تحقيق هذا الطموح(٣).

ونريد أن نلفت إلى ما بين المنهج المقارن والمنهج التقابلى والمنهج التصنيفى من فرق، فالمنهج المقارن يقارن بين لغات من أصل واحد وصولاً

---

(١) Comrie, B. (1989). P. 34.
(٢) Comrie, B. (1993). P. 450.
(٣) Dressler, W. (1980). S. 636.

إلى ترسيس اللغة الأم، والمنهج التقابلى يقابل بين لغتين لتحديد جوانب الصعوبة فى تعلم إحدى اللغتين[1]. أما المنهج التصنيفى فيقارن بين اللغات لكى يصل إلى الظواهر أو السمات المشتركة بين لغات العالم ولكل منها وسائله لبلوغ الهدف الذى يسعى إليه.

وسوف نعرض الآن لأهم ما قدموه من تصنيف للغات على أساس من أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية:

أولاً: النظام الصوتى:

تضع فسيولوجية أعضاء النطق الإنسانى حدودًا لأنماط الأصوات اللغوية التى يمكن إنتاجها، وتضع فيسولوجية الأذن ومراكز الاستقبال فى المخ حدودًا لأنماط الأصوات التى يمكن استقبالها فى خطاب متصل بوصفها وحدات صوتية متميزة سمعيًا وفونولوجيًا[2]، وذلك مما يجعل الوقوف على النظام الصوتى فى اللغة الإنسانية ممكنا، ويجعل تصنيف اللغات على أساس من خواصها الصوتية ميسورًا.

وعلى الرغم من أن تصنيف اللغات على أساس من أنظمتها الصوتية لم يلق عناية كافية من الباحثين[3] فقد قدموا لنا أنواعًا منه، منها ما هو خاص بالفونيمات فوق القطعية suprasegmental ومنها ما هو خاص بالفونيمات القطعية segmental، ولعلّ أشهر تصنيف من النوع الأول هو تصنيف اللغات إلى لغات نغمية Tonal languages ولغات غير نغمية non-tonal languages

---

(١) محمود فهمي حجازي (١٩٧٩) ص ٣٤، ٤٠.

(٢) Robins, R.H. (1978): General Linguistics. An Introductory Survey. Longman. Hong Kong, P. 336.

(٣) McArthur, T. (ed.). 1996. P. 561.

على أساس مما تقوم به طبقة الصوت voice pitch من وظيفة فونولوجية تتغير بها معانى الكلمات وتتحدد بها بعض فصائلها النحوية أو لا تقوم[1] ففى الإنجليزية لا بأس أن تنطق كلمة cat مثلاً بنغمة عالية أو منخفضة، صاعدة أو هابطة، إذ يظل معناها ثابتًا لا يتغير، فالإنجليزية بذلك ونحوه لغة غير نغمية[2]. أما إذا قامت النغمة بدور فى تغيير معنى الكلمة وتحديد فصيلتها النحوية فى لغة من اللغات فهى لغة نغمية، ففى الصينية المندرينية (وهى اللغة الرسمية) مثلاً معنى ma إذا نطقت بنغمة مستوية level tone "أمّ" ومعناها إذا نطقت بنغمة صاعدة rising tone "قنب" ومعناها إذا نطقت بنغمة هابطة صاعدة dipping tone "حصان" وتصبح إذا نطقت بنغمة هابطة falling فعلاً معناه "وبّخ"[3].

واللغات النغمية كثيرة فى العالم، فثمة أكثر من ألف لغة نغمية فى "أفريقيا" وحدها، وكثير من اللغات الوطنية فى أمريكا نغمية، وثمة كثير منها فى آسيا، ومنها الصينية والفيتنامية، والتايلاندية[4].

وثمة تصنيف آخر مثير للاهتمام قدمه جيل Jil سنة ١٩٨٦ على أساس إحصائى، فقد صنف اللغات صنفين[5]:

(١) Robins, R. H. (1978). P. 274.

(٢) Fromkin & Rodman (1998). P. 240 f.

(٣) McArthur, T. (ed.) 1996. P. 562.

(٤) Fromkin & Rodman (1998). P. 241.
- Richards, J. C.– Platt, J.– Platt. H. (1993): Dictionary of Language Teaching & Applied Linguistics. Longman. Singapore. P. 382.

(٥) Rayne, J. R.: Language Universals and Language Types, In: Collinge, N.E. (ed.) 1990 An Encyclopedia of Language. Routledge. Great Britain. P. 314 f.

لغات ذات إيقاع صاعد iambic languages، ولغات ذات إيقاع هابط trochaic، فالإيقاع الصاعد يعتمد على نبر ضعيف متلوّ بنبر قوى، والإيقاع الهابط على العكس يعتمد على نبر قوى متلوّ بنبر ضعيف، وقد قارن بين الصنفين فانتهى إلى ما يأتى:

١- اللغات ذات الإيقاع الصاعد تحتوى على عدد من المقاطع أكثر مما تحتوى عليه اللغات ذات الإيقاع الهابط.

٢- اللغات ذات الإيقاع الصاعد بنيتها المقطعية أبسط من تلك التى فى اللغات ذات الإيقاع الهابط.

٣- اللغات ذات الإيقاع الصاعد فيها توازن نبرى stress-timed، إذ يتوزع فيها النبر على مدد زمنية تكاد تكون متساوية فى تباعدها، على حين أن اللغات ذات الإيقاع الهابط فيها توازن مقطعى syllable-timed.

٤- اللغات ذات الإيقاع الصاعد فيها أصوات غير رنينية non-sonoraint (انفجارية، ومزجية، واحتكاكية) أكثر مما فيهما من الرنينية. واللغات ذات الإيقاع الهابط على العكس، فيها من الأصوات الرنينية أكثر مما فيها من الأصوات غير الرنينية.

٥- اللغات ذات الإيقاع الصاعد لغات نغمية، على حين أنّ اللغات ذات الإيقاع الهابط غير نغمية.

واللغة التركية أقرب أن تكون ذات إيقاع صاعد، واللغة الإنجليزية اقرب أن تكون ذات إيقاع هابط.

وتصنف اللغات على أساس من نوع النبر فيها هل هو نبر ثابت

fixed stress أو غير ثابت، فتصنف اللغات إلى لغات ذات نبر ثابـت وهـى التى يمكن التنبؤ فيها بمواقع النبر، وإلى لغات ذات نبر حرّ free stress وهى التى لا يمكن التنبؤ فيها بمواقع النبر، بل ينبغى معرفته فى كل كلمـة علـى حدة. ومن لغات النوع الأول الفرنسية التى يقع النبر فيها دائما على المقطـع الأخير من الكلمة، والبولندية والسواحيلية اللتان يقع النبر فيهما على المقطـع قبل الأخير من الكلمة، والتشيكية والفنلندية اللتان يقع النبر فيهما دائما علـى المقطع الأول من الكلمة. ومن لغات النوع الثانى الروسية(١).

أما النوع الثانى وهو الخاص بالفونيمات القطعية فتصنف اللغات فيه على أساس من نظام الصوائت فيها ونظام الصوامت، ثم توزيع الـصوامت والصوائت فى بنية مقطعية، وذلك على النحو الآتى:

نظام الصوائت:

لما كان نظام الصوائت فى لغات العالم يتألف من عدد يمكن حصره من الصوائت القصيرة فقد اتخذ منه البـاحثون اساسًـا للتـصنيف النـوعى للغات(٢).

ولعل أهم دراسة فى هذا المجال هى الدراسة التـى قـدمها جـون كروذرس John Crothers عن التصنيف النوعى لأنظمة الصوائت والعالميات معتمدًا على "عينة" نموذجية من اللغات تجمع جمعًا متوازنًا بين التـصنيفين

(١) O'Grady et al (1996). P. 379.

(٢) Ibid, P. 375.

- Crothers, J.: Typology and Universals of Vowel Systems, In: Greenberg, J.H. (1978): Universals of Human Language. Stanford University Press, Stanford, California, Vol. 2 Phonology. P. 95 ff.

الوراثى والإقليمى أنجزها مشروع ستانفورد لأرشفة الفونولوجى Stanford Phonology Archiving Project، وشملت حتى كتابة البحث مائتى لغة وتسعًا[1]. وقد اقتضى عمله فى هذه المادة اللغوية الضخمة أن يسقط الفونيمات الهامشية marginal التى يقل ترددها فى العينة أو يندر. وقد استخلص الرجل منها اثنى عشر تصنيفًا كل منها مؤسس على عدد الصوائت المستخدمة فى اللغات ونكتفى هنا بأن نذكر منها أنماطًا ستة هى أكثر شيوعًا، وتمثل نحو ٨٠٪ من اللغات فى العينة[2].

١- لغات ذات نظام ثلاثى، وله صورة واحدة هى:

/ i a u / وتمثله فى العينة ثلاث وعشرون لغة.

٢- لغات ذات نظام رباعى، وله صورتان، الأولى منهما

/ i ɛ a u / وتحققها ثلاث عشرة لغة، والثانية / i i a u / وتحققها تسع لغات، فالمجموع اثنتان وعشرون.

٣- لغات ذات نظام خماسى، وله صورتان الأولى منهما / i ɛ a u ɔ / وتحققها خمس وخمسون لغة، والثانية / i ɛ ɨ a o / وتحققها خمس لغات، فالمجموع ستون.

٤- لغات ذات نظام سداسى، وله صورتان الأولى منهما /i e ɛ u o ɔ/ وتحققها سبع لغات، والثانية / i ɛ ɨ a u o / وتحققها تسع وعشرون لغة، فالمجموع ست وثلاثون.

---

(١) Crothers, J. (1978). P. 95.
(٢) Ibid, P. 104.

٥- لغـــات ذات نظـــام ســـباعى، ولـــه صـــورتان أساســـيتان، الأولـــى / ɔ o u a ɛ e i / وتحققها إحدى عشرة لغـــة، والثانيـــة /ɔ o u a ə e i / وتحققها أربع وعشرون، فالمجموع خمس وثلاثون.

٦- لغات ذات نظـــام تـــساعى[١]، ولـــه صـــورة أساســـية واحـــدة هـــى: / ɔ o u a ə i ɛ e i/ وتحققه سبع لغات.

وقد أظهر تحليل كرونرس لهذه الأنظمة نتائج تصلح أن تكون أساسًا لصياغة عالميات لغوية منها[٢]:

١- النظام الخماسى أكثر هذه الستة شيوعًا، ومن الممكن أن يعـدّ الـنمط الأساسى للغات العالم، وهذا أمر أكده باحثون آخرون[٣].

٢- كل اللغات فيها الصوائت / i a u /.

٣- اللغات ذات النظام الرباعى فيها / i / أو / ɛ /.

٤- اللغات ذات النظام الخامسى فيها / ɛ/ وفيها بصفة عامة أيضاً / ɔ/

٥- اللغات ذات النظام السداسى فيها / ɔ/ وفيها بصفة عامة أيضا / i /.

٦- اللغات ذات النظام السباعى فيها / e o / أو / i ə /.

٧- اللغات ذات النظام التساعى فيها بصفة عامة / o /.

٨- التقابل بين نوعيات الصوائت الخمسة الأساسية هو المعتاد فـى اللغـة

---

(١) Ibid, P. 104.
انظر الرسم البيانى الذى يبين عدد اللغات التى يستخدمها كل نظام ص ١٠٥ مـن المرجع السابق.

(٢) Ibid, P. 115.

(٣) O'Grady et al (1996). P. 375.

البشرية؛ وأكثر الأنظمة شيوعا هى تلك التى تقترب من هذا العدد من الصوائت الأساسية.

٩- عدد الصوائت الأنفية مساوٍ أو هو أقل من عدد الصوائت الفموية.

١٠- ثمة نزوع إلى أن تكون الصوائت المرتفعة والمنخفضة فى نظام الصوائت القصيرة أقرب إلى المركزية من نظيرتها من الصوائت الطويلة.

وقد ذكر باحثون آخرون أن العربية تنتمى إلى النظام الثلاثى[١] وأن بعض لغات أريزونا تنتمى إلى الرباعى[٢]، واللاتينية إلى الخماسى، والإيطالية إلى السباعي، والإنجليزية إلى التساعى[٣].

ومن النتائج التى توصل إليها بعض الباحثين أن الفونيم الصائت الأكثر شيوعا هو / a / وهو يستخدم فى كل اللغات تقريبا، ويليه فى الشيوع الصائتان / i / و / u /[٤].

ومن الباحثين من ذكر أنّ اللغات تصنف أيضا بناءً على أنماط التقابل بين الصوائت كالشفوى فى مقابل الأنفي، والطويل فى مقابل القصير، فالإنجليزية مثلاً فيها تقابل بين الصوائت الشفوية لكن ليس فيها تقابل بين الصوائت الأنفية والصوائت الفموية، والفنلندية فيها تقابل بين الصوائت الطويلة، والسواحيلية فيها تقابل بين الصوائت القصيرة / i e a o u / لكن

---

(١) رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٣٢.
(٢) السابق نفسه.
(٣) O'Grady et al (1996). P. 375.
(٤) Ibid, P. 376.

ليس فيها تقابل بين الصوائت الطويلة والقصيرة[١].

وقد تصنف اللغات أيضا على أساس من بساطة الصائت وتركيبه، ومن علوه وانخفاضه، ومن كونه أماميا أو خلفيا أو مركزيا، ومن استدارة الشفتين عند النطق به أو انبساطهما[٢].

نظام الصوامت:

غير ممكن تضنيف اللغات على أساس من عدد الصوامت فيها – كما كانت الحال فى الصوائت – ذلك بأن عدد الصوامت فى اللغات شديد التفاوت، إذ هو فى بعض اللغات لا يزيد على ثمانية صوامت، ويزيد فى بعض آخر على تسعين، ففى اللغة المسماة كونج Kung – وهى لغة مستعملة فى ناميبيا – يصل عدد الفونيمات الصامتة إلى ستة وتسعين فونيما[٣]. وإنما تصنف اللغات على أساس من مخارج الفونيمات أو مواضع نطقها، وصفاتها الصوتية، وما تختص به لغات عن لغات من تنوعاتها فى هذين الجانبين تميزها عن غيرها.

وقد ظهر من تحليل اللغات أنها تشترك جميعا فى المخارج الأساسية: الشفوية، والأسنانية، واللثوية، والحنكية، وفى الصفات الصوتية الأساسية كالجهر والهمس، والانفجار والاحتكاك، والأنفية والشفوية، لكنها تتميز بتنوعات تتمثل فى عدد المخارج، والعمليات المميزة لكل نظام[٤]، فالصوامت الانفجارية والأنفية فى الإنجليزية مثلاً تقع فى نظام يتكون من ثلاثة مخارج

---

(١) O'Grady et al (1996). P. 376 f.
(٢) Robins, R.H. (1978). P. 340.
(٣) O'Grady et al (1996). P. 377.
(٤) Robins, R.H. (1978). P. 338.

هى الشفوى bilabial واللثوى alveolar، والطبقى velar، وثلاث عمليات هى الهمس، والجهر، والأنفية[1]:

/p/	/t/	/k/
/b/	/d/	/g/
/m/	/n/	/ŋ

على حين أن لها فى اليونانية القديمة نظامًا يتكون من ثلاثة مخارج هى: الشفوي، والأسنانى dental، والطبقى، وأربع عمليات هى أنها مجردة من الهائية unsapirated، وهائية aspirated، ومجهورة voiced وأنفية nasal[2]:

/p/	/t/	/k/
/p^h/	/t^h/	/k^h/
/b/	/d/	/g/
/m/	/n/	/ŋ

والإنجليزية الفصحى لا يظهر فيها أى استعمال متميز للتهميز glottlalization على النحو الذى يستخدمه الناطقون بالكوكنى cockney مثلاً[3]، ولا يظهر فى الإنجليزية (ولا العربية) أى استعمال متميز للصوامت القذفية ejective، ولكن المعتقد أنها كانت فى السامية الأم بدليل وجود بقايا منها فى الحبشية، وهذا الاعتقاد قد يفسر تحول القاف فى الفصحى إلى همزة فى بعض العاميات[4].

---

(١) Ibid, P. 340.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid, P. 338.

(٤) رمزى بعلبكى: (١٩٨٠) معجم المصطلحات اللغوية. دار العلم للملايين – بيروت ص ١٦٧.

وتصنف اللغات بناء على ما فيها من صوامت مجهورة ومهموسة، فأغلب اللغات فيها النوعان، لكن بعض اللغات فى شمال اليابان ليس فيها إلاّ صوامت مهموسة، وأغلب اللغات فيها فونيمات احتكاكية، لكن بعض اللغات ليس فيها فونيمات احتكاكية كتلك التى فى شمال استراليا والجنوب الشرقى من السودان[١]. وهناك لغات فيها صوامت مزجية affricates كالإنجليزية والألمانية والعربية، ولغات تخلو منها كالفرنسية[٢].

وقد أظهر التصنيف النوعى للغات أن أشيع الفونيمات الانفجارية هى الفونيمات / p, t, k /، وأن قليلا من اللغات تفتقر إلى واحد من هذه الصوامت الثلاثة. وليس هناك لغة تفتقر إلى هذه الثلاثة جميعا؛ فإذا فقدت لغة واحداً منها فالأغلب أن يكون / p / كما فى (العربية) والنوبية، وأكثرها استخداما هو الفونيم / t /، وأن أشيع الصوامت الاحتكاكية هو / s /، وبعض اللغات تفتقر إليه، فإذا كان فى بعض اللغات فونيم احتكاكى واحد فالأغلب أن يكون / s / كبعض اللغات المستخدمة فى كينيا، والفونيم الذى يليه فى الشيوع هو / f /[٣].

وقد أظهر التصنيف النوعى أيضاً أن كل لغة معروفة فيها فونيم أنفى واحد على الأقل، فإذا لم يكن فى بعض اللغات إلا فونيم أنفى واحد كان/ n /، فإذا كان فيها فونيمان أنفيان متقابلان كانا / m / و/ n /[٤].

وأظهر التصنيف النوعى أيضاً أن أغلب اللغات فيها على الأقل فونيم

---

(١) O'Grad et al (1996). P. 378.
(٢) Ibid.
(٣) O'Grady et al (1996). P. 377.
(٤) Ibid, P. 377.

مائع liquid واحد. وقليل منها يخلو من هذا النوع من الأصـوات كـبعض اللغات المستخدمة فى نيجيريا وإكوادور[١].

وتصنف اللغات على أساس من أنماط التركيب المقطعى المـسموح بها، فبعض اللغات تنحو نحو البساطة فى تراكيبها المقطعية كاللغة الفيجيـة Fijian مثلاً، وبعضها يتميز بدرجة عالية من التعقيد فـى البنيـة المقطعيـة كبعض اللغات القوقازية، وبينهما لغات تقترب من هذا النمط أو ذاك؛ من أجل ذلك اقترح بعض الباحثين أن ترتب اللغات على مقياس scale على أساس من درجة البساطة أو التعقيد فى بنيتها المقطعية، فتكون اللغة ذات الدرجة العالية من التعقيد فى جهة منه يتلوها أو يعلوها لغات أقل فأقل حتى نصل إلى اللغة ذات الدرجة العليا فى بساطة التركيب المقطعى فتكون فـى أقـصى الجهـة الأخرى من المقياس[٢].

وتصنف اللغات أيضًا على أساس ما تسمح به بنيتها المقطعيـة مـن عناقيد الصوامت فى بداية المقطع ونهايته، فبعض اللغات كالإنجليزية تـسمح بأن ينتهى المقطع بصوت أنفى يليه صوت انفجاري، كما فى hand مثلاً، لكن ليس من المسموح به أن يبدأ المقطع بهما، على حين أنـه فـى الـسواحيلية مسموح بأن يبدأ المقطع بصامت أنفى متلوّ بانفجارى كما فـى كلمـة ndizi (موز) لكنه ممتنع فى نهاية المقطع، لأن المقاطع فـى الـسواحيلية تنتهـى بالصوائت[٣]. وفى اللغة العربية لا يجوز أن يبدأ مقطع بصامتين متتـاليين، ولا بصائت، ولهذا حين تستعار كلمة أجنبية تبدأ بصامتين فإن العربى غيـر

---

(١) Ibid, P. 377.

(٢) Robins, R.H. (1978) P. 339 f.

(٣) Ibid, P. 379.

المدرب على النطق الأجنبى يضع بينهما صائتا، أو يجعل أحدهما نهاية مقطع والآخر بداية مقطع آخر[١] ومثل ذلك يحدث فى لغات أخرى، فحين استعارت الهاوائية Hawaiian عبارة Merry Christmas أصـــبحت Mele Kalikimaka لأن هذه اللغة تخلو من فونيمى / r / و/ s /[٢].

ثانيـاً: النظام الصـرفى:

يعدّ تصنيف اللغات على المستوى الصرفى أقدم أنـــواع التـــصنيف النوعى، وأقربها إلى الضبط والشمول[٣]. ولعلّ أهم من مهّد الطريق له فـــى القرن الثامن عشر الباحث الإنجليزى آدم سميث Adam Smith الذى سبق إلى التمييز بين اللغات التحليلية analytic واللغات التأليفية synthetic، وقد اعتمد عليه فى بداية القرن التاسع عشر الأخوان فريدريش وأوجست فيلهلم شليجل اللذان يرجع إليهما وضع علم اللغة التاريخى والمقارن فى ألمانيا وأوروبا[٤]، وقد استطاع أوجست فيلهلم شليجل أن يطور أفكار أخيه فريـــدريش فـــاقترح تقسيمًا ثلاثيا لأنماط التصنيف لا يزال مقبولاً حتى الآن[٥]:

أ – لغات تخلو من أية تراكيب وظيفية تعدّل جذور الكلمـــات، كالـــصينية التى لا تتغير فيها جذور الكلمات تغيرًا داخليًـــا، ولا تـــضاف إليهـــا الزوائد.

---

(١) أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوى (القاهرة ١٩٧٦) ص ١٥٨.
 – محمد على الخولى: الأصوات اللغوية (الرياض ١٩٨٧) ص ١٨٠ – ١٨١.
(٢) O'Grady et al (1996). P. 379.
(٣) Malmkjaer (1990). P. 272.
(٤) Dressler, W. (1980). P. 636.
 - Payne, J.R. (1990). P. 315.
(٥) Payne, J.R. (1990). P. 316.

ب - لغات تستخدم الزوائد بأن يضاف إلى الجذور الثابتة فيها زوائد ثابتة الصيغة كالباسك واللغات الهندية الأمريكية.

جـ - لغات متصرفة تعدّل فيها جذور الكلمات تعديلاً داخليًا سواء أضيفت إليها زوائد أم لم تضف كاللغات الهندية الأوروبية الكلاسيكية ومنها اليونانية واللاتينية والسنسكريتية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة كلغات المجموعة الرومانسية.

وقد أضاف همبولت من بعد إلى هذا التقسيم نمطًا رابعًا أطلق عليه اللغات الدمجية incorporating، وأطلق على الأنماط التى قدمها شليجل مصطلحاتها التى لا تزال تعرف بها إلى اليوم وهى[1]:

أ - اللغات العزلية Isolating

ب - اللغات اللصقية Agglutinating

ج - اللغات التصريفية Inflectional

د - اللغات الدمجية Incorporating

وعلى الرغم من أن هناك محاولات أخرى ظهرت لتصنيف اللغات على نحو يخالف فى قليل أو كثير تقسيم شليجل وهمبولت، وعلى الرغم من أن النحويين الجدد Neo-Grammarian لم يعتدوا بهذا النوع من التصنيف، ورأوا أن التصنيف العلمى الحق هو التصنيف الوراثى[2]، فإنّ هذا التصنيف

---

(١) Ibid, P. 318.

(٢) McCarthy, A.C. (1992): Current Morphology Routledg, London and New York. P. 166.
- Malmkjaer (1990). P. 373.

لا يزال أهم تصنيف، ولا تكاد تجد باحثًا يعرض للتصنيف النوعى من الناحية الصرفية إلا كانت له به عناية ودراية، ولهذا سوف أوجز القول فى كل قسم، ثم أشير إلى بعض المحاولات الأخرى.

١- **اللغات العزلية:** isolating (وقد يطلق عليها مصطلح اللغات التحليلية analytic أو الجذرية root languages)[١]:

وهى اللغات التى تتكون الكلمات فيها من مورفيم جذرى واحد له معنى meaning واحد أو وظيفة نحوية grammatical function ولا تدخلها الزوائد afixes، ولا تتغير الكلمات فيها بتغير الحالة الإعرابية، ولا تتغير صيغة الفعل عند التعبير عن الشخص أو العدد أو الزمن، وليس فيها نهايات إعرابية ending، وتعتمد فى بيان العلاقات النحوية فيها على الكلمات الوظيفية (وأكثرها أحادى المورفيم) وعلى ترتيب الكلمات فى التركيب[٢]. ومن هذا النوع من اللغات الصينية المندرينية، والكانتونية، والفيتنامية، والكمبودية، ولغات عديدة فى جنوب شرق آسيا[٣].

ويرى بعض الباحثين أن الإنجليزية أيضا من هذا النوع[٤]، وربما كانت الصينية أقربها جميعا إلى النمط النموذجى[٥].

---

(١) Crystal, D. (1989). P. 293.

(٢) O'Grady et al (1996). P. 380.
- Comrie, B. (1993). P. 451.
- West, F. (1975). P. 119.
- رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٣٣.

(٣) O'Grady et al (1996). P. 380.
- West, F. (1975). P. 119.

(٤) West, F. (1975). P. 119.

(٥) Ibid.

٢- اللغات اللصقية agglutinative / agglutinating :

وفيها تتكون الكلمات من جذور ثابتة وزوائد تلتصق بها، لكل منهـا معناها المحدد ووظيفتها الثابتة، ومن الممكن تقطيعها وفصل بعضـها عـن بعض، وهى تعتمد على هذه الزوائد الثابتة فى بيان العلاقات بين الكلمـات، وإن كان من الصعب التمييز فيهـا بـين الزوائـد الاشـتقاقية derivational والزوائد التصريفية inflectional، ومن الممكن فيهـا أن تلتـصق الزوائـد الاسمية أو الفعلية بأى جذر؛ لأن جذور الكلمات فيها لا تدل على نوع الكلمة ولا على فصيلتها الكبرى، وليس فيها جنـاس بـين الزوائـد أو تـرادف، والمطابقة النحوية فيها مفقودة، ونظام الجملة صارم، وتستخدم المصدر واسم الفاعل واسم المفعول بدلاً من الجمل الفرعية، وتكـاد تخلـو مـن حـروف الربط[1] ومن هذا النـوع مـن اللغـات التركيـة، والفنلنديـة، واليابانيـة، والسواحيلية، والهنجارية، والجورجية، والباسك، ولغة الإسكيمو[2].

٣- اللغات التصريفية inflecting / inflectional (ويطلق عليهـا أيـضا اللغات التأليفية synthetic واللغات الصهرية fusional):

ويعبّر فيها عن الوظائف والعلاقات النحوية بتعديل التركيب الداخلى للكلمات، واستخدام النهايات المتصرفة، وتشير فيها الزوائد إلى فصائل نحوية متعددة تزامنيا simultaneously، فقد تشير لاحقة واحدة فى وقت واحد إلـى

---

(١) McCarthy, A.C. (1992). P. 167.
- Mallinson & Blake (1981). P. 20.

(٢) Crystal, D. (1989). P. 451.
- Mallinson & Blake (1981). P. 20.
- Dressler, W. (1980). P. 318.
McCarthy, A.C. (1992). P. 167.

فصيلة الجنس، (مذكر، مؤنث، محايد) وإلى فصيلة العـدد (مفـرد، مثنــى، جمع)، وإلى الوظيفة النحوية (مسند إليه، مفعول به.... الـخ)، ولـيس مـن الممكن تقطيع الزوائد فى هذا النمط من اللغـات. وثمــة مجانـسة بينهــا، والمطابقة النحوية شائعة فى هذا النمط من اللغات، ونظام الجمل فيها حـرّ، والجمل الفرعية مستخدمة فيها[١]، وتعدّ اللاتينية واليونانية والعربية من هـذا النوع من اللغات[٢].

٤- اللغات الدمجية: polysynthetic / incorporating :

أضاف همبولت هذا النمط ليكون جامعًا للغات الهندية الأمريكية التى تتكون الكلمات فيها من سلسلة طويلة من الجذور والزوائد لتعبر غالبًا عـن المعانى التى تعبر عنها جملة كاملة ومن هذا النوع من اللغات لغة الإسكيمو التى تسمى Greenlandic Eskimo وبعض اللغات الأسترالية[٣].

على أن من اللغويين من لا يعتد بهذا النمط، ويعده داخلاً فــى نمــط اللغات اللصقية، بيد أن اللصق فيها بلغ أقصى مداه[٤]. وثمة بعد ذلك أمــران ينبغى اللفت إليهما:

---

(١) O'Grady et al (1996). P. 380.
- Comrie, B. (1993). P. 402.
- رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٣٣.

(٢) Crystal, D. (1989). P. 293.
- Comrie, B. (1993). P. 452.
- O'Grady et al (1996). P. 380.

(٣) Comrie, B. (1993). P. 452.
- Mallinson & Blake (1981). P. 21.
- Crystal, D. (1989). P. 293.

(٤) Mallinson & Blake (1981). P. 21.

أولهما: أن بعض الباحثين أطلق على هذه الأنماط أحكامًا قيمية فزعم أن النمط العزلى نمط بدائى Primitive، وأن النمط اللصقى أكثر تطورًا منه، أما النمط التصريفى فهو أكثر تطورًا منهما معًا، وواضح أنه زعم لا يثبت على التمحيص[١].

والثانى: أنه ليس فى العالم لغة تنتمى انتماءً كاملاً إلى أى نمط من هذه الأنماط ولكن التصنيف بنى على ما غلب عليها ولست تعدم أن تجد فى لغة واحدة أمثلة لهذه الأنماط جميعًا[٢] من أجل ذلك قدم بعض اللغويين اقتراحًا، بأن تصنف اللغات تصنيفًا مورفولوجيا من خلال نظام الرتبة rank system فترتب اللغات على أساسٍ من درجة اقترابها من النمط أو ابتعادها عنه[٣].

وجدير بالذكر أن جرينبرج قدم سنة ١٩٦٠ محاولة للتصنيف الموفولوجى إلى هذه الأنماط الأربعة على أساس إحصائى، فأخذ قطعة من نص من كل لغة وعدّ ما فيها من مورفيمات وكلمات، وانتهى إلى أنّ الأغلب فى اللغات العزلية أن تتكون الكلمة فيها من مورفيم واحد وأن اللغات اللصقية تستخدم مورفيمات مقيدة أكثر من استخدام اللغات التصريفية لها. والثمرة الواضحة لهذه المحاولة أن التصنيف قام على أساس إحصائى منضبط بعد أن كان قائمًا على التقدير الحدسى intuitive[٤].

وثمة محاولة أخرى لتصنيف اللغات من الوجهة الصرفية لا تزال –

---

(١) Ibid.

(٢) McCarthy, A.C. (1992). P.167.
- West, F. (1975). P. 122.

(٣) West, F. (1975). P. 122.

(٤) Mallinson & Blake (1981). P. 22.

على الرغم من قدمها – تلقى قبولاً من الباحثين حتى اليـوم هـى محاولـة فرانتس نيكولاوس فنكس Franz Nicolaus Finchs التى قدمها سـنة ١٩٠٩، وقد صنف اللغات فيها إلى ثمانية أنماط(١).

١– لغات معزولة الجذوع: Wurzelisolierend :

والكلمات فيها جامدة لا يمكن تقطيعها، وليس فيها مـا يـدل علـى انتمائها إلى فصيلة نحوية بعينها، ولا تقوم الزوائد فيها بوظيفـة اشـتقاقية، ويقوم ترتيب الكلمات فيها ببيان الوظائف النحوية، ومن هـذا الـنمط اللغـة الصينية.

٢– لغات معزولة الجذور stammisolierend:

وتقوم فيها الزوائد بوظيفة اشتقاقية مثل Fish-er، ولكنها زوائد ثابتة الصيغة لا تتصرف بتصرف المواقع النحوية، وهى تضاف إلى جذر ثابـت. واللغة السموانية مثل لهذا النوع من اللغات، وتعدّ الإنجليزية أقرب إلى هـذا النمط.

٣– لغات تفريعية subordinierend:

وتبدو فيها العلاقة واضحة بين الصيغة والوظيفة، إذ تتلاصق فيهـا الزوائد، وكل زائدة منها تقوم بوظيفة محددة، ومن الممكن فصلها عن غيرها، ومن هذا النوع اللغة التركية والهنجارية.

٤– لغات تتابعية anreihend :

ونظام ترتيب الكلمات فى جملها غير ثابت، وتقوم الزوائد فيها بتحديد

---

(١) Dressler, W. (1980). S. 637.

الفصائل النحوية، وبيان العلاقات بينها، ومن هذا النوع اللغة السواحيلية.

٥- لغات متصرفة الجذوع wurzelflektierend :

وفيها تتصرف الكلمات تصرفًا داخليًا للتعبير عن الفصائل أو الصيغ المختلفة، ومن هذا النوع اللغات السامية، ففى اللغة العربية مثلاً تتصرف الجذوع من خلال تغيير الحركات.

٦- لغات متصرفة الجذور Stammflektierend :

وفيها تذوب الزوائد الدالة على التصرف والاشتقاق بحيث لا يمكن أن نتبين حدودًا واضحة بين الصيغة form والوظيفة function. ويمكن القول أن أغلب اللغات الهندية الجرمانية من هذا النوع، ومنها اليونانية الحديثة، ويرى رمزى بعلبكى أن اللغة العربية من هذا النوع بما هو أغلب عليها من غيره[1].

٧- لغات متصرفة المجموعة الكلمية: gruppenflektierend :

وفيها تدخل الزوائد التصريفية Flexionsaffixe – خلافًا للغات متصرفة الجذور – كل كلمات المجموعة الكلمية Wortgruppe المترابطة. ومن هذا النمط اللغة الجورجية، ولغات قوقازية أخرى.

٨- لغات دمجية incorporierend :

وفيها تضم إلى الفعل عناصر نحوية كثيرة خاصة بالجملة بوصفها زوائد. ومن هذا النمط بعض لغات الإسكيمو. واللغة الفرنسية أقرب إلى هذا النمط ففيها يمكن أن تعد (pas) je ne l'entends كلمة واحدة سبق الفعل فيها بثلاث زوائد.

---

(١) رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٣٣.

وثمة طرائق أخرى للتصنيف النوعى منها طريقة طورهـا فـنكس أيضًا، وهى تقوم على تصنيف اللغات على أساس ما تخصصه من عناصـر لغوية للعناصر السياقية، فاللغة الصينية مثلاً تخصص لكل عنـصر سـياقى عنصرًا لغويًا، والتركية تخـصص عنـصرًا لغويًـا لعنـصرين سـياقيين، والإنجليزية تخصص لعناصر السياق عناصر لغوية أكثر منها عـددًا، فـإذا أردنا مثلاً أن نعبر عن سياق يتمثل فى مجئ رجل فالصينية تقول ما يماثـل هو آتٍ. والتركية تقول geliyor والإنجليزية تقول He is coming.

وبناء على هذا التفاوت تصنف اللغات ابتداءً من اللغة التى تخصص عنصرًا لغويًا واحدًا لأقل من عنصر سياقى واحد كاليونانية، وانتهاء باللغـة التى تخصص عنصرًا لغويًا واحدًا لعدد من العناصر السياقية كلغة الإسكيمو، وبينهما تقع الصينية[1].

ويرى رمزى بعلبكى أنّ العربية موقعها بحسب هذا التصنيف بين لغة الإسكيمو والصينية، تشاركها فى هذا الموقع التركية والجورجية[2].

ثالثاً: النظام النحـوى:

فى سنة ١٩٦٣ نشر جرينبرج – J. Greenberg بحثًا عنوانه:

Some Universals of Grammar with Particular Reference to the Order of Meaningful Elements.

استخلص فيه الخصائص النحوية المشتركة فى ثلاثين لغة من أسـر لغوية متنوعة فى أجزاء مختلفة من العالم من خلال تصنيف هذه اللغات إلى

---

(١) رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٣٥.

(٢) السابق نفسه.

أنماط تركيبية ومورفولوجية مختلفة وصولاً إلى نظرية مستقبلية للعالميات اللغوية[١]. ومنذ ذلك التاريخ وجه البحث التصنيفى اهتمامه الأساسى إلى التراكيب، وارتبط ارتباطًا وثيقًا بالعالميات[٢].

ولما كانت كثرة كاثرة من لغات العالم لا تزال تفتقر إلى الوصف المفصّل لأنظمتها النحوية فقد اقتصر أغلب الباحثين على دراسة نظام الجملة الخبرية البسيطة فى أكبر عدد من اللغات[٣].

وقد نظر بعض الباحثين فوجدوا أن لبعض اللغات نظامًا أقرب إلى الثبات يسود فيه ترتيب خاص للكلمات فى الجملة، وبعضها أقرب إلى التحرر، فلا تكاد تلتزم ترتيبًا خاصًا للكلمات فى الجمل، وبعضها وسط بين هذا وذاك، فصنفوا اللغات على هذا الأساس إلى ثلاثة أنماط[٤].

الأول: اللغات ذات الترتيب الصارم rigid word- order:

وهى لغات متطرفة فى اعتمادها على نظام الجملة، والاعتماد على أنواع خاصة من الكلمات بوصفها مؤشرات أو رواسم markers للعلاقات التركيبية، ومنها اللغات الصينية ولغات عديدة فى جنوب شرق آسيا[٥].

الثانى: اللغات ذات الترتيب الحرّ free word- order :

وهى لغات ليس لنظام الجملة فيها مغزى insignificant من الوجهة

---

(١) Smith, N. & Wilson, D.: (1979): Modern Linguistics. The Results of Chomsky's Revolution. Penguin Books. P. 203 f.

(٢) Malmkjaer (1990). P. 274.

(٣) O'Grady et al (1996). P.282.

(٤) Robins, R. H. (1978). P. 341.

(٥) Steele, S.: Word Order Variation: A Typological Study, in: Greenberg, J.H. (1978): Universals of Human Language Vol.4 Syntax. P. 605.

النحوية، وهى تعتمد فى بيان العلاقات التركيبية على فصائل مورفولوجية خاصة، ومنها اللاتينية واليونانية القديمة[1].

الثالث: اللغات ذات الترتيب الخليط mixed word- order :

وهى لغات تقع موقعًا وسطًا بين النمطين المتطرفين السابقين، ومنها الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وإن كانت الإنجليزية أقرب إلى الصينية، والفرنسية أقرب إليها من الألمانية[2].

على أن من الباحثين من رأى لكل لغة من اللغات نظامًا أساسيًا لترتيب الكلمات فى الجملة basic word- order هو الذى ينبغى أن يكون مناط التصنيف، وما يخرج عنه لأسباب أسلوبية يعدّ تنويعات لنمط واحد. وقد تبنى أغلب الباحثين هذا الرأى فأخذوا بما سبق أن أطلق عليه ياكوبسون سنة ١٩٦١ الحياد الأسلوبى stylistic neutrality بوصفه معيارًا منهجيًا للاختيار[3]، فكل الأنظمة الستة الممكنة رياضيًا mathematically للجملة الخبرية البسيطة المكونة من مسند إليه وفعل ومفعول به مستخدم فى اللغة الروسية، ومن الممكن أن يقال فيها ما يماثل الأمثلة الآتية إذا رمزنا للمسند إليه بالرمز (س) وللفعل بالرمز (ف) وللمفعول به بالرمز (م):

١- زيد ضرب عمرًا (س ف م).   ٢- زيد عمرًا ضرب (س م ف).

٣- ضرب زيد عمرًا (ف س م).   ٤- ضرب عمرًا زيد (ف م س).

٥- عمرًا زيد ضرب (م س ف).   ٦- عمرًا ضرب زيد (م ف س).

---

(١) Ibid, p. 605.
(٢) Ibid, p. 605.
(٣) Haarmann, H. (1976). S. 141.

لكن هناك نظامًا واحدًا من هذه الأنظمة يعدّ من الوجهة الأسلوبية محايدًا هو س ف م أما الأنظمة الأخرى فهى إمكانات تعبيرية تعتمد على سليقة ابن اللغة بوصفها تنوعات توكيدية مختلفة، ولا أدل على ذلك من أن النظام س ف م هو نظام الجملة الوحيد الذى يستخدمه الأطفال الروسيون، فإذا قيل لهم ما يماثل: (ماما تحب بابا) فهم الأطفال أنّ الأم تحب الأب، وإذا قيل لهم: (بابا تحب ماما) أساءوا فهم هذه الجملة وفهموها على أن الأب يحب الأم[١].

وعلى أساس من فكرة النظام المحايد أو غير الموسوم unmarked حاول الباحثون تصنيف اللغات على أساس من الأنماط الستة الممكنة لنظام ترتيب الكلمات فى الجملة الخبرية البسيطة التى تتكون من مسند إليه (= س) وفعل (= ف) ومفعول به (= م). فقد استطاعت سوزان ستيل susan steele سنة ١٩٧٨ أن تقدم دراسة تصنيفية إحصائية تعتمد على ثلاث وستين لغة انتهت فيها إلى الأنماط الثلاثة التى تعدّ أكثر شيوعًا هى[٢]:

١- س م ف. ٢- س ف م. ٣- ف س م.

ثم استطاع توملين Tomlin من بعد (سنة ١٩٨٦) أن يضع دراسة تعتمد على اثنتين وأربعمائة لغة[٣]. وقد أيدت دراسته النتيجية التى وصلت إليها ستيل، وذلك على النحو الآتى:

---

(١) Jakobson, R.: Implication of Language Universals for Linguistics, in: Greenberg, J. H. (1973): Universals of Language. The M.I.T. Press. P. 268 f.

(٢) Steele, S. (1978) P. 587.

(٣) Tomlin, R.S. (1986): Basic Word Order: Functional Principles. London. - Payne, J.R. (1990). P. 296 ff.

النمط الأول: س م ف (نحو: زيد عمرًا ضرب) وهو أكثر الأنماط شيوعًا فى لغات العالم، وقد استخدم فى الدراسة الأولى فى ثلاثين لغة، وفى الثانية فى مائة وثمانين بنسبة ٤٥٪ تقريبًا، ومنها التركيَّة واليابانية والصومالية.

النمط الثانى: س ف م (نحو: زيد ضرب عمرًا) ويلى النمط الأول فى الشيوع، وقد استخدم فى الدراسة الأولى فى عشرين لغة، وفى الثانية فى ثمان وستين ومائة بنسبة ٤٢٪ تقريبًا، ومنها الإنجليزية والألبانية والفيتنامية.

النمط الثالث: ف س م (نحو: ضرب زيد عمرًا) ويلى النمط الثانى فى الشيوع، وقد استخدم فى الدراسة الأولى فى عشر لغات، وفى الثانية فى سبع وثلاثين بنسبة ٩٪ تقريبًا، ومن هذه اللغات التاهيتية Tahitian[١]. وذكر بعض الباحثين أن من اللغات التى تتبع هذا النظام العربية والبربرية والمالاجازية[٢].

وواضح أن المسند إليه فى هذه الأنماط الثلاثة مقدم على المفعول به.

أما **النمط الرابع: ف م س** (نحو: ضرب عمرًا زيد) فلم يستخدم فى الدراسة الأولى إلا فى أربع لغات، ولم يستخدم في الدراسة الثانية إلا فى اثنتى عشرة لغة بنسبة ٣٪ تقريبًا.

أما **النمط الخامس: م ف س** (نحو: عمرًا ضرب زيد) فلم يستخدم

---

(١) Steele, S. (1978). P. 590.

(٢) المالاجازية لغة غرب إندونيسيا الذى كان يسمى من قبل مدغشقر. انظر:

- Malmkjaer (1990). P.274.
- Smith & Wilson (1979). P.204.
- Atkinson, M-Kilby, D. – Roca, I. (1988): Foundations of General Linguistics. London. P. 365.

في الدراسة الأولى، واستخدم في خمس لغات فحسب في الدراسة الثانية. بنسبة ١٪ تقريبًا.

ولم يرد **النمط السادس: م س ف** (نحو عمرًا زيد ضرب) في لغات أي من الدراستين. على أن من الباحثين من أشار إلى أن النمطين الخامس والسادس مستخدمان في حوض نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية[١].

ومن الباحثين من تجاوز البحث في نظام ترتيب الكلمات في الجملة الخبرية البسيطة إلى البحث في ترتيب العناصر في الضمائم الاسمية كالترتيب بين الصفة والموصوف، والمضاف والمضاف إليه، والجار والمجرور، والموصول وصلته، وقد صنفت اللغات على أساس الترتيب الغالب لعناصر الضمائم الاسمية على النحو الآتي:

١- الضميمة الوصفية:

ثمة ثلاثة أنماط: أحدها تسبق فيه الصفة الموصوف كما في الإنجليزية، واليونانية، والتركية، واليابانية[٢]. والثاني يسبق فيه الموصوف الصفة، كما في الولشية، والباسك، واللغات الكلتية والرومانية[٣] (ومنها اللغة العربية). والثالث تقع الصفة فيه مقدمة على الاسم ومؤخرة عنه كما في البولندية، والرومانية وغيرهما[٤] والتقديم والتأخير في لغات هذا النمط مرتبط بدلالة الصفة، أو طول الكلمة، أو بقيمة أسلوبية. ولا تزال القواعد التي تحكم

---

(١) O'Grady et al (1996). P. 383.
- Payne, J.R. (1990). P. 297.

(٢) Comrie, B. (1993). P. 453.

(٣) Ibid.

(٤) Haarmann, H. (1976). P. 142.

موقع الصفة فى اللغة الفرنسية مثلاً مثار جدل حتى الآن[1].

٢- ضميمة الإضافة:

ثمة ثلاثة أنماط: أحدها يسبق فيه المضاف إليه المضاف كما في التركية واليابانية، والثانى يسبق المضاف فيه المضاف إليه كما فى الولشية (والعربية)، والثالث يقع فيه المضاف إليه مقدمًا على المضاف ومؤخرًا عنه فى لغة واحدة كما فى الإنجليزية[2].

٣- الضميمة الجرية:

ثمة نمطان اثنان: أحدهما يسبق فيه المجرور حرف الجرّ، كما في اليابانية. والثانى يسبق فيه حرف الجرّ المجرور كما في الولشية[3] (والعربية).

٤- ضميمة الصلة:

ثمة ثلاثة أنماط: أحدها: يسبق فيه الاسم الموصول جملة الصلة كما فى الإنجليزية (والعربية)، والثانى: تسبق فيه جملة الصلة الموصول كما فى التركية. والثالث: تحيط فيه جملة الصلة بالموصول كما فى اللغة المسماة Barliara وهى إحدى لغات الفرع الماندى من لغات الكنغو - نيجر المستخدمة فى السنغال ومالى وبوركينا فاسو[4].

---

(١) Haarmann, H. (1976). P. 142.

(٢) Malmkjær (1990). P. 275.
- Comrie, B. (1993). P. 454.

(٣) Comrie, B. (1993). P. 454.

(٤) Comrie, B. (1989). P. 90, 145.
- Malmkjær (1990). P. 274.

ومما هو جدير بالذكر أن ثمة لغات ليس فيها تراكيب يمكن أن تسمى ضميمة صلة على الإطلاق[1].

وقد حاول بعض الباحثين أن يؤسس علاقة وثيقة بين مواقع هذه الضمائر وموقع الفعل في الجملة الخبرية البسيطة فلحظ أن اللغات التي يكون الفعل فيها في بداية الجملة الخبرية البسيطة تسبق فيها الصفة الموصوف، والمضاف المضاف إليه، والجار المجرور، والموصول الصلة. (وهذا ظاهر في العربية)، وكذلك الأفعال المساعدة ترد دائماً قبل الفعل الأساسي، لكن المقياس لم يستقم له في الجمل التي يرد فيها الفعل في الموقع الثاني أو الثالث[2].

وقد شملت محاولات الباحثين أيضاً تصنيف اللغات على أساس استخدامها للجمل ذات الخبر الاسمي مثل زيد طبيب فصنفت اللغات في نمطين: أحدهما تستخدم فيه اللغات فعلاً رابطاً Copula والثاني لا تستخدم فيه اللغات فعلاً رابطاً، فمن النمط الأول الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية واليونانية، ومن لغات النمط الثاني العربية[3].

ولعلي أشير هنا إلى أن جرينبرج خصص جزءاً منفرداً من الأجزاء الأربعة التي قام على نشرها بعنوان Universals of Human Language للنظام النحوي[4]، وفيه أبحاث قيمة عن التصنيف النوعي للغات من حيث

---

(١) Comrie, B. (1989). P. 144.

(٢) Comrie, B. (1993). P. 453.
- Smith & Wilson (1979). P. 204 f.

(٣) Haarmann, H. (1976). P. 144.

(٤) Greenberg, J.H. (ed.) 1978: Universals of Human Language. Vol. 4 Syntax.

استخدامها أساليب النفى، والاستفهام، والمطابقة، والتعريف، والصلة، والعلاقة بين الربط والتفريع فى الجمل، وصلة ذلك كله بالعالميات.

العالميـــات:

للبحث فى العالميات اللغوية linguistic universals أصول ضـــاربة بجذورها فى البحث الفلسفى الأوروبى فى القرن السادس عشر وما تلاه مـــن قرون. وكان الفلاسفة فى تلك القرون بين مذهبين: أحدهما عقلى يؤمن بقدرة فطرية قائمة فى العقل الإنسانى هى أساس اليقين فى المعرفة، ويتجافى عـــن انطباعات الحواس التى هى عرضة للخطأ والتحريف، وقوامـــه الاســـتدلال. والثانى تجريبى يقوم على الملاحظة المستمدة من انطباعات الحواس، ومـــا يجريه عليها العقل من عمليات التجريد والتعمـــيم، وقوامـــه الاســـتقراء[1]. والخلاف المشهورين بين الاتجاهين يدور حول الأفكـــار الفطريـــة innate، فلوك، وباركلي، وهيوم ينكرون وجود أية أفكار فطرية ماثلـــة فـــى العقـــل الإنسانى سابقة على التجربة، على حين يرى العقليون الديكارتيون أن ثمـــة أفكاراً فطرية معينة هى أساس أى يقين بالمعرفة الإنسانية. وليس هذا يعنـــى أنّ التجريبيين يسقطون دور العقل فى الإدراك واكتساب المعرفة، بل منـــاط الاختلاف بينهم وبين العقليين هو المدى الذى يقوم فيه العقل بدور أساسى فى هذا المجال[2].

وقد كان للإيمان بسلطان العقل، وتصنيفات العلوم التجريبية، والتقدير

---

(١) ر. هـ روبنز (١٩٩٧) موجز تاريخ علم اللغة (فـــى الغـــرب). ترجمـــة: أحمـــد عوض. عالم المعرفة ٢٢٧ الكويت ص ١٩١.
- Fromkin & Rodman (1998). P. 19.

(٢) ر. هـ. روبنز (١٩٩٧) ص ١٩٢.
- Langacker, R.W. (1973): Language and its Structure. USA. P. 242.

الكبير لأنظمة الرموز الرياضية أثر فى التفكير فى ابتداع لغة عالمية تخلو من عيوب اللغات البشرية، وما فيها من شذوذ واضطراب وتعقيد بوضع رموز تبتدع لهذا الغرض، وتُعطى قيما نطقية، كما فعل مرسن فى فرنسا، وولكنز فى إنجلترا فى القرن السابع عشر، وكما فعل زامنهوف الذى وضع الإسبرانتو فى أواخر القرن التاسع عشر (سنة ١٨٨٧)(١).

لقد أكدّ التجريبيون على الاختلافات الفردية بين اللغات، وعلى الحاجة إلى تصنيفها فى ضوء الملاحظة، فى حين ظل العقليون يبحثون عن الجوامع المشتركة بين اللغات التى تكمن تحت سطح الاختلافات الظاهرة(٢)، وامتدادًا لهؤلاء وهؤلاء ظهر اتجاهان بارزان فى دراسة العالميات اللغوية أحدهما عقلى يمثله تشومسكى ومن نهج نهجه، والآخر تجريبى يمثله جرينبرج ومن سار على هديه.

اتجاه تشومسكى:

ظهر الاهتمام بالعالميات عند تشكومسكى فى أبحاثه المبكرة، فقد أشار فى المبانى التركيبية Syntactic Structures إلى ما أسماه شرط العموم condition of generality الذى يجب أن تستوفيه النظرية، وقال: إننا نطالب بأن يكون نحو اللغة مطابقاً لنظرية محددة للتركيب اللغوى تتحدد فيها مصطلحات من مثل الفونيم phoneme والضميمة phrase بمعزل عن لغة بعينها(٣).

---

(١) ر. هـ. روبنز (١٩٩٧) ص ١٩٥ فما بعدها.
(٢) ر. هـ. روبنز (١٩٩٧)، ص ٢١١.
(٣) Chomsky, N. (1957): Syntactic Structure. The Hague. P. 50.

وعلى الرغم من أن الرجل فى مواضع عديدة لم يدع مجالاً للشك فى أن القواعد اللغوية linguistic rules عنده ذات صبغة عالمية، فهو لم يستخدم مصطلح "عالمى universal" حتى حوالى سنة ١٩٦٢. ولعلّ السبب فى ذلـك راجع إلى أن المناخ العلمى فى العقد الخامس من القرن العشرين كان يرتاب فى أية تعميمات generalizations غير استقرائية non-indicative فجعله ذلك على حذر من استخدام مصطلح قد يوصم وقتها بأنه "انفعالى"، حتى إذا كانت سنة ١٩٦٥ عمد إلى التصريح فى كتابه "أوجه النظريـة التركيبيـة" بـأن «المهمة الأساسية للنظرية النحوية ينبغى أن تكون تطوير وصف للعالميـات اللغوية»(١)، لكنه فيما يبدو حتى ذلك الحين لم يكن يـرى أن اللغـات كلهـا تستخدم فصائل وقواعد واحدة، لكنها تختار من المخزون العالمى universal inventory ويبدو أن تشومسكى نظر فى ذلك إلى نظرية السمات المميـزة distinctive features theory عند ياكوبسون الذى أورد فيهـا قائمـة بنحـو عشرين سمة زعم أنّ النظام الفونولوجى لأية لغة لا يخرج عن سمة منهـا، لكن ليس من اللازم أن تستخدم لغة واحدة كل السمات التـى فـى القائمـة، فالإنجليزية مثلاً لا تستعمل السمة + مغلق checked(٢).

ثم قدم تشومسكى من بعد ما يبدو أنه مفهوم أكثر تحديداً للعالميـات، فذكر أن العالميات الحقة حتمية بيولوجية biological necessity، وهى من ثم فطرية innate، والكشف عنها يعمق فهمنا للغة، ويمكننا من فهم القدرة العقلية البشرية على إبداع اللغة، إذا إنها كامنة وراء الاختلافات الظاهرة بين اللغات

---

(١) Chomsky, N. (1995): Aspects of the Theory of Syntax. Combridge, Mass.: M.I.T. Press P. 27 f.

(٢) Comrie, B. (1989). P. 15.

الفردية، مؤسسة ما يسمى النحو العالمى universal grammar[١]، فاللغة عنده ظاهرة عقلية أكثر منها ظاهرة اجتماعية[٢].

لقد رأى تشومسكى فى القول بالفطرة innateness تفسيراً للعالميات اللغوية على أساس أن ما يتعرض له الطفل من مادة لغوية فى سنى عمره الأولى هزيل، لا يكفى بحال لتفسير كيفية اكتسابه اللغة الأولى فى أقصر وقت، وبأيسر مجهود، فما ينتجه الطفل غير محدود، وما يتلقاه ناقص ومحدود، وهو ما أطلق عليه فقر المثير poverty of stimulus[٣]، فالأطفال يستخدمون اللغة استخداما صحيحاً ومبتكراً، ولا يقتصر إنتاجهم للغة على ما سمعوه منها من قبل، بل يبدعون جملاً لم يسمعوها، ولو أنهم لم يعتمدوا على الفطرة فى إنتاجهم اللغوى، وكانوا كما قيل كاللوح الأملس الذى يعكس ما يقع عليه، لما اقتصر إنتاجهم على الجمل الصحيحة؛ لأنه ليس فى الكلام الذى يسمعونه من المحيطين بهم دليل على أنَّ جملاً ما لا يصح استخدامها[٤]. وصحيح أنهم يخطئون فى مرحلة الاكتساب الأولى لكنهم يصوبون أخطاءهم بأنفسهم من دون التفات إلى ما يقوم به الوالدان من تصويب أو تخطئة؛ لأنهم يجردون لأنفسهم القواعد التى تحكم الاستعمال الصحيح، ولذلك تجدهم

---

(١) Chomsky, N. & Lasnik, H. (1977): Filters and Control. L 18, P. 437.
- Chomsky, N. (1976): Reflections on language. London. P. 34.
- Newmeyer, F. J. (1986): Linguistic Theory in America. Acdemic Press, INC. Orlando, Florida. P. 72.

(٢) Chomsky, N. (1968) Language and Mind New York: Harcourt. P. 135.

(٣) ماكلافن، بارى: نظرت تعلم اللغة الثانية. ترجمة: عبد الرحمن عبد العزيز العبدان (الرياض ١٩٩٦) ص ١٦٩.
- Newmeyer, F. J. (1986). P. 72.

(٤) تشومسكى، نعام: اللغة ومشكلات المعرفة. ترجمة حمزة بن قبلان المزينى. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء – المغرب ١٩٩٠ ص ٣٣.
- Comrie, B. (1989). P. 130.

لا ينتجون جملاً تصادم أسس النحو العالمى[1]. وأغلب هـذه القواعـد مـن التجريد بحيث لا يمكن للطفل أن يتعلمها من أبويه، أو من البيئة المحيطة به، على فرض أن فى البيئة المحيطة به وعيًا بها[2].

أسس النحو العالمى هى عند التشومسكيين إذن فطرة فطـر النـاس جميعا عليها على نحو شامل ومتساوٍ منذ مولدهم، تقررها عوامل بيولوجيـة تختص بتعلم اللغات، ويتحكم فيها فى المخ البشرى جهاز أشبه شئ بالصندوق الأسود، يطلق عليه تشومسكى جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition Device ويرمز له اختصارًا بـ LAD[3] ويشبه كوك قـدرة الطفـل علـى اكتساب اللغة بقدرة البرعم على أن يصبح زهرة، فالبرعم لا يتعلم ذلك؛ بـل نموّه تحقيق لإمكاناته الوراثية، تعين عليه عوامل خارجية كالماء، والتربـة، والهواء تمثل ما يمكن أن يسمى "قوى الإطلاق"[4].

فالأسس اللغوية الموجودة فى ذهن الطفل تقوم بإظهار نفـسها وفقـاً لقدرة الطفل على معالجة المعلومات، ووفقاً لعوامل النضج الأخرى، فالطفـل لا يكشف عن جميع ما فى ذهنه من أسس لغوية دفعة واحدة، بل يتدرج وفقاً

---

(١) تشومسكى، نعام: اللغة ومشكلات المعرفة ص ٣٣.
- Cook, V.J. (1988): Chomsky's Universal Grammar: An Introduction. Oxford: Basil Blackwell. P. 64f.

(٢) Cook, V.J. (1988). P. 61.

(٣) Chomsky, N. (1975): Reflections on Language New York: Pantheon. P.8, 14.
- براون هـ. دوجلاس: أسس تعلم اللغة وتعليمها. ترجمة عبده الراجحى وعلـى على أحمد شعبان (بيروت ١٩٩٤) ص ٣٨.
- عبد العزيز بن إبراهيم العصيلى: النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية (الرياض ١٩٩٩) ص ٨٣.

(٤) ماكلافن، ب (١٩٩٦) ص ١٤٩.

لمراحل النضج المختلفة التى تمدّنا كل مرحلة منها بجانب من إدراكه لبعض الأسس اللغوية، فالجملة الموصولة مثلاً تظهر فى لغة الطفل فى مرحلة تالية لظهور التراكيب اللغوية ذات الكلمة الواحدة، والجملة الواحدة[١].

ولا ينكر تشومسكى وأتباعه أثر البيئة فى اكتساب اللغة، فالمُدخَل input اللغوى الصحيح الذى يأتى منها فى الوقت المناسب أشبه ما يكون بالضغط على أزرار تشغيل جهاز اكتساب اللغة[٢]. ولا تعارض عند هؤلاء بين اكتساب الطفل لغة بعينها وأسس النحو العالمى؛ لأن الطفل يضع لنفسه فروضاً عن تلك اللغة يختبرها فى إطار الأسس العامة للنحو العالمى، ومن ثم فإن الطفلين اللذين يكتسب كل منهما لغة مختلفة عن اللغة التى يكتسبها نظيره يطبقان الأسس العالمية نفسها تطبيقين مختلفين بناءً على استجابة كل منهما لبيئة لغوية مخالفة للأخرى[٣].

ومن اللافت للنظر أن نظرية تشومسكى فى النحو العالمى تنحصر فى اكتساب الطفل اللغة الأولى فحسب، ويبدو أن الرجل يرى أن تعلم اللغة الثانية تحكمه ملكات عقلية أخرى. على أن هذا الأمر قد تغير فى السنوات الأخيرة؛ إذ حاول بعض الباحثين تطبيق مبادئ اكتساب اللغة الأولى على الثانية، وانتهوا إلى أنّ أسس الاكتساب واحدة[٤] ومن ثمّ أصبحت نظرية النحو العالمى مذهباً بديلاً لمذهب التحليل التقابلى[٥].

---

(١) السابق، ص ١٥٠.
(٢) السابق نفسه، ص ١٥٤.
(٣) براون، هـ. د (١٩٩٤) ص ٣٩ – ٤٠.
– ماكلافن، ب (١٩٩٦) ص ١٥٥.
(٤) ماكلافن، ب (١٩٩٦) ص ١٤٧.
(٥) السابق، ص ١٦٣.

ويرى تشومسكى وأصحابه أن الوصول إلى أسس النحو العـالمى المركوزة فى ذهن البشر يكفى فيه تحليل عميق ومفصّل للغة بشرية واحدة كالإنجليزية مثلاً، أو عدد قليل من اللغات، ولا يرى تشومسكي فـى ذلـك تناقضاً بين الأسس العالمية واللغة الواحدة؛ لأن الإنجليزية عنده لغة بشرية، وهى لذلك تحتوى على القواعد الكلية التى تحتوى عليها لغات البشر جميعاً، وفيها فى الوقت نفسه سمات فردية تجعل منها لغة إنجليزيـة علـى وجـه الخصوص[١]. من ثم كان نحو أية لغة نحوين – نحواً جوهريـاً أو نوويـا core grammar فيه أسس النحو العالمى الموجودة فى لغات البشر جميعـاً، ونحوا عرضيا أو هامشياً peripheral يحتوى على السمات الخاصة لكل لغة على حدة، وهى السمات التى تجعلها لغة مختلفة عن غيرها من اللغات[٢]. والنوع الأول غير موسوم unmarked أما الثانى فموسوم marked. من ثـمّ أصبحت نظرية الوسم اللغوى قرينة لنظرية النحو العالمى عند تشومـسكي وأتباعه[٣].

لقـد صنف كـاتز وبوسـتال سـنة ١٩٦٤[٤] وتشومـسكى سـنة

---

(١) Comrie, B. (1989). P. 4.
- Malmkjaer (1991). P. 278.

(٢) انظر فى ذلك الفصل الأول من كتاب
Radford, A. (1988): Transformational Grammar: A First Course. CUP. Cambridge.

(٣) Chomsky, N. (1981): Lectures on Governme Binding. Dordrecht: Foris. P. 18.
- Newmeyer, F.J. (1986). P. 200.
- Crystal, D. (1989). P. 85.

(٤) Katz, J. & Postal, P. (1964): An Integrated Theory of Linguistic Descriptions. Cambridge, MA: M.I.T. Press. P. 160 f.

١٩٦٥[١] العالميات فى نمطين اثنين: أحدهما عالميات مادية substantive وهى العناصر الأولية primitive elements التى تكون أساساً لتحليل المادة اللغوية، ففى الفنولوجيا تعدّ السمات الفارقة distinctive features التى حددها ياكوبسون بعدد يتراوح بين خمس عشرة وعشرين سمة فارقة مثالاً واضحاً لهذا النوع من العالميات، حيث إنها تمثل مجموعة كلية تختار منها كل لغة فردية، أى أنها تمثل المدى الكلى لكل اللغات الطبيعية. أما العناصر التى تقع خارج هذا المدى فهى تعد ضروباً من المحال Impossibilities. والثانى: عالميات شكلية، وهى عالميات تتصل بالنظام النحوى، وتتمثل فى القيود الشكلية التى تحكم هذا النظام، وهذا النوع من العالميات أشدّ تجريدًا من سابقه؛ إذ هو يحدد الشروط الشكلية التى ينبغى على كل وصف نحوى أن يأخذ بها، والضوابط التى تتفاعل بها القواعد بعضها مع بعض، وتعدّ فرضيات كاتز - بوستال مثالاً للعالميات الشكلية.

وعلى الرغم من أن اتجاه تشومسكى فى بحث العالميات اللغوية يمثل موقفاً متماسكاً ليس من السهل تجاهله كما يقول كومرى[٢]، فإنه لم يسلم من النقد. وأهم ما أخذه عليه اللغويون، وأكثرهم من المنتمين إلى اتجاه جرينبرج[٣] ما يأتى:

١- من العجيب أن يؤدى تفسير ملاحظة بسيطة عن تعلم الطفل لغته

---

(١) Chomsky, N. (1965). P. 27 ff.
- Comrie, B. (1989). P. 15 f.
- Newmeyer, F.J. (1986). P. 72.
- Allen, J.P.B. & Buren, P.V. (1971): Chomsky: Selected Readings. Oxford University Press. P. 139 ff.

(٢) Comrie, B. (1989). P.2.

(٣) Ibid.

الأولى فى وقت قصير بسهولة ويسر إلى الزعم القوى بأنَّ اللغة كلها فطرية، إذ يؤدى هذا إلى افتراض أن الطفل المولود فى جماعة لغوية بعينها مبرمج فعلاً لاكتساب لغة جماعته اللغوية برمجة يفترض أنه ورثها عن أبويه. وهذا تبسيط واضح لمشكلات قدرات التعلم learnabilities تدل الملاحظة على أنه لا يثبت على التمحيص؛ فهو يتضمن أن الطفل لا يستطيع أن يتعلم – أو على الأقل لا يستطيع أن يتعلم فى سرعة وسهولة – إلا لغة أبوية دون معول كبير على لغة الجماعة اللغوية المحيطة به. ومن المؤكد أن الطفل يكتسب بسهولة قصوى اللغة التى تتحدثها الجماعة اللغوية التى ينمو بينها، أيًّا كانت، من دون نظر إلى لغة أبويه أو أصلهما البعيد. ومن الممكن أن نلحظ ذلك بوضوح فى الأطفال الذين ينشأون بين متكلمين بلغة مختلفة عن لغة أبويهم. وهذا مؤسس على قاعدة من الملاحظة التجريبية لا على مجرد افتراض ليس من الميسور التسليم به[١].

وليس من الميسور أيضاً التسليم بأن أسس النحو العالمى أسس فطرية مثلى تمكن الطفل من اكتساب أية لغة يتعرض لها دون تفضيل لغة على لغة، فمعنى ذلك أنها واحدة عند الأطفال جميعًا، فيجب إذن أن يكونوا جميعاً محايدين فيما يتصل بالاختلاف بين اللغات، أو بعبارة أخرى يجب أن يكونوا هم أنفسهم عالميين universals[٢].

وإذا كانت العالميات اللغوية مساوية للقدرة الفطرية المجردة، وكان من المستطاع أن نجد فى الفطرة تفسيراً للعالميات اللغوية، فمن ذا يفسر لنا

(١) Comrie, B. (1989), p. 3 f.
(٢) Ibid, P. 4.

هذه القدرة الفطرية[1]؟ ثم إن الزعم بأن العالميات اللغوية حتمية بيولوجية، وأنَّ ثمة جهازًا فى المخ البشرى لاكتساب اللغة، لم يثبته البحث البيولوجى حتى الآن، ولا علم لنا بطبيعة هذا الجهاز أو طريقة عمله، وهو من ثمَّ محض افتراض يراد التسليم به ليمكن التسليم بما ينبنى عليه.

٢- القول بأن الوصول إلى أسس النحو العالمى المركوزة فى ذهن البشر يكفى فيه تحليل لغة واحدة كالإنجليزية تحليلاً عميقاً مفصلاً لا يمكن التسليم به؛ لأنه سيؤدى حتما إلى إنتاج أسس خاطئة أو مشوهة distorted، ففى الإنجليزية مثلاً سمات كثيرة ليست موجودة فى عدد من اللغات مثل استعمال النهاية التصريفية inflectional ending فى الزمن الحاضر كما فى نحو She runs أو غياب التمييز بين المفرد المخاطب وجمع المخاطبين (الفرنسية مثلاً فيها tu / vous)[2]، (والعربية فيها أنت وأنتم).

ولو كانت اللغة متجانسة تجانس الحديد الخام لكفى فيها كما يكفى فيه الاقتصار على عينة واحدة من الممكن التسليم بأنها تمثل خواص الحديد فى العالم، لكنها متنوعة تنوع السلوك الإنسانى تحت الضغط العصبى؛ إذ لا يمكن الاقتصار فيه على عينة واحدة يمكن القول إنها تمثل السلوك الإنسانى الواقع تحت الضغط العصبى فى العالم كله[3]. والمعرف أن اللغات ليست قياسية، ويكثر فيها الشذوذ، ثم إن عزل الأسس العالمية التى تشترك فيها لغات العالم جميعا عن السمات الفردية التى تميز لغة عن لغة ليس من

---

(١) Ibid, P.4.

(٢) Crystal, D. (1989). P. 85

(٣) Comrie, B. (1989). P. 6.

المستطاع الوصول إليه من خلال لغة واحدة أو عدد قليل من اللغات[1].

وثمة شواهد لا يمكن إغفالها على أنَّ البحث فى العالميات من خلال أكبر قدر ممكن من اللغات يعد أمرًا لازماً للوصول إلى تأسيس عالمية لغوية يكتب لها القبول، فمن المعروف أن العالميات الاستلزامية implicational universals مثلاً لا يمكن بحال الوصول إليها من خلال لغة واحدة. وقد أورد كومرى لذلك مثلاً العالمية الاستلزامية الخاصة بالضمائر المنعكسة reflexive pronouns التى تقول: "إذا كان فى لغة ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم والمخاطب فإن فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغائب" فإذا نظرنا فى الإنجليزية وجدنا فيها هذه الظاهرة، إذ يقال فيها مثلاً: I hit myself كما يقال: He hit himself، لكن ليس فى نحوها ما يدل على أن هذه عالمية استلزامية، فإذا اقتصرنا على الإنجليزية فربما وصلنا إلى عالمية تقول: إن كل لغة فيها ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم والمخاطب والغائب، وليس هذا صحيحا، فالفرنسية مثلاً فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغائب، ولكن ليس فيها مثل ذلك للمتكلم والمخاطب. والأنجلوساكسونية ليس فيها ضمائر منعكسة خاصة بأى من المتكلم والمخاطب والغائب، فيقال فيها ما يماثل: هو ضربه، حيث يجوز أن يكون الضمير فى ضربه عائداً على غير المبتدأ، أو منعكساً عليه، (وكذلك العربية) [2].

وبهذا يتضح أن الاقتصار على لغة واحدة فى صياغة عالمية يفضى بها إلى أن تكون عالمية مفترضة putative كثيراً ما تتعرض للبطلان إذا

---

(١) Crystal, D. (1989). P. 85

(٢) انظر: محمود أحمد نحلة: الضمائر المنعكسة فى اللغة العربية (بيروت ١٩٩٠) ص ١٢ فما بعدها.

عرضت على مادة لغوية مأخوذة من أكبر عدد ممكن من اللغات[١]. ويقـــال: أكبر عدد ممكن من اللغات لأنه ليس فى مقدور الباحثين الآن البحـــث فـــى لغات العالم جميعا لسببين:

الأول: أن كثيرا من لغات العالم لم تسجل حتى الآن أو لـــم تـــسجل بتفاصيل نافعة للبحث فى هذا المجال.

والثانى: أن العدد المشهور من لغات العالم نحو أربعة آلاف لغة، فإذا انتظرنا بحثا مفصلا لكل لغة منها قبل أن نبدأ البحث فى العالميات فلن ننجز هذه المهمة أبدا[٢]. من ثم كان من اللازم اختيار عينة ممثلة للغات العـــالم لا تغلب عليها السمات الوراثية ولا الإقليمية ولا التركيبية، بل تكون على نحـــو متوازن فى هذه الأمور جميعاً[٣].

٣- هاجم باخ فى بحث قدمه إلى مؤتمر العالميات اللغوية الذى انعقد فى أوستن – تكساس سنة ١٩٦٧، ونشر سنة ١٩٦٨ القول بأن كل لغة تختار من المخزون العالمى من العناصر اللغوية واصفا إياه بأنه زعم فارغ؛ لأنـــه ليس فى مقدورنا أن نضع قائمة بكل العناصر التى تستخدم فى كـــل اللغـــات مكونة المخزون العالمى ليمكن القول بعد ذلك إن هذه اللغة أو تلك تختار منها قائمة جزئية[٤].

لقد اضطر تشومسكى تحت ضغط ما وجه إليه من نقدٍ أن يعيد النظر

---

(١) Comrie, B. (1989). P. 7.

(٢) Ibid, P. 9.

(٣) Comrie, B. (1989). P. 10 ff.

(٤) Bach, E.Noun and Noun Phrases, in: Bach, E. & Harms, R.T (1968): Universals in Linguistic Theory. USA. P. 113.

منذ عام ١٩٨١ فى نظريته عن النحو العالمى فعدل منها لتشمل البارامترات parameters التى تحتوى على متغيرات ذات قيمٌ values خاصـــة بـــالفروق الملحوظة بين اللغات(١).

على أن اتجاه تشكومسكى قد حفز بعض الباحثين إلى دراسة علاقـــة جهاز الإدراك والتلقى عند البشر بالعالميات، وانتهى برلين وكاى سنة ١٩٦٩ إلى أنه إذا كان فى لغة نظام للألوان فإنها لابد أن تميز على الأقل بين لونين: الأبيض والأسود، فإذا كان فيها ثلاثة ألوان فالثالث لابدَّ أن يكون الأحمر، فإذا كان فيها أربعة فالرابع إمّا الأخضر وإما الأصفر، فإذا كـــان فيهـــا خمـــسة فالخامس سوف يكون واحداً من الأخضر أو الأصفر بعد اختيار الرابع، فإذا كان الرابع الأخضر كان الخامس الأصفر أو العكس، وإذا كان فيهـــا ســـتة ألوان فالسادس سوف يكون الأزرق، وإذا كان فيها سبعة ألوان فالسابع سوف يكون البنى. وقد اعتمدوا فى ذلك على التـــشريح المحايـــد neutral anatomy لرؤية اللون عند البشر(٢).

اتجاه جرينبرج:

يرى أغلب اللغويين أن البحث فى العالميات اللغويـــة اســـتمدّ قوتـــه الدافعة من إنجازات جوزيف جرينبرج فى العقد السادس من القرن العشرين فقد استطاع الرجل أن يثير الاهتمام بدراسة العالميـــات اللغويـــة بوصـــفها مشروعًا project لا مجرد نتاج هامشى قائم على المـــصادفة(٣) وأن يـــربط ربطا قوياً بين التصنيف النوعى للغات والعالميات، وأن يضع أهـــم الأســـس

---

(١) Payne, J.R. (1990). P. 308.

(٢) Hawkins, J. A. (ed.) 1988: Explaining Language Universals. Blackwell. Oxford. P. 15.

(٣) Hopper, P. J. (1992). P. 137.

المنهجية التى بنى عليها باحثون كثيرون. وكانت بداية ذلك مؤتمر العالميات اللغوية الذى انعقد فى المدة من الثالث عشر إلى الخامس عشر من أبريل سنة ١٩٦١ فى دوبس فرى Dobbs Ferry بنيويورك، وشارك فيه جرينبـــرج[١]، وقد تمخض المؤتمر عن عدد من الأبحاث المهمة فى هذا المجـــال لبـــاحثين كبار مثل ياكوبسون، وأولمان، وفاينريش، وغيرهم. وقد قام جرينبرج علـــى نشرها سنة ١٩٦٣ فى كتاب عنوانه Universals of Language. وتوالت بعد ذلك أبحاث جرينبرج وصحبة لتعمق اتجاهاً يختلف اختلافاً بينا عـــن اتجـــاه تشومسكى فى منهج البحث ومنطلقاته، وإن لم يختلف الهدف الذى يسعى إليه كل منهما، ولا يزال لكل اتجاه أنصاره ومؤيدوه من الباحثين المعاصرين.

وليس من الميسور أن نتتبع كل ما جاء به جرينبرج وأصحابه فـــى هذا المجال، ويكفينا هنا أن نشير إلى أمرين على درجة بالغة من الأهمية:

الأول: يتصل بما صاغه جرينبرج سنة ١٩٦٦ من عالميات بلغـــت خمساً وأربعين[٢]، لا يستطيع باحث فى العالميـــات اللغويـــة أن يغفلهـــا، أو يغضى عنها، وقد استخلصها جرينبرج على أساس تجريبـــى مـــن تـــصنيفه النوعى للظواهر التركيبية والمورفولوجية فى ثلاثين لغة منها سبع أوروبية، وسبع أفريقية، وتسع آسيوية، واثنتان محيطيتان Oceanian وخمس أمريكية هندية[٣]. وليس من بينها العربية.

---

(١) Lehmann, W.P.: The Great Underlying Ground-Plans, in: Lehmann, W.P. (ed.): Syntactic Typology. Studies in the Phenomenology of Language. The Harvester Press. P. 43.

(٢) Greenberg, J. H.: Some Universals of Grammar with Particular Referenece to the Order of Meaningful Elements, in Greenberg, J.H. (ed.) 1973. P. 76 – 96.

(٣) Ibid, P. 74 f.

والثانى: يتصل بأنواع العالميات عنده، وصلة بعض منهــا بنظريــة الوسم، وبما يسمى الترسيس المقارن.

قواعد العالميات:

أ – عالميات النظام الأساسى للجملة word-order:

١- النظام السائد فى الجملة الخبرية التى تتكون من مسند إليه (س) وفعــل (ف) ومفعول به (م) أن يسبق المسند إليه المفعول به.

٢- الأغلب فى اللغات التى يسبق فيها الجــار المجــرور[1] preposition أن يسبق فيها المضاف المضاف إليه، وفى اللغات التى يلــى فيهــا الجــار المجرور postposition أن يلى المضاف المضاف إليه.

٣- اللغات التى يسود فيها النظام ف س م يسبق الجار فيها دائماً المجــرور Preposition.

٤- اللغات التى يغلب عليها النظام س م ف يلــى الجــار فيهــا المجــرور postposition.

---

(١) شاع فى اللغة العربية ترجمة "Prepositions" بحروف الجر، وهى ترجمة مشكلة، لأن مفهوم الجر فى العربية لا ينطبق على المصطلح الإنجليزى، ولأن بعضاً منها قد لا يعادله فى العربية "حرف"، – بل "ظرف" فضلاً عن أن بعضا منها قد يــأتى بعد ما يدخل عليه فيطلقون عليه عندئذ مصطلح "postposition". وربما شــاعت هذه الترجمة بما غلب من مقابلها فى اللغة العربية، ولتقارب وظيفتها فى اللغتــين بدخولها على الأسماء والضمائر ونحوها لتربطها نحوياً بكلمات أخرى، ولأن حرف الجر فى العربية لا يأتى بعد المجرور. ولما كان إطلاق مصطلح آخر أدل عليهــا مثل كلمات الربط قد يضلل القارئ العربى فقد آثرت الإبقاء على مــا شــاع مــن ترجمته مفضلاً أحياناً استخدام مصطلح الجار ليدخل فيه الظروف، على الــراجح عند نحاة العربية من عمل المضاف فى المضاف إليه.

٥- إذا كان النظام السائد فى لغة هو: **س م ف**، والمضاف إليه فيهـــا يلـــى المضاف فإن الصفة فيها تلى الموصوف أيضاً.

٦- كل اللغات التى يسود فيها النظام **ف س م** يكون فيها النظام س ف م، أو هو وحده النظام البديل.

٧- إذا ساد فى لغة النظام **س م ف** فليس فيها نظام أساسى بديل، فإن وجد لم يكن إلا النظام **م س ف**، وعندئذ تسبق فيـــه كـــل المحـــددات الظرفيـــة adverbial modifiers الفعل.

ب – العالميات التركيبية syntactic:

١- حين يتميز السؤال الذى إجابته "نعم" أو "لا" (= الاستفهام التـــصديقى) عن نظيره المؤكد بأنماط تنغيمية فإن السمات التنغيمية لكل نمط مـــن هذه الأنماط تحسب من نهاية الجملة لا من بدايتها.

٢- إذا كان مُوقع كلمات الاستفهام أو الزوائد محددًا بالنظر إلـــى الجملـــة كلها، فإذا كان موقعها أول الجملة كانت موجودة فى اللغات التى يسبق فيها الجار المجرور، وإن كانت فى آخر الجملة كانت موجـــودة فـــى اللغات التى يلى فيها الجار المجرور.

٣- إذا كان موقع كلمات الاستفهام أو الزوائد محدداً بالنسبة لكلمة بعينهـــا فى الجملة فإنها فى الأغلب تلى هذه الكلمة، ومثل هذه الكلمات لا تقـــع فى اللغات التى يسود فيها النظام **ف س م**.

٤- تغير نظام الجملة ليصبح الفعل مقدماً على المسند إليه لا يحدث إلا فى اللغات التى تكون فيها كلمات الاستفهام أو الضميمة الاســـتفهامية لهـــا

الصدارة، وهذا التغيير نفسه لا يقع فى الاستفهام التصديقى إلا إذا كان السؤال مشتملاً على كلمة استفهام.

٥- إذا كان نظام الجملة الخبرية declarative sentences السائد فى لغة ما هو ف س م فإن كلمات الاستفهام أو ضمائم الاستفهام فيها تـــرد أولاً فى النظام المعتمد على كلمات استفهام. فإذا كان نظامها السائد فى لغة ما هو س م ف فليس فيها قاعدة ثابتة كهذه.

٦- إذا كان المفعول به اسماً يسبق الفعل دائماً فإن الصيغ الفعلية المرتبطة بالفعل تسبقه أيضاً.

٧- فى الجمل الشرطية تسبق عادة جملة الشرط جملة الجواب فـــى كـــل اللغات.

٨ - فى التراكيب الدالة علـــى الإرادة volition والغـــرض purpose تلـــى الصيغ الفعلية الفرعية دائماً فى النظام المعتاد الفعل الأساسى إلا فـــى اللغات التى يسبق فيها المفعول به الاسمى الفعل دائماً.

٩- فى اللغات التى يسود فيها النظام ف س م تسبق الأفعـــال المـــساعدة المتصرفة inflected auxiliary دائماً الفعل الأساسى، وفى اللغات التى يسود فيها النظام س م ف تلى فيها دائماً الأفعال المساعدة المتـــصرفة الفعل الأساسى.

١٠- فى اللغات التى يسود فيها النظام ف س م تقع الصفة بعد الموصوف.

١١- إذا سبقت الصفة الموصوف فى لغة ما فإنَّ أسماء الإشارة تسبق المشار إليه، والعدد يسبق المعدود.

١٢- إذا كانت القاعدة العامة فى لغة ما هى أن الصفة تلى الموصوف فقد تكون هناك قلة من الصفات تسبق الموصوف، فإذا كانت القاعدة العامة أن الصفة تسبق الموصوف فلا استثناء.

١٣- إذا سبقت كلمة الإشارة المشار إليه، أو سبق العدد المعدود، أو الصفة الموصوف فإنها تقع دائماً هذا الموقع، وإذا وقع أى منها بعده فإما أن يظل النظام ثابتاً أو يتحول إلى العكس.

١٤- إذا وقعت كل الظروف adverbs أو بعضها بعد صفة adjective بحيث تكون هذه الظروف مقيدة لها عدّت اللغة التى يقع فيها هذا من اللغات التى تقع فيها الصفة بعد الموصوف، ويسبق الفعل فيها مفعوله، نظاماً سائدًا.

١٥- إذا كان ترتيب الموقع فى أسلوب التفضيل هو: الصفة + دليل الصيغة + مستوى التفضيل adjective – marker – standerd كما فى الإنجليزية، وكان هذا الترتيب هو الترتيب الوحيد الممكن كانت اللغة من اللغات التى يسبق فيها الجار المجرور، فإذا كان ترتيب المواقع فى هذا الأسلوب معكوسًا، أى مستوى التفضيل + دليل الصيغة + الصفة، وكان هذا هو الترتيب الوحيد، أو كان واحدًا من أنواع بديلة من الترتيب كانت اللغة من اللغات التى يلي فيها حرف الجر الاسم.

١٦- فى باب البدل apposition إذا سبق الاسم العلم proper noun الاسم العام common noun فإن اللغة التى يقع فيها هذا تكون واحدة من اللغات التى يسبق فيها المضاف المضاف إليه. فإذا كان الاسم العام يسبق عادة الاسم العلم فإن المضاف إليه يسبق المضاف فى اللغة التى يقع فيها ذلك.

١٨- إذا كانت الضميمة الموصولة تسبق الاسم سواء أكان هذا هو التركيب الوحيد أم كان تركيباً بديلاً فإن اللغة تكون من اللغات التى يقـــع فيهـــا الجار بعد المجرور، أو الصفة فيها تسبق الموصوف، أو هما معاً.

١٩- إذا وقع المفعول به الضمير بعد الفعل فإن المفعول به الاسم يقع مثلـــه بعد الفعل.

جـ - العالميات المورفولوجيــة:

١- إذا كان فى لغة زوائد منقسمة discontinueous affixes كان فيها سوابق أو لواحق، أو هما معاً.

٢- إذا كانت اللغة لا تستخدم إلا اللواحق فموقع الجار فيها بعدىّ postposition وإذا كانت لا تستخدم إلاّ السوابق فموقع الجارّ فيها قبلى preposition.

٣- إذا كان كل من عنصرى الاشتقاق derivation والتـــصرف inflection تاليا للجذر root أو كانا كلاهما يسبقان الجذر فإن عنـــصر الاشـــتقاق يكون دائماً بين الجذر وعنصر التصرف.

٤- إذا كان فى اللغة تصريف كان فيها دائماً اشتقاق.

٥- إذا كان للفعل فصيلتا شخص person وعدد number أو كان له فصيلة للجنس gender كان له دائماً فصيلتا زمن tense وصيغة mode.

٦- إذا طابق فى لغة ما أى من المسند إليه subject أو المفعول بـــه object الفعل فى الجنس فإن الصفة بها دائماً تطابق الموصوف فى الجنس.

٧- إذا طابق الفعل المسند إليه أو المفعول به فى الجنس فانه يطابقه أيـــضاً فى العدد.

٨- إذا لم تحدث مطابقة بين الاسم والفعل فى العدد، واعتمدت القاعدة على الترتيب فإن الحالة case تكون دائماً واحدة من تلك التى يكون فيها الفعل مقدماً، وفى صيغة الفرد.

٩- لا يقع فى لغة عدد مثلث trial إلا إذا كان فيها مثنى ولا تقع التثنية فى لغة إلا إذا كان فيها الجمع.

١٠- ليس هناك لغة ليس للجمع فيها ألومورفات غير صفرية، على حين أنّ ثمة لغات لا يعبر فيها عن المفرد إلاّ بالألومورفات الصفرية، أما المثنى والمثلث فلا يقتصر التعبير عنهما إطلاقاً على الألومورفات الصفرية.

١١- إذا كان فى لغة فصيلة للجنس فإن فيها دائماً فصيلة للعدد.

١٢- لا يقع فى لغة فصائل للجنس تكون أكثر فى غير المفرد منها فى المفرد.

١٣- حيثما يوجد نظام للحالة case فإن الحالة الوحيدة التى ليس فيها إلا ألومورفات صفرية هى تلك التى تشمل بين معانيها معنى فاعل الفعل اللازم.

١٤- حيثما توجد مورفيمات للعدد والحالة كليهما، وكل منها يلى أو يسبق أساس الاسم noun base فإن التعبير عن العدد يقع فى الأغلب بين أساس الاسم وتعبير الحالة.

١٥- حين تقع الصفة بعد الموصوف فان الصفة تعبر عن كل الفصائل التصريفية للاسم، وقد يفقد الاسم فى مثل هذه الحالة التعبير الصريح

عن واحد من هذه الفصائل أو عنها كلها.

١٦- إذا وقع الفعل فى لغة بعد المسند إليه والمفعول به كليهما وكان هذا نظاماً سائداً فى تلك اللغة، كان فى هذه اللغة على الأغلب نظام للحالة case system.

١٧- كل اللغات فيها ضمائر تشمل على الأقل ثلاثة أشخاص three persons وعددين two numbers.

١٨- إذا كان فى لغة فصيلة للجنس خاصة بالأسماء فإن فيها فصيلة للجنس خاصة بالضمائر.

١٩- إذا كان فى لغة ما يميز المتكلم من حيث الجنس فإن فيها ايضاً ما يميز - من حيث الجنس - المخاطب والغائب، أو ما يميزهما كليهما.

٢٠- إذا كان فى لغة ما يميز ضمائر الجمع من حيث الجنس كان فيها أيضاً ما يميز ضمير المفرد.

أنواع العالميات:

استطاع جرينبرج واثنان من زملائه هما أوسجود Osgood وجنكينز Jenkins أن يميزوا منذ بدايات بحثهم فى العالميات أنواعًا منها، وقد فتح هذا باباً واسعاً للباحثين من بعد لمناقشة هذه الأنواع، وتطويرها، والإضافة إليها، والتوسع فى إيراد الشواهد عليها. وهذه الأنواع هى:

١- العالميات غير المقيدة unrestricted universals:

وهى عند جرينبرج وزميليه أقوال تحدد الظواهر المشتركة بين اللغات جميعاً من دون استثناء، وقد أوردوا مثالاً واضحاً على ذلك من

المجال الفونولوجى هو: كل اللغات فيها صوائت[١]، وفرّع كرونزرس على هذه العالمية عالمية أخرى غير مقيدة هى: كل اللغات فيها الصوائت/ i a u /[٢]، وذكر باحث آخر عالمية أخرى من هذا المجال هى: كل اللغات فيها صوامت وقفية stops[٣].

وقد أضاف بعض الباحثين عالميات أخرى من المجالين التركيبى والصرفى، فقدم بولنجر Bolinger (١٩٦٨) العالميات الآتية[٤]:

- كل اللغات فيها ضمائم اسمية، وضمائم فعلية تماثلاً مع القسمين الكبيرين: الاسم والفعل، وفيها كلها يفوق عدد الأسماء عدد الأفعال.
- كل اللغات فيها وسائل لتحويل الجمل الخبرية إلى استفهامية ومنفية وطلبية.
- كل اللغات فيها على الأقل صيغتان للتفاعل بين الأفعال والأسماء هما اللزوم والتعدى.

وأضاف باحثون آخرون العالميات الآتية:

- كل اللغات فيها أنظمة للضمائر تميز ثلاثة أشخاص: المتكلم والمخاطب

---

(١) Greenberg, J.H. – Osgood, Ch.E.- Jenkins, J.J.: Memorandum Concerning Language Universals, in. Greenberg, J.H. (ed.) 1973. P.xix
وانظر أيضاً:
- Langacker, R.W. (1973). P.247.
- Comrie, B. (1989). P.18.

(٢) Crothers, J. (1978). P.136.

(٣) O'Grady et al (1996). P.377.

(٤) Mallinson & Blake (1981). P.8.
- Langacker, R.W. (1973). P.249.

والغائب، وعددين على الأقل هما المفرد والجمع[١].

- كل اللغات فيها وسائل للإشارة[٢].
- كل اللغات فيها وسائل للتعريف والتنكير[٣].

على أن كثيراً من اللغويين يرون أن القول بسمة ما موجودة فى اللغات جميعاً ليس من الممكن اختبار صدقه، بل من السهل تحطيمه على صخرة اللغات التى تكتشف حديثًا، فضلاً عن أنه لا سبيل إلى اللغات التى ماتت، بل إنه لا سبيل إلى أوصاف كاملة لكل اللغات الحية فى العالم[٤].

وقد استطاع بعض الباحثين أن يجد أمثلة مضادة counterexamples للعالميات غير المقيدة فذكر أن لغة تسمى الكباردية Kabardian مستعملة فى شمال غرب القوقاز تفتقر إلى الصوائت الفونولوجية[٥].

وشكّك بعضهم فى القول بأن كل اللغات فيها ضمائم اسمية، وضمائم فعلية، أولاً: لأنه ليس ثمة اتفاق على تحديد كل منهما فى كل اللغات، وثانياً: لأنه ليس من السهل التمييز بين الفعل والاسم فى بعض اللغات مثل اللغة التى تسمى نوتكا Nootka[٦] وذكروا أنه على الرغم من أن الضميمة الاسمية

---

(١) Atkinson et al (1988). P.363.

(٢) Langacker, R.W. (1973). P.249.

(٣) محمود أحمد نحلة: التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل (الإسكندرية ١٩٩٧) ص ١٢ فما بعدها.

(٤) Mallinson & Blake (1981). P.8.

(٥) Payne, J.R. (1990). P. 293.

(٦) Payne, J.R. (1990), P. 294.

مستخدمة عالمياً، فإنه ليس فى كل اللغات أسماء تعادل أسماء إنجليزية مثل sorrow، Joy، laughter.. إلخ(١).

والضميمة الفعلية ليست مستخدمة فى كل اللغات، فثمة لغات تجمع الفعل والمسند إليه فى ضميمة واحدة. وثمة لغات لا يمكن أن يضم إلى الفعل فيها مكون آخر، فضلاً عن أن هناك أفعالاً واضحة مثل يقفز، ويسفك، ويطارد ليس لها معادل فى كل اللغات. وفى كثير من اللغات كلمات لها الخواص النحوية التى للأفعال كالدلالة على الزمن tense، والجهة aspect، والصيغة mood، والبناء للمعلوم أو المجهول(٢).

كذلك قال بعضهم إنّ اللغة القوقازية المسماة Avar لا يظهر فيها التمييز بين اللازم والمتعدى من الأفعال، فكل الأفعال فى هذه اللغة تتطلب التعبير عن واحد فقط من المشاركين فى الحدث participants(٣).

من أجل ذلك رأى بعض الباحثين أنّ العالميات غير المقيدة التى لا استثناء فيها بندر وجودها، فإن وجدت فليس لها قيمة حقة فى البحث اللغوى(٤). وعلى ذلك فالقول بالعالميات غير المقيدة مؤسس على أن الباحثين لم يكتشفوا حتى الآن استثناء منها، ولهذا فليس من الممكن من الوجهة العملية أن نكون على يقين من أن هذه العالمية أو تلك غير مقيدة حقاً(٥).

---

(١) Mallinson & Blake (1981), P. 9.
(٢) Ibid, P. 9.
(٣) Ibid. P.9.
(٤) Atkinson et al (1988). P.363.
(٥) Comrie, B. (1989). P.20.

٢- الاستلزامات العالمية universal implications:

وهى عند جرينبرج وصاحبيه تقوم على عقد صلة بين خاصيتين لغويتين عالميتين نحو: إذا كان فى لغة معينة الخاصية (أ) فإن فيها أيضاً الخاصية (ب)، لكن العكس غير صحيح، ومثال ذلك: إذا كان فى لغة فصيلة للمثنى dual فإن فيها أيضاً فصيلة للجمع plural، لكن العكس غير صحيح ضربة لازب. وهم يعبرون عن ذلك بالسهم ذى الاتجاه الواحد: مثنى ← جمع[١]. ويرون أن مثل هذه الاستلزامات كثيرة حقاً بخاصة فى المجال الفونولوجي[٢].

وقد ذكر باحثون آخرون عالميات أخرى من هذا المجال منها[٣]:

- إذا كان فى لغة أصوات أنفية مهموسة كان فيها أيضاً أصوات أنفية مجهورة. والعكس ليس لازماً.
- إذا كان فى لغة من اللغات فونيمات احتكاكية fricatives فإن فيها أيضًا فونيمات وقفية stops والعكس ليس لازمًا.
- إذا كان فى لغة تقابل بين الصوائت الطويلة فإن فيها أيضًا تقابلاً بين الصوائت القصيرة، والعكس ليس لازمًا.
- إذا كان فى لغة فونيمات مجهورة يعترض عند النطق بها مجرى الهواء اعتراضًا كلياً أو جزئياً، كان فيها أيضاً فونيمات مهموسة، يعترض عند النطق بها مجرى الهواء اعتراضاً كلياً أو جزئياً، ولا يلزم العكس.

---

(١) Greenberg et al (1973). P.xix.
(٢) Ibid, P.xx.
(٣) O'Grady et al (1996). P.374 ff.

- إذا كان فى لغة فونيمات مزجية affricates فإن فيهـا أيـضاً فونيمـات احتكاكية ووقفية، ولا يلزم العكس.

- إذا سمحت لغة بسلسلة من الصوامت فى مـستهل المقطـع أو مختتمـة سمحت أيضاً بصامت مفرد فى مستهل المقطع أو مختتمه، والعكس غير لازم.

ولهذا النوع من العالميات شواهد من المجال التركيبى منها[١]:

- إذا كان فى لغة ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم، والمخاطب كـان فيهـا ضمائر منعكسة خاصة بالغائب، ولا يلزم العكس.

- إذا سبقت ضميمة الصلة الاسم المسيطر عليها فى لغة غير نغمية فـإن نظام الجملة الأساسى فيها هو: س م ف.

وللاستلزامات العالمية صلة بمجالات مهمة فى البحث اللغوى منهـا نظرية السمات الفارقة distinetive features theory؛ إذ إنّ الصوائت الأنفيـة تشترك مع الفموية فى كل السمات، وتفترق عنها بسمة إضافية تتعلق بالأنفية nasality. ومنها نظرية الوسم اللغوى markedness، إذ إن الصوائت الأنفيـة موسومة والفموية غير موسومة[٢]. ومنها الترسيس المقـارن comparative reconstruction، إذ يمكن بها عند ترسيس اللغات الأمات التنبؤ بوجود ظاهرة لغوية معينة حين توجد ظاهرة معينة[٣].

---

(١) Comrie, B. (1989). P.19.

(٢) Atkinson et al (1988). P.364.
- O'Grady et al (1996). P.374 f.

(٣) Hopper, P.J. (1992). P.137.

ومن الجدير بالذكر أنَّ جرينبرج وصاحبيه التفتوا إلـــى نـــوع مـــن الاستلزام غير العالمى، وقد أطلقوا عليه مصطلح "التكافؤ المقيــد" restricted equivalence، وقصدوا به الاستلزام المتبادل بين خاصيتين غير عـــالميتين، وقدموا صياغة له على النحو الآتى:

- إذا كان فى لغة معينة الخاصية غير العالمية (ج) فإن فيها أيـــضاً الخاصية غير العالمية (د) والعكس صحيح، وذكروا مثالاً لذلك هو: إذا كـــان فى لغة طقطقة جانبية lateral click فإن فيها أيضاً طقطقة أسنانية dental.

وهذه الخاصية ليست عامة فى اللغات، بل هى مستعملة فـــى لغـــات موجودة فى منطقة بعينها من جنوب أفريقيا[1]. وظاهر أن هذا النـــوع مـــن الاستلزام لا يدخل فى العالميات، ولم يلتفت إليه الذى ذكروا أنواع العالميات من الباحثين.

٣- العالميات الإحصائية statistical univesals:

وقد حددها جرينبرج وصاحباه بأنها خواص فى لغات العـــالم زادت من الناحية الإحصائية على الخواص التى تقابلها زيادة كبيرة تقترب بها من العالمية. وذكروا الصوامت الأنفية مثالاً لها فهى موجودة فى كل اللغات مـــا عدا لغات قليلة مثل اللغات السالشية Salishian وبعض اللغات المجاورة لها، لهذا فمن الجائز أن تصاغ عالمية تقول:

- الأغلب فى اللغات أن يكون فيها على الأقل صامت أنفى واحد[2].

---

(١) Greenberg et al (1973). P.xx.

(٢) Ibid, P.xx.

وقد أكدت بعض الدراسات الإحصائية ما ذهب إليه جرينبرج وزميلاه، إذ أثبتت دراسة فونولوجية لأكثر من ثلاثمائة لغة أن نسبة اللغات التى تخلو من الصوائت الأنفية أقل من ٣٪[١]، كما ثبت أيضاً أن نحو ٩٩٪ من اللغات التى درس فيها نظام الجملة كان المسند إليه فيها سابقاً على المفعول به[٢].

ومن العالميات الإحصائية أيضاً ما يأتى[٣]:

- أغلب اللغات تستعمل الفونيمات الوقفية/ p t k /، وقليل من اللغات تخلو من واحد من هذه الثلاثة، لكن ليس هناك لغة تفتقر إلى هذه الصوامت جميعاً. فإذا فقدت اللغة واحداً منها فالأغلب أن يكون / p / كما فى النوبية (والعربية)، والفونيم الأكثر استخداماً من هذه الثلاثة هو / t /.
- أكثر الصوامت الاحتكاكية شيوعاً فى لغات العالم هو / s /، فإذا كان فى لغة من اللغات صوت احتكاكى واحد فالأغلب أن يكون/ s / كما فى اللغة المسماة ناندى Nandi المستخدمة فى كينيا ففيها صوت احتكاكى واحد هو / s /، والصامت الإحتكاكى الذى يليه فى الشيوع هو / f /.
- إن كان فى لغة فونيم أنفى واحد فالأغلب أن يكون / n / فإن كان فيها فونيمان أنفيان متقابلان فيهما عادة / m/ و / n /.
- الأغلب فى اللغات أن يكون فيها فونيم مائع واحد.

---

(١) Crystal, D. (1989). P.85.
- Comrie, B. (1989). P.19.

(٢) Crystal, D. (1989). P.85.

(٣) O'Grady et al (1996). P.377 ff.

٤- الارتباطات الإحصائية statistical correlations:

ذكر جرينبرج وزميلاه أن هذا النوع يختلف عــن ســابقه اخــتلاف الاستلزامات العالمية عن العالميات غير المقيدة، وهم يعنون به أنه إذا كــان فى لغة خاصية معينة فإن فيها خاصية أخرى يغلب ورودها معها.

والمثال على ذلك: اللغات التى فيها ضمير يدل على جنس المخاطب يغلب أن يكون فيها ضمير يدل على جنس الغائب، ولكن العكس غير صحيح.

ولو أن هذه العالمية كانت من دون استثناء لأصبح عندنا اســتلزامية عالمية تقول: إذا كان فى لغة ضمير يدل على جنس المتكلم فإن فيها ضميراً يدل على جنس الغائب، لكن ثمة لغات فى وسط نيجيريا فيها ضمائر تميــز جنس المخاطب، وليس فيها ضمائر تميز جنس الغائب، فإذا كان هذا الــزعم صحيحاً وليس ناتجاً عن سوء وصف لها فمن الممكن أن نــصوغ ارتباطــاً إحصائياً على النحو الآتى:

- إذا كان فى لغة ضمير يميز جنس المخاطب فــالأرجح أن يكــون فيهــا ضمير يميز جنس الغائب[١].

تلك هى العالميات التى يعمل فى إطارها جرينبرج ومن تبعه منذ سنة ١٩٦٣. وقد حاول كومرى من بعد أن يضبط أنواعهــا ومــصطلحاتها، وأن يضيف إليها بعض الأمثلة التوضيحية، فرأى أن العالميات نوعــان: مطلقــة ونسبية، وأن كلا من المطلقة والنسبية إما استلزامية وإما غيــر اســتلزامية، فأطلق على النوع الأول من عالميات جرينبرج وزميليه مصطلح العالميــات

(١) Greenberg et al (1973). P.xx.

المطلقة غير الاستلزامية absolute non implicational universals مثل: كـــل اللغات فيها صوائت. وأطلق على النوع الثانى من عالميات جرينبرج وزميليه مصطلح العالميات المطلقة الاســتلزامية absolute implicational universals مثل: إذا كان فى لغة ضمير منعكس خاص بالمتكلم والمخاطب فــإن فيهــا ضميراً منعكساً خاصاً بالغائب.

وقد أطلق على النوع الثالث من عالميات جرينبرج وزميليه مصطلح عالميات نسبية غير استلزامية، أو نزعات عالميــة غيــر اســتلزامية non-implicational universal tendencies مثل: أغلب اللغات فيها صوامت أنفية.

أطلق على النوع الرابــع مــصطلح نزعــات عالميــة اســتلزامية implicational universal tendencies مثل: إذا كان نظام الجملة فى لغة هــو س م ف فالأرجح أن يقع الجار فيها بعد المجرور postposition لكن الفارسية تعدّ مثالاً مضادا لذلك إذ فيها هذا النظام لكن الجار فيها يقع قبــل المجــرور preposition(١).

وقد كتب لمصطلحات كومرى من الشيوع ما لم يكتب لمــصطلحات جرينبرج وزميليه.

ومما ينبغى اللفت إليه أن جرينبرج وزميليه تنبهوا إلى أن كــل مــا قدموه من بحث فى العالميات ينحو منحى تزامنيا synchronic يقــوم علــى رصد السمات المشتركة فى لغات العالم وبيان العلاقات بين بعضها وبعض، لكنه لم يعن بالدراسة الزمانية diachronic التى تعنى بالتطور اللغوى عبــر المراحل الزمانية المتعاقبة، فلم يقدموا عالميات تكشف عن السمات المشتركة

---

(١) Comrie, B. (1989). P.19.

التى تسم اللغات فى تطورها أو تغيرها عبر الزمن، ولفتوا إلى أن هذا المجال جدير بالبحث[١] وقد عاد جرينبرج سنة ١٩٧٨ إلى الحديث عن الوجهتين الزمانية والتزامنية فى دراسة العالميات[٢]، ثم عنى من بعد باحثون كثيرون بهذا النوع من العالميات[٣]، وهو من غير شك فى حاجة إلى أن يفرد له بحث مستقل فى العربية.

هذان إذن هما الاتجاهان السائدان فى دراسة العالميات اللغوية، أحدهما ينطلق من الفطرة الإنسانية ليصل إلى العالميات، والثانى ينطلق من دراسة أكبر عدد ممكن من اللغات للوصول إلى العالميات، فهدفهما واحد، وإن اختلفت بهما السبل. ومن ثم كان بعض الباحثين على حق حين قال إن الاتجاهين غير متناقضين، بل هما متكاملان وليس أحدهما بقادر وحده على الوصول إلى هذا الهدف[٤].

ولعلّ مما يدعو للدهشة أن اللغة العربية لم تأخذ مكانها الجدير بها فى التصنيف النوعى للغات أو العالميات؛ وعدد مستخدميها لغة رسمية يزيد على مائة وخمسين مليونا، فضلاً عن ملايين أخرى عديدة تستخدمها لغة ثانية، فى حين أن لغات لا يتجاوز عدد مستخدميها بضع مئات تدرج بين اللغات التى

---

(١) Greenberg et al (1973). P.xxii.

(٢) فى بحث له عنوانه:
Diachrony, Synchrony and Language Universals, in: Greenberg, J.H. (1978) Vol.1. P.7 ff.

(٣) انظر على سبيل المثال:
Fox. A.: (1995): Linguistic Reconstruction. An Introduction to Theory and Method.
وثبت المراجع الوارد فيه ص ٣٣٠ فما بعدها.

(٤) Hawkins, J.A. (1988). P.4.
- Comrie, B. (1989). P.23.

تكون مادة الدراسة فى هذين الجانبين، ولا عذر لمعتذر فى ذلك، فقد أتيح لأنظمة العربية الصوتية، والصرفية والنحوية، والدلالية وصف دقيق قدمه علماء العربية منذ قرون، وتوفر على درسها علماء أوربيون كثيرون فقدموا فى ظواهرها المختلفة بحوثاً لا تحصى كثرة مكتوبة بأكثر اللغات الحية شيوعاً وأوسعها انتشاراً: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وبالرغم من ذلك تجدهم يحيدون عنها ويؤثرون عليها العبرية، وقد اضطررت فى مواضع من البحث أن أذكر بالعربية فكنت أضعها بين هلالين حتى يأتى وقت أستطيع فيه أن أفرد بحثاً لموقع العربية من التصنيف النوعى، وما يكون من ظواهرها داخلاً فى العالميات، وما يكون منها أمثلة مضادة، وأرجو أن أتمكن من إنجازه فى أقرب وقت إن شاء الله. والله الموفق والمستعان.

النهج الاستبدالي

في كتاب سيبويه

(١)

لكتاب سيبويه مكانة غير منكورة فى تاريخ الـــدرس اللغــوى عنـــد العرب فهو أول كتاب نحوى وصل إلينا، استطاع فيه صاحبه أن يقدم وصفًا شاملاً دقيقاً للغة العربية فى نحو ألفى صفحة[١] تنـــتظم خمـــسمائة وثمانيـــة وخمسين بابًا، وأربعمائة وعشرين شاهدًا قرآنيًا، وثمانية شواهد من الحـــديث النبوى الشريف وتسعمائة وسبعة وأربعين بيتًا كاملاً من الشعر العربـــى لـــم يشك أحد فى صحتها، وخمسة من أجزاء أبيات، وواحدًا وأربعين مثلاً عربيًا، وثلاثمائة وست عبارات مسموعة عن العرب، ومائتين وستة وتسعين شاهدًا من الأرجاز، وثمانمائة وخمسين رأيا لأئمة النحاة السابقين عليه[٢]. وعـــددًا لا يكاد يحصى كثرة من الأمثلة التى صاغها سيبويه قياسًا علـــى مـــا هـــو مستعمل من لغة العرب.

وليس بين أيدينا ما يدل على أن سيبويه بنى كتابه على كتـــاب قبلـــه توسعة له أو تطويرًا، أو أفاد منه فى تصنيف مادته اللغوية وتبويبها، أو أخذ عنه منهجه فى العرض والتحليل.

ولست أشك فى أن سيبويه صدر فى وصفه للنظـــام اللغـــوى فـــى العربية، وبيان القوانين التى تحكم الاستعمال الصحيح للغة، عن أسس منهجية

---

(١) طبعة عبد السلام هارون، (القاهرة ١٩٦٦ – ١٩٧٧).

(٢) قمت بهذا الإحصاء من خلال الفهارس التى أعدها الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب سيبويه فى الجزء الخامس (القاهرة ١٩٧٧)، وهو مخالف للإحصاء الذى نقلـــه د. حسن عون عن الطبعة الأوروبية إلا فيما يتصل بآراء النحـــاة، انظـــر: د. حـــسن عون، أول كتاب فى نحو العربية فى مجلة كلية الآداب جامعة الإســـكندرية م ١١ سنة ١٩٥٧، ص ٣٩ وما بعدها.

كانت قائمة فى ذهنه لم يعن بإيضاحها عنايته بإجراءات التحليل اللغوى، ولا نكاد نجد فى التراث النحوى من بعده من حاول استظهار هذه الأسس، والتأصيل النظرى لها، وتحديد دورها فى النظرية اللغوية عند سيبويه، على كثرة من عرضوا لكتاب سيبويه شرحًا لمتنه وشواهده، ومناقشة لمشكلاته وقضاياه، واعتراضًا عليه.

على أن بعض الباحثين المحدثين من العرب ومن غير العرب حاولوا أن يستخرجوا بعض هذه الأسس فى ضوء معارف العصر، فظهر لهم أن لبعض ما جاء به سيبويه نظيرًا فى المدارس اللغوية المعاصرة، فاكتفى بعضهم باللفت إلى ذلك منبهًا إلى أن تأمل المادة اللغوية قد يفضى إلى استراتيجية واحدة أو متقاربة عند باحثين من لغات مختلفة، وإن اختلفت المنطلقات، والغايات، والمصطلحات[١]، وأثبت بعضهم لسيبويه سبقًا إلى بعض هذه الأسس بعشرة قرون[٢]، ووصولاً إلى نماذج من التحليل البنيوى لم يعرفها الغرب حتى القرن العشرين[٣].

---

(١) انظر فى ذلك:

- Mosel, U.: Die syntaktische Terminologie bei Sibawaih (Diss.) München 1975, S. 13, 73- 4.
- Owens, J.: Early Arabic Grammatical Theory, Amsterdam 1990, p.35.
- Versteegh, C.H.M.: The Arabic Terminology of syntactic Position, in: Arabica Tome XXV 1970, p. 263 f.

وانظر د. نهاد الموسى نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث، بيروت ١٩٨٠م، ص ٣٢، ٣٨.

ود. عبده الراجحى: النحو العربى والدرس الحديث، بحث فى المنهج، بيروت ١٩٨٦م، ص ٥٩، ١٤٥، ١٥٠ فما بعدها.

(٢) د. عبد الرحمن أيوب: التفكير اللغوى عند العرب: مصادره ومراحله، فى: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢٤، يناير ١٦٩، ص ١٢٧.

(٣) Carter, M.: An Arabic Grammarian of the Eighth Century A.H. JAOS. 93, p. 157.

ولا ريب فى أن قراءة سيبويه فى ضوء النظريات اللغوية المعاصرة تعين على استخراج بعض هذه الأسس المنهجية، وتحديد مكان هذا الكتاب ومكانته فى الدرس اللغوى العالمى، وهذا البحث محاولة لاستخراج واحد من أهم الأسس المنهجية، التى اعتمد عليها سيبويه، من كتابه ذاته، أصطلح عليه بـ "النهج الاستبدالى" ولما كان سيبويه يلتقى فى هذا النهج مع مدرسة لغوية حديثة هى "التوزيعية Distributionalism" فقد رأيت أن أوجز تصورها لهذا الأساس، ثم أعرض لتصور سيبويه له، وتقنيات استخدامه، وأهدافه منه، ثم أقارن فى النهاية بين التصوّرين.

(٢)

التوزيعية هى المرحلة الثانية فى تطور علم اللغة الوصفى فى أمريكا، أو ما يطلقون عليه "البنيوية الأمريكية"[١]، وضع أسسها هاريس فى الخمسينيات من هذا القرن[٢]، ويعد كتابه: "مناهج فى علم اللغة البنيوى Methods in Structural Linguistics الذى صدر فى شيكاغو سنة ١٩٥١ إنجيل هذه المرحلة، وقد بين فيه منهج البحث وإجراءات التحليل[٣].

لقد حاول هاريس أن يقدم نموذجًا للتحليل اللغوى بمنهج العلوم المضبوطة، فاتجه إلى تطوير تحليل يقوم على أسس شكلية بعيدة عن الأسس

---

(١) Helbig, G.: Geschichte der neueren Sprachwissenshaft, Opladen 1981, S.80.

(٢) Stammerjohann, H. (Hrsg.): Handbuch der Linguistik, München, 1975, S.97.

(٣) Helbig; (1981) S.81.

العقلية أو الدلالية[1]. فالتحليل اللغوى عنده يقوم على أن العلاقة بين العناصر اللغوية فى الأداء الكلامى ليست اعتباطية أو تعسفية، فكل عنصر يقع مواقع معينة بالقياس إلى العناصر الأخرى[2]. وثمة قيود تركيبية تحكم وروده مع عناصر أخرى، أو بعبارة اصطلاحية: "تحدد توزيع عنصر" بالقياس إلى العناصر الأخرى، ويحدد هاريس مفهوم التوزيع بقوله: «أىّ توزيع لغوى هو مجموع كل السياقات environments التى يرد فيها، أى مجموع المواقع positions التى يقع فيها العنصر اللغوى بالقياس إلى العناصر الأخرى»[3].

ولكى نصل إلى تحديد العنصر اللغوى أو "اكتشافه" ثم معرفة "توزيعه" ينبغى أن نقوم بإجراءين يعتمدان على أساس منهجى هو الاستبدال Substitution:

أحدهما: تقطيع الكلام المتصل فى المادة اللغوية إلى الوحدات الصغرى التى تسمى المورفات morphs.

الثانى: تصنيف المورفات وتجميعها فى مورفيمات Morphemes.

ولما كانت المورفيمات عندهم وحدات مجردة تنتمى إلى النظام اللغوى Langue والمورفات هى الوحدات الصغرى للكلام الفعلى المحقق Parole كان لابد أن تصنف المورفات وتجمع فى مورفيمات، وتلك هى الخطوة الأولى، ثم الخطوة الثانية تكون بتصنيف المورفيمات بناءً على تماثلها فى العلاقات التوزيعية إلى أنواع مورفيمية، وتوسيع الأنواع لتشمل

---

(١) Brinker, K.: Modelle Und Methoden der Strkturalistischen Syntax, Köln, 1977, S.35.

(٢) Harris, Z.S.: Papers in Structural and Transformational Linguistics, Holland, 1970, p. 775.

(٣) Ibid.

ضمائم من المورفيمات ذات توزيع متماثل، ثم تجميعها فى أقسام مورفيمية كبرى تسمى الأقسام الموقعية، والخطوة الثالثة تكون بوصف إمكانات الربط بين الأقسام الموقعية المختلفة لنصل بها إلى وصف تركيب الجملة، فإجراءات التحليل أو خطواته تتجه من أسفل إلى أعلى بتجميع المورفات فى مورفيمات، والمورفيمات فى ضمائم مورفيمية، والضمائم المورفيمية فى أقسام مورفيمية كبرى أو فى أقسام موقعية، وتحدد بعد ذلك العلاقات بين الأقسام الموقعية، فيتحقق بذلك وصف بناء الجملة وصفًا شديد البساطة والاقتصاد(١).

وقد شرح هاريس إجراءات التحليل على النحو الآتى:

إذا وردت صيغة مثل (أ) فى سياق مثل (جـ – د) ثم استبدلنا بـ (أ) صيغة أخرى هى (ب) أى وضعناها مكان (أ)، فإذا كانت العبارة الناتجة عن الاستبدال لا تزال مستخدمة فى اللغة، بمعنى أن اللغة لا تستخدم (جـ أ د) فحسب، بل تستخدم أيضًا (جـ ب د) فإننا نقول: إن (أ) و(ب) تنتميان إلى قسم استبدالى واحد Substitution Class أو أن كلا من (أ) و(ب) يصح أن يشغل الموقع (جـ – د)(٢).

وهكذا نرى أن للاستبدال دورًا أساسيًا فى "اكتشاف" العناصر اللغوية التى يمكن أن يحل أحدها محل الآخر، وتحديد توزيعها، وقد نص هاريس على ذلك فقال: "الاستبدال نهج أساسى فى علم اللغة الوصفى"(٣).

---

(١) Brinker, (1977), S. 58 ff.
- Helbig, (1981), S. 80 f.
- Harris, (1970) p. 234.

(٢) Brinker, (1977), S. 36.

(٣) Harris, (1970), p. 102.

ولا يقتصر الاستبدال عندهم على استبدال مفرد بمفرد، بل يتعدى ذلك إلى الضمائم أو العبارات[1]، وقد حددوا للتوزيع أنماطًا ثلاثة[2].

١- التوزيع الحر Frei:

ويتحقق حين تتطابق السياقات التى ترد فيها وحدتان لغويتان (أ) و(ب) مثلاً تطابقًا تامًا، ويجوز استبدال إحداهما بالأخرى فى أى سياق لغوى، ويمكننا أن نقول: إن كلاً منهما معادل توزيعى للآخر.

٢- التوزيع التقابلى: Kontrastiv:

ويتحقق حين تتطابق السياقات التى يرد فيها العنصران اللغويان (أ) و(ب) تطابقًا جزئيًا (غير تام)، ويتميز هنا نوعان من العلاقات:

أحدهما: أن تطابق كل السياقات التى ترد فيها (أ) عددًا من السياقات التى ترد فيها (ب)، أى أن (ب) يمكن أن تحل فى كل سياق محل (أ)، لكن (أ) لا تحل محل (ب) إلا فى بعض السياقات، فبين التوزيعين علاقة اشتمال.

الثانى: أن تختلف بعض السياقات التى ترد فيها (أ) عن بعض السياقات التى ترد فيها (ب) بمعنى أن (أ) تحل فى بعض السياقات محل (ب)، و(ب) تحل فى بعض السياقات محل (أ)، ولكل منهما بعد ذلك سياقاته الخاصة به، والعلاقة التى بينهما علاقة توزيع متقاطع.

---

(١) Lewandowski, Th., Linguistisches Wörtrbuch, Heidelberg 1979, 3/ 946.
(٢) Brinker, (1977), S. 37.

٣- التوزيع التكاملى: Komplementär:

ويتحقق حين لا تتحد السياقات اللغوية التى ترد فيها وحدتان لغويتان فلا تحل إحداهما محل الأخرى فى أى سياق.

وينبغى، قبل أن أختم الحديث عن التوزيعية، أن أشير إلى الفرق عندهم بين الاستبدال Substitution والإبدال mutation فالاستبدال إحلال عنصر لغوى محل آخر فى سياق لغوى واحد، أما الإبدال فهو إبدال فونيم مكان آخر أو قلبه إليه بتأثير الأصوات المجاورة[(١)].

(٣)

يقوم النهج الاستبدالى فى كتاب سيبويه على أساس شكلى بعيد فى الأغلب الأعرف عند الافتراضات العقلية والنواحى الدلالية، فهو يعتمد على مادة لغوية متمثلة فى الأداء الكلامى المحقق، ولا أدل على ذلك من أن القول ومشتقاته فى كتابه أكثر من أن يحصى، أو كما قال تروبو (non dénombré)[(٢)] ثم إنه ينتهج نهجًا منضبطًا يقوم على استبدال عنصر لغوى بآخر فى موقع محدد من السياق الكلامى، وقد استطاع به تحديد الأقسام الموقعية الكبرى، ثم عاد إلى كل قسم منها فبين بالاستبدال أيضًا أنواعه، والعلاقات التوزيعية بين كل نوع؛ وصولاً إلى إيضاح الفروق بين الأنواع المختلفة فى إطار القسم الواحد، وتحديدًا لوظيفة كل منها فى التركيب، وبيان صحة استخدامها، وأثره

(١) Robins, R.H.: General Linguistics, An Introductory Survey, Hong Kong, 1978, p. 192.

(٢) Troupeau, G. Lexique- Index du Kitab de Sibawayhi, Paris, 1976, p. 176.

فى تغيير التركيب الذى يتبعه تغير فى التحليل، على نحو سنفصل القول فيه من بعد.

على أن سيبويه لم يذكر مصطلحاً خاصًا لهذا النهج الاستبدالى، وخلا كتابه من الفعل "استبدل" أو مصدره، أو أى مشتق من مشتقاته، ذلك بأنه – كما أشرنا – غير معنىّ بالإيضاح النظرى لهذا الأساس فى كتابه، بل يتجه مباشرة إلى استخدامه فى التحليل اللغوى، لكنه يشير إلى القدرة الاستبدالية لعنصر من العناصر اللغوية باستخدام كلمات وعبارات يراوح بينها، وأهمها: بمنزلة[1]، وقع موقع[2]، جرى مجرى[3]، كأنك قلت[4]، فى معنى[5]، فى موضع[6]، وتقول... كما تقول[7]، يوافق قولك[8]، على أننا نلفت إلى أنه يستخدم بعض هذه الألفاظ والعبارات فى غير الدلالة على الاستبدال، وأن قوله فى معنى لا يعنى به فى الأغلب المعنى الدلالى، بل المعنى التركيبى أو الوظيفى.

---

(١) سيبويه، الكتاب، ط. هارون، ج ١، ص ١٦، ١٧، ٤٠، ٤٤، ١٨١، ج ٢، ص ٢٣، ٢٨٣، ٢٩٠، ٣٠٢، ٣١٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ج ٣، ص ٦، ٢٦٨، ج ٤، ص ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٤.

(٢) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ١٦، ١٢٢، ٢٢٧، ج ٢، ص ٨٨، ١٢٨، ٣٥١، ج ٣، ص ١٧، ٣٥١، ٣٦٨.

(٣) سيبويه: الكتاب ج ١، ص ١٦٤، ١٦٨، ١٨٩، ٢٨٧، ج ٢، ص ٢٤.

(٤) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ١٤، ٨٤، ١٠٩، ١٣١، ١٣٦، ج ٢، ص ٣٨٧، ٣٩١، ٢٩٣، ج ٣، ص ٦، ١١، ١١٩، ١٢٠.

(٥) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٢٠، ١٣٠، ١٨١، ٢٧٤، ج ٣، ص ١١، ج ٤، ص ٢٣٥.

(٦) سيبويه: الكتاب ج ١، ص ١٦، ٨٤، ١٥٥، ٢٦٩، ٣١٩، ٣٧٠، ج ٢، ص ١٣٢، ٢٧٥، ٢٩٣، ج ٣، ص ٥٥، ١١٩، ١٢٠، ١٨٦، ٢٨٦.

(٧) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٤٥، ٦٠، ١١٠.

(٨) ج، ص ١٤.

وقد استخدم سيبويه "البدل" دالاً على باب نحوى[١]، واســتخدمه دالاً على ظواهر صوتية يوضع فيها صوت لغوى مكان آخر أو يقلب إليــه فــى إطار الكلمة المفردة[٢]، وعلى ظواهر صرفية توضع فيهــا صــيغة مكــان أخرى[٣]، وقد ورد لفظ (بدل) مرة واحدة دالاً على عنــصر لغــوى يمكــن استبداله بآخر[٤]، كما استخدم الإبدال مصطلحًا صوتيًا وصــرفيًا[٥] والمبــدل والمبدل منه مصطلحين نحويين[٦] لكنه لم يستخدم أيًا من هذه الألفاظ للدلالــة على النهج الاستبدالى.

ولعلى ألفت هنا إلى أن سيبويه استخدم التعاقب/ المعاقبة مــصطلحًا دالاً على ما يعنيه المحدثون بالتوزيع التكاملى، بمعنى أن كلا من العنصرين يرد فى سياقات لا يرد فيها الآخر، بحيث لا يمكن استبدال أحدهما بــالآخر، كالمعاقبة بين "ال" والتنوين[٧]، وبين أين ومتى[٨]، وبين أنا وتــاء فعلــت[٩]، وبين "إياى" و"نى" فى إياى رأيت ورأيتنى[١٠]، ومعاقبة الجر للتنوين فى اسم الفاعل[١١]، ومعاقبة الاسم للفظ بالفعل فى نحو: أقائمًا وقد قعد الناس[١٢].

---

(١) سيبويه: الكتاب ١/ ١٥٠ – ١٥٨، ٢/ ١٤ – ١٧.
(٢) سيبويه: الكتاب ٤/ ١٢٩ – ١٣٠، ٢٣٩، ٢٤٠.
(٣) سيبويه: الكتاب، ج ٣/ ٣٥٧، ج ٤/ ١٩٩.
(٤) سيبويه: الكتاب ٣١٧/١.
(٥) سيبويه: الكتاب ٤/ ١٩٩.
(٦) سيبويه: الكتاب ٤٣٩/١.
(٧) سيبويه: الكتاب ١٦٥/١.
(٨) سيبويه: الكتاب ٢١٩/١.
(٩) سيبويه: الكتاب ٣٥١/٢.
(١٠) سيبويه: الكتاب ٣٦٤/٢.
(١١) سيبويه: الكتاب ٦٥/١.
(١٢) سيبويه: الكتاب ٣٤٣/١.

ونريد الآن أن نفصل القول فى النهج الاستبدالى أساسًا منهجيًا من أسس التحليل النحوى عند سيبويه:

لقد كان الاستبدال أساسًا منهجيًا لتقسيم الكلم عند سيبويه إلى ثلاثة أقسام؛ فقد نظر فوجد أن ثمة ثلاث طوائف من الكلمات لا يحل أحدها – فى أصل الاستعمال – محل الآخر فى أى سياق لغوى صحيح، وبحث عن أصل نموذجى للطائفة الأولى فوجده فى "اسم الجنس"[1] فكان مفتاح التقسيم عنده، إذ عد كل ما يقع موقع اسم الجنس، ولو فى سياق لغوى واحد اسمًا، فضم بذلك إلى قسم الأسماء عددًا كبيرًا من الأنواع، ثم نظر فوجد أن الفعل لا يمكن بحال أن يحل محل اسم الجنس فى سياق لغوى صحيح، ففصله عن الاسم وجعله قسمًا قائمًا برأسه، ولا أدل على ذلك من قوله: «ويبين لك أنها ليست بأسماء أنك لو وضعتها موضع الأسماء لم يجز لك، ألا ترى أنك لو قلت: إن يضرب يأتينا وأشباه هذا لم يكن كلامًا»[2] وكذلك فعل مع الحرف، إذ لا يحل محل فعل ولا اسم جنس فى سياق لغوى صحيح، فكانت أقسام الكلام عنده ثلاثة وهذا أساس منهجى منضبط يقوم على وصف المادة اللغوية وتصنيفها دون اعتماد على المعنى[3].

وسوف نعرض الآن لاستخدام سيبويه النهج الاستبدالى فى إطار كل قسم من هذه الأقسام محددين العناصر الاستبدالية، ودور الاستبدال فى تحديد استخدامها اللغوى، ثم نتحدث عن تقارض الأقسام فى الاستبدال.

---

(١) Mosel, Die Syntaktische, Teriminologie, S. 12.

(٢) سيبويه: الكتاب ١/١٤.

(٣) راجع فى تفصيل ذلك كتابى: الاسم والصفة فى النحو العربى والدراسات الأوروبية (الإسكندرية ١٩٩٢) ص ١٤ وما بعدها.

أولاً: الاسم:

استخدم سيبويه النهج الاستبدالى فى إطار قسم الاسم تحقيقًا لما يأتى:

١- تحديد الأنواع التى تنتمى إلى قسم الاسم، فعد كلمات الإشارة كلها والضمائر كلها أسماء لأن كلا منها يقع موقع الاسم الأصلى، ويقوم بوظيفته، وأمثلته شاهدة على ذلك[١].

- أخوك عبد الله معروفًا.

- هذا عبد الله معروفًا.

- هو زيد معروفًا.

وعد اسم الفاعل فى الأسماء لأنه يقع موقع الاسم الأصلى أيضًا، يقول:

«ولو قال: آلدار أنت نازل فيها فجعل نازلاً اسمًا رفع كأنه قال:

آلدار أنت رجل فيها

«ولو قال: أزيد أنت ضاربه فجعله بمنزلة قولك:

أزيد أنت أخوه، جاز»[٢].

وعدّ "أفْعل" فى الأسماء أيضًا؛ لأنها تقع موقع الاسم الأصلى، وهذا واضح فى قوله: «ومما لا يكون فى الاستفهام إلا رفعًا قولك:

أعبد الله أنت أكرم عليه أم زيد.

---

(١) سيبويه: الكتاب ٧٨/٢، ٨٠.

(٢) سيبويه: الكتاب ١٠٩/١.

أعبد الله أنت له أصدق أم بشر كأنك قلت:

أعبد الله أنت أخوه أم عمرو»[1].

وعدّ عددًا آخر من الكلمات الجامدة فى الأسماء لوقوعها موقع الاسم الأصلى أو لكونها تتم مع عنصر آخر كلامًا يحسن السكوت عليه، فقال فى الإشارة إلى اسمية المصدر: «وتقول: أزيد أنت له أشد ضربًا أم عمرو؟... فالمصدر ههنا كغيره من الأسماء كقولك: أزيد أنت له أطلق وجهًا أم فلان؟»[2] وقال فى الإشارة إلى اسمية الموصول وصلته: «كما أن "الذين فعلوا مع صلته" بمنزلة اسم»[3]، وقال أيضًا: «والذى يأتينى بمنزلة عبد الله»[4]، وقال فى الإشارة إلى اسمية "قط": «لو لم تكن اسمًا لم تقل: قطك درهمان فيكون مبنيًا عليه»[5]، وقال فى الإشارة إلى اسمية "حسب": «واعلم أنهم إنما قالوا: حسبك درهم وقطك درهم فأعربوا حسب لأنها أشد تمكنًا»[6]، وقال فى الإشارة إلى اسمية أنْ وصلتها: «إذا قلت: أخشى أن تفعل فكأنك قلت: أخشى فعلك، أفلا ترى أن " أن تفعل" بمنزل الفعل»[7]، وقال: «وتقول: اذكر أن تلد ناقتك أحبُّ إليك أم أنثى كأنه قال: اذكر نتاجها أحب إليك أم أنثى»[8]، وقال فى الإشارة إلى اسمية أنَّ ومعموليها: «وتقول: بلغنى أنك

---

(١) السابق ١/١٣٢.
(٢) السابق ١/١٣٢.
(٣) السابق ١/١٨٦.
(٤) السابق ٣/١٠٢.
(٥) السابق ٣/٢٦٨.
(٦) السابق ٣/٢٦٨، وانظر ١/٦٧.
(٧) سيبويه: الكتاب ٣/٦.
(٨) السابق: ١/ ١٣١.

منطلق كأنك قلت: "بلغنى ذاك"[1]، وقال: «ألا ترى أنك تقول: بلغنى أن زيدًا جاء، فأن زيدًا جاء كله اسم»[2].

٢- تحديد المواقع التى تتوارد عليها العناصر الاستبدالية فـي سـياقات محددة وهذه العناصر قد تكون مفردات أو عبارات أو جملاً.

- فمن ذلك قوله: «هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه حال وقـع فيه الأمر فانتصب لأنه موقوع فيه الأمر، وذلك قوله: قتلته صـبرًا، ولقيتـه فجاءة، ومفاجأة، وكفاحًا ومكافحة... وليس كل مصدر وإن كان فى القيـاس مثل ما مضى من هذا الباب يوضع هذا الموضع؛ لأن المصدر ههنـا فـى موضع فاعل إذا كان حالاً، ألا ترى أنه لا يحسن أتانا سرعة، ولا أتانا رجلة، كما أنه ليس كل مصدر يستعمل فى باب سقيا وحمدا»[3].

- وقوله: «ومثل ذلك قولك للرجل: أجئتنا بغير شىء، أى: رائقًا»[4].

- وقوله: «هذا باب ما ينتصب من الأسماء التى ليـست بـصفة ولا مصادر لأنه حال يقع فيه الأمر، وذلك قولك: كلمته فاه إلى فىّ، وبايعته يـدًا بيد كأنه قال: كلمته مشافهة وبايعته نقدًا، أى: كلمته فى هذه الحال»[5].

- وقوله: «وتقول: لأضربنه ذهب أو مكث كأنه قال: لأضربنه ذاهبًا أو ماكثًا»[6].

---

(١) السابق ١١٩/٣.
(٢) السابق ١١/٣.
(٣) السابق ٣٧٠/١.
(٤) السابق: ٣٠٣/٢.
(٥) سيبويه: الكتاب ٣٩١/١.
(٦) السابق ٣/ ١٨٥.

- وقوله: «ألا ترى أنك تقول: أنت الرجل أن تُنازل أو أن تخاصم كأنك قلت: نزالاً وخصومة»[1].

وقوله: «واعلم أن لا[2] وما عملت فيه فى موضع ابتداء، كما أنك إذا قلت: هل من رجل فالكلام بمنزلة اسم مرفوع مبتدأ، وكذلك ما من رجل، وما من شئ، والدليل على أن "لا رجل" فى موضع اسم مبتدأ، و«ما من رجل» فى موضع اسم مبتدأ فى لغة تميم قول العرب من أهل الحجاز: لا رجل أفضل منك، وأخبرنا يونس أن من العرب من يقول: ما من رجل أفضل منك، وهل من رجل خير منك»[3]، ويقول: «وقال الخليل رحمه الله: يدلك على أن "لا رجل" فى موضع اسم مبتدأ مرفوع قولك: لا رجل أفضل منك كأنك قلت: زيد أفضل منك»[4]،

- وقوله: «وتقول هذا رجل ضربنا فتصف بها النكرة وتكون فى موضع ضارب إذا قلت هذا رجل ضارب»[5].

- وقوله: «وتقول: كل رجل يأتيك فاضرب، نصب لأن يأتيك ههنا صفة فكأنك قلت: كل رجل صالح اضرب»[6].

- وقوله: «لأنك إذا قلت: سواء علىّ أذهبت أم مكثت فهذا الكلام فى موضع سواء علىّ هذان»[7].

---

(1) السابق ١/٣٩٠.
(2) يقصد لا النافية للجنس.
(3) سيبويه: الكتاب ٢/ ٢٧٥ – ٢٧٦.
(4) السابق ٢/٢٩٣، وانظر ٢/٣١٧.
(5) السابق ١/١٦.
(6) السابق ١/١٣٦.
(7) سيبويه: الكتاب ٣/٢٨٦.

- وقوله: «... وذلك قولك: يوم الجمعة ألقاك فيه، وأقل يوم لا ألقاك فيه، وأقل يوم لا أصوم فيه، وخطيئة يوم لا أصيد فيه، ومكانكم قمت فيه، فصارت هذه الأحرف ترتفع بالابتداء كارتفاع عبد الله، وصار ما بعدها مبنيًا عليها كبناء الفعل على الاسم الأول، فكأنك قلت: يوم الجمعة مبارك، ومكانكم حسن»[١].

- وقوله: «وتقول: قد جربتك فوجدتك أنت أنت، فأنت الأولى مبتدأة والثانية مبنية عليها كأنك قلت: فوجدتك وجهُك طليق»[٢].

٣- بيان أثر استبدال علامة إعرابية بأخرى فى تغيير التركيب واختلاف تحليله:

- يقول: «وتقول: هذا من أعرف منطلق فتجعل أعرف صفة، وتقول: هذا من أعرف منطلقًا، تجعل أعرف صلة، وقد يجوز "منطلق" على حد قولك: هذا عبد الله منطلق»[٣].

- ويقول: «هذا باب يختار فيه الرفع، وذلك قولك: له علم علم الفقهاء، وله رأى رأى الأصلاء، وإنما كان الرفع فى هذا الوجه لأن هذه خصال تذكرها فى الرجل كالحلم والعلم والفضل، ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل فى حال تعلم ولا تفهم، ولكنك أردت أن تذكر الرجل بفضل فيه وأن تجعل ذلك خصلة قد استكملها كقولك: له حسب حسب الصالحين، وإن شئت نصبت فقلت: له علم علمَ الفقهاء كأنك مررت به فى حال تعلم

---

(١) السابق ١/٨٤.
(٢) السابق ٢/٢٥٩.
(٣) السابق ٢/ ١٠٧.

وتفقه»[1].

- ويقول: «وتقول: أما العلمُ فعالم بالعلم، وأما العلمَ فعالم بالعلم فالنصب على أنك لم تجعل العلم الثانى العلم الأول الذى لفظت به قبله كأنك قلت: أما العلم فعالم بالأشياء، وأما الرفع فعلى أنه جعل العلم الآخر هو العلم الأول، فصارت كقولك: أما العلم فأنا عالم به، وأما العلم فما أعلمنى به، فهذا رفع لأن المضمر هو العلم فصار كقولك: أما العلم فحسن»[2].

- ويقول: «... وهو قولك: دخلوا الأول فالأول على قولك: واحدًا فواحدًا، ودخلوا رجلاً رجلاً، وإن شئت رفعت فقلت: دخلوا الأول فالأول جعله بدلاً وحمله على الفعل كأنه قال: دخل الأول فالأول»[3].

- ويقول: «وتقول إن قريبًا منك زيدًا إذا جعلت "قريبًا منك" موضعه، وإذا جعلت الأول هو الآخر قلت: إن قريبًا منك زيد»[4].

٤- بيان العناصر التى يمتنع استبدال بعضها ببعض فى سياق محدد:

- يقول: «ولا يكون أين إلا للأماكن كما لا يكون متى إلا للأيام والليالى.. وأجر "أين" فى الأماكن مجرى "متى" فى الأيام»[5].

- ويقول مبينًا أن الاستبدال الصحيح لا يكون إلا فى إطار استبدالى صحيح: «هذا باب منه استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه على

---

(١) سيبويه: الكتاب ١/ ٣٦١.
(٢) السابق ١/٣٨٥.
(٣) السابق ١/٣٩٨.
(٤) السابق: ٢/١٤٢.
(٥) السابق: ١/٢١٩ – ٢٢٠.

غير ما وضعت العرب، وذلك قولك: ويح له وتب، وتبًا لك وويحًا، فجعلوا التب بمنزلة الويح؛ وجعلوا ويح بمنزلة التب فوضعوا كل واحد منهما على غير موضعه الذى وضعته العرب، ولابد لويح مع قبحها أن تحمل على تب، فأما النحويون فيجعلونها بمنزلة ويح، ولا يشبهها، لأن تبًا تستغنى عن "لك"، ولا تستغنى ويح عنها»[1].

– ويقول: «والأسماء[2] لا تجرى مجرى المصادر، ألا ترى أنك تقول: «هو الرجل علمًا وفقهًا ولا تقول هو الرجل خيلاً وإبلاً»[3].

– ويقول: «ولو قلت ائتنى ببارد كان قبيحًا، ولو قلت: ائتنى بتمر كان حسنًا ألا ترى كيف قبح أن يضع الصفة موضع الاسم»[4].

– ويقول: «ألا ترى أنك لو قلت: مررت بهو الرجل لم يجز ولم يحسن ولو قلت: مررت بهذا الرجل كان حسنًا جميلاً»[5].

ثانياً: الفعل:

قبل أن نعرض للنهج الاستبدالى فى إطار قسم الفعل نود أن نشير إلى أن سيبويه حدد الإطار التوزيعى للأفعال بلزوم وقوعها بعد واحد من الحروف الآتية: إنْ، لو، قد، سوف، لَما، لم، هلاّ، لولا، لوما، ألا، وحروف الاستفهام فى أصل الاستخدام فإن استخدام اسم بعدها كان على إضمار فعل،

---

(١) سيبويه: الكتاب ٣٣٤/١.
(٢) يقصد بالأسماء هنا أسماء الأجناس، والمصادر عنده أسماء.
(٣) سيبويه: الكتاب ٣٨٧/١.
(٤) السابق ٢٦٩/١، والصفة عنده نوع من الأسماء، انظر كتابى: الاسم والصفة فى النحو العربى والدراسات الأوروبية، ص ٣٩.
(٥) سيبويه: الكتاب ٨٨/٢.

يقول سيبويه: «ولو بمنزلة إنْ، لا يكون بعدها إلا الأفعال، فإن سقط بعدها اسم ففيه فعل مضمر فى هذا الموضع تبنى عليه الأسماء، ومن ذلك قول العرب: ادفع الشر ولو إصبعا، كأنه قال: لو دفعته إصبعًا، ولو كان إصبعًا»[1]، ويقول: «وذلك أن من الحروف حروفًا لا يذكر بعدها إلا الفعل، ولا يكون الذى يليها غيره مظهرًا أو مضمرًا، فمما لا يليه الفعل إلا مظهرًا: قد، وسوف، ولما، ونحوهن، فإن اضطر شاعر فقدم الاسم وقد أوقع الفعل على شئ من سببه لم يكن حد الإعراب إلا النصب، وذلك نحو: لم زيدًا اضربه، لأنه يضمر الفعل إذا كان ليس مما يليه الاسم... وأما ما يجوز فيه الفعل مظهرًا ومضمرًا، مقدمًا، ومؤخرًا ولا يستقيم أن تبتدأ بعده الأسماء: فهلا ولولا، ولوما وألا... وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل، إلا أنهم توسعوا فيها فابتدءوا بعدها الأسماء، والأصل غير ذلك، ألا تراهم يقولون: هل زيد منطلق؟... فإن قلت هل زيدًا رأيت وهل زيد ذهب قبح، ولم يجز إلا فى الشعر؛ لأنه لما اجتمع الاسم والفعل حملوه على الأصل»[2].

ولقد كان استخدام سيبويه النهج الاستبدالى فى إطار قسم الفعل تحقيقًا لما يأتى:

١- بعد أن بين سيبويه أنواع الفعل الثلاثة: الماضى والمضارع والأمر بذكر الصيغ الأصلية التى يرد عليها كل نوع منها ولا يرد عليها الآخر[3] بين أن الأمر منها لا يقع موقع الماضى، وأن الماضى منها لا يقع موقع المضارع فى أصل الاستخدام، يقول: «والوقف قولهم: "اضرب" فى

(١) سيبويه: الكتاب ٢٦٩/١ – ٢٧٠.
(٢) السابق ٩٨/١ – ٩٩.
(٣) السابق ١٢/١.

الأمر، لم يحركوها لأنها لا يوصف بها، ولا تقـع موقـع المـضارعة»[١]، ويقول: «ولا يجوز فعلت فى موضع أفعل إلا فى مجازاة»[٢]، ويقـول فـى موضع أخر: «وتقول: إن فعل فعلت فيكون فى معنى: إن يفعـل أفعـل»[٣]، لكن سيبويه يتنبه إلى أن الماضى يستخدم استخدام المضارع خروجًـا علـى الأصل لغرض أسلوبى فيقول: «... كما تقول: والله لا فعلت ذاك أبدًا تريـد معنى لا أفعل»[٤].

٢- لبيان أن للأفعال الناقصة القيمة التركيبية التى للأفعال التامة فى سياقات محددة، مع التنبيه إلى الفرق بينهما، يقول: «... وإن شئت قلت: كان أخاك عبد الله، فقدمت وأخرت كما فعلت ذلك فى ضرب لأنـه فعـل مثلـه، وحال التقديم والتأخير فيه كحاله فى ضرب إلا أن اسم الفاعل والمفعول فيـه لشئ واحد، وتقول: كنّاهم كما تقول: ضربناهم، وتقول: إذا لم نكنهم فمـن ذا يكونهم كما تقول إذا لم نضربهم فمن يضربهم»[٥]، ويقول: «وتقول: من كان أخاك ومن كان أخوك، كما تقول: من ضرب أباك إذا جعلت مَنْ الفاعل ومن ضرب أبوك إذا جعلت الأب الفاعل، وتقول ما كان أخاك إلا زيـد كقولـك: ما ضرب أخاك إلا زيد»[٦].

٣- لبيان أن ثمة أفعالاً تقع فى سياقات محددة ولا تقع فى سـياقات أخرى، يقول: «... وذلك أنه لا يجوز لك أن تقول للمخاطب اضـربك، ولا

---

(١) سيبويه: الكتاب ١/١٧.
(٢) السابق ٣/٥٥.
(٣) السابق ١/ ١٦.
(٤) السابق ٣/١٠٨.
(٥) السابق ١/٤٥ - ٤٦.
(٦) السابق ١/٥٠.

اقتلك، ولا ضربتك، لما كان المخاطب فاعلاً وجعلت مفعوله نفسه قبح ذلك؛ لأنهم استغنوا بقولهم اقتل نفسك وأهلكت نفسك عن الكاف ههنا وعن إياك»[1]، ويقول: «... لو قلت: يظن نفسه فاعلة وأظن نفسى فاعلة، على حد يظنه وأظننى ليجزئ هذا من ذا لم يجزئ كما أجزأ أهلكت نفسك عن أهلكتك فاستغنى به عنه»[2]، ويقول وإذا أردت برأيت رؤية العين لم يجز رأيتنى لأنها حينئذ بمنزلة ضرب»[3].

٤- لاختبار تعدى الفعل إلى مفعولين أو إلى مفعول واحد، ولكى يصل إلى حكم صحيح استبدل بالفعل فعلاً لازمًا نصب اسمًا بعد استيفاء فاعله فانتهى إلى الحكم بنفى مفعوليته يقول: «... وذلك قولك: ضربت عبد الله قائمًا، وذهب زيد راكبًا، فلو كان بمنزلة المفعول الذى يتعدى إليه فعل الفاعل نحو عبد الله وزيد ما جاز فى ذهبت»[4].

٥- للنظر فى علاقة الحالة الإعرابية بالمعنى فى سياق محدد، ولكى يصل إلى تحديد هذه العلاقة استبدل حالة الجزم فى الفعل فى سياق محدد بحالة النصب، ثم بحالة الرفع، يقول: «وتقول: كتبت إليه أن لا تقل ذاك، وكتبت إليه أن لا يقول ذاك، وكتبت إليه أن لا تقول ذاك، فأما الجزم فعلى الأمر، وأما النصب فعلى قولك: لئلا يقول ذاك، وأما الرفع فعلى معنى قولك: لأنك لا تقول ذاك، أو بأنك لا تقول ذاك، تخبره بأن ذا قد وقع من أمره»[5].

---

(١) سيبويه: الكتاب ٣٦٦/٢.
(٢) السابق ٣٦٧/٢.
(٣) السابق ٣٦٨/٢.
(٤) السابق ٤٤/١.
(٥) سيبويه: الكتاب ١٦٦/٣.

ثالثًا: الحـرف:

والحرف المقصود هنا قسمًا من أقسام الكلم ليس حرف مبنى، بل هو حرف معنى، فالاستبدال يجرى على حروف المعانى، أمـا الإبـدال فعلـى حروف المبانى وقد استخدم سيبويه النهج الاستبدالى فى إطـار هـذا القـسم تحقيقًا لما يأتى:

١- لبيان الاختلاف فى التحليل النحوى إذا وقعت "إنْ" موقع "إما" فى سياق محدد، يقول: «وما يجرى ما بعدها ههنا على الابتداء وعلـى الكـلام الأول، ألا ترى أنك تقول قد كان ذلك إما صلاحًا وإما فسادًا كأنك قلت: قـد كان ذلك صلاحًا أو فسادًا ولو قلت: قد كان ذلك إن صلاحًا وإن فسادًا كـان النصب على كان أخرى»[1].

٢- لبيان أن استبدال الفاء بالواو فى سياق محدد يفسد المعنى، يقول: «وتقول لا تأكل السمك وتشرب اللبن، فلو أدخلت الفاء ههنا فـسد المعنـى، وتقول: لا يسعنى شئ ويعجز عنك فانتصاب الفعل ههنا من الوجـه الـذى انتصب به فى الفاء إلا أن الواو لا يكون موضـعها فـى الكـلام موضـع الفاء»[2].

٣- لبيان أن حرفا ما يستخدم فى سياق محدد لا يستبدل به غيره وإن كان من نوعه يقول: «وقالوا يا للعجب ويا للماء.. وكل هذا فى معنى التعجب والاستغاثة، ولم يلزم فى هذا الباب إلا "يا" للتنبيه... ولا يكون مكـان "يـا" سواها من حروف التنبيه نحو أى، وهيا، وأيا لأنهم أرادوا أن يميزوا هذا من

---

(١) السابق ١/٢٦٨.

(٢) السابق ٣/٤٢ – ٤٣.

ذلك الباب الذى ليس فيه معنى استغاثة ولا تعجب»[1].

تقارض الأقسام فى الاستبدال:

ونعنى به استبدال عنصر لغوى ينتمى إلى قسم من أقسام الكلم بعنصر لغوى ينتمى إلى قسم غيره فى سياق لغوى صحيح، وذلك على النحو الآتى:

١- **استبدال المضارع باسم الفاعل**، ويعلل سيبويه صحة هذا الاستبدال فى سياق محدد بقوله: «وإنما ضارعت أسماء الفاعلين أنك تقول: إن عبد الله ليفعل فيوافق قولك: لفاعل، حتى كأنك قلت: إن زيدًا لفاعل فيما تريد من المعنى، وتلحقه هذه اللام، ولا تلحق فَعَل اللام»[2]، وينبه سيبويه إلى أن وقوع المضارع موقع اسم الفاعل لا يعنى أنه أصبح اسمًا بقوله: «ويبين لك أنها ليست أسماء أنك لو وضعتها موضع الأسماء لم يجز ذلك، ألا ترى أنك لو قلت: إن يضرب يأتينا وأشباه هذا لم يكن كلامًا[3].

٢- **استبدال المضارع فى سياق محدد بالمصدر**، واستبدال المصدر به يقول سيبويه: «كأنه إذا قال: هنيئًا له الظفر فقد قال: ليهنئ له الظفر وإذا قال: ليهنئ له الظفر فقد قال: هنيئًا له الظفر، فكل واحد منهما بدل من صاحبه»[4].

ولعل هذا هو الموضع الوحيد الذى استخدم فيه سيبويه لفظ "بدل" فى

---

(١) سيويه: الكتاب ٢/٢١٧ – ٢١٨.
(٢) السابق ١/١٤.
(٣) السابق ١/١٤ – ١٥، وانظر ١/٢٠، ١٣٠، ١٦٤، ج ٢، ص ١٣٢.
(٤) سيبويه: الكتاب ١/ ٣١٧.

الدلالة على استبدال عنصر لغوى بآخر[1].

٣- استبدال اسم الفاعل بالماضى فى سياق محدد، يقول سيبويه: «... وهذا شبيه فى النصب لا فى المعنى بقوله تبارك وتعالى: جاعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، لأنه حين قال: جاعل الليل فقد علم القارئ أنه على معنى جعل، فصار كأنه قال: وجعل الليل سكنًا، وحمل الثانى على المعنى»[2].

٤- استبدال الاسم بالحرف فى سياق محدد: يقول: وكل موضع جاز فيه الاستثناء بـ "إلا" جاز بغير، وجرى مجرى الاسم الذى بعد إلا لأنه اسم بمنزلته وفيه معنى إلا»[3].

٥- استبدال الحرف بالاسم فى سياق محدد، يقول: «واعلم أن "لا" قد تكون فى بعض المواضع بمنزلة اسم واحد هى والمضاف إليه ليس معه شىء، وذلك نحو قولك: أخذته بلا ذنب، وأخذته بلا شىء، وغضبت من لا شىء، وذهبت بلا عتاد، والمعنى ذهبت بغير عتاد، وأخذته بغير ذنب[4].

٦- استبدال الحرف بالفعل فى سياق محدد: يقول سيبويه: «وذلك قولك: ليس زيد ذاهبًا، ولا أخوك منطلقًا، وكذلك ما زيد ذاهبًا ولا معن خارجًا»[5]، وقد نبه سيبويه إلى أن "ما" لا تقع فى كل سياق ترد فيه ليس

---

(١) قارن هذا بـ Troupeau, p.37.
(٢) سيبويه: الكتاب ١/ ٣٥٦.
(٣) السابق ٣٤٣/٢.
(٤) السابق: ٢/ ٣٠٢.
(٥) السابق ١/ ٦٠.

فقال: «كما أن ما لم تقو قوة ليس، ولم تقع فى كل مواضعها»[1].

(٤)

ظاهر مما قدمنا أن النهج الاستبدالى عند سيبويه أساس منهجى منضبط فى التحليل النحوى استطاع به أن يحدد الأقسام الموقعية الكبرى بتقسيمه للكلم إلى ثلاثة أقسام، ثم عاد إلى كل قسم فبيّن بهذا النهج أنواعه، والعلاقات الاستبدالية بين كل نوع، والإطار التوزيعى له، وصولاً إلى تحديد العناصر الاستبدالية التى يمكن أن يحل أحدها محل الآخر فى سياق كلامى محدد، والعناصر غير الاستبدالية التى لا يمكن لأحدها أن يحل محل الآخر، ولم تكن العناصر الاستبدالية عنده مقتصرة على العناصر المفردة، بل امتدت لتشمل أنواعًا من الضمائم والجمل.

وقد استطاع بالاستبدال أيضًا أن يحدد المواقع الوظيفية التى تشغلها هذه العناصر الاستبدالية، ولم يغفل العلامة الإعرابية ولا الحالة الإعرابية، بوصفهما عنصرين قابلين للاستبدال فى لغة معربة وبيان أثر استبدال علامة إعرابية بأخرى، أو حالة إعرابية بأخرى، فى تغير التركيب مع صحته أو فساده، ثم تغير التحليل النحوى تبعًا لذلك، وقد عنى سيبويه أيضًا بما اصطلحنا عليه بتقارض الأقسام فى الاستبدال فبين أن نوعًا من الأفعال قد يستبدل بنوع من الأسماء، وأن اسمًا قد يستبدل بحرف، وأن حرفًا قد يستبدل باسم، وأن حرفًا قد يستبدل بفعل فى سياقات لغوية محددة، ولكنه نبه إلى أن ذلك لا يعنى انتقال العنصر اللغوى من القسم الذى ينتمى إليه إلى القسم الذى وقع معه فى علاقة استبدالية، فذلك أمر مشروط بسياق محدد ورد به

---

(١) السابق ١/١٢٢ – ١٢٣.

الاستعمال لا يجوز فى غيره.

ولا يظنَّنَّ ظانٌ أننا نحمل على سيبويه تصورًا حديثًا لم يخطر له ببال، فما عرضنا شيئًا من هذا النهج إلا موثقًا بنصوص سيبويه، ومن البدهى أن سيبويه لم يعرض جوانب هذا النهج، على النحو الذى فصلناه فى موضع واحد من كتابه، ولم يستخدم ما استخدمناه من مصطلحات، ذلك بأنه – كما قلنا – لم يعن ببيان الأسس المنهجية التى يصدر عنها، فلم يضطر إلى وضع مصطلحات لها، بل عمد إلى الاستخدام العملى المباشر لهذه الأسس مراوحًا بينها فى كثير من الأحيان، ويمكننا أن نقول: إن ما قدمناه فى هذا البحث هو "إعادة تركيب" لهذا النهج الشائع فى كتابه فى مواضع متناثرة متباعدة بعد أن قرأنا كتابه كله قراءة مستأنية متأملة ولعل من المفيد الآن أن نقارن بين تصور التوزيعيين لهذا النهج وتصور سيبويه له مبينين أوجه الالتقاء وأوجه الافتراق:

أولاً: أوجه الالتقاء:

١- يلتقى التوزيعيون وسيبويه فى الاعتماد على الأساس الشكلى البعيد عن الأسس العقلية المفترضة والنواحى الدلالية، وكثيرًا ما ترد كلمة المعنى عند سيبويه دالة على المعنى التركيبى لا الدلالى، والمعنى التركيبى structural meaning مصطلح معروف عند الوصفيين من علماء اللغة[١].

٢- الاستبدال عند كل منهما نهج أساسى للوصول إلى تحديد العناصر اللغوية وبيان توزيعها ومواقع استبدالها.

---

(١) Fries, C.C.: The structure of English, New York, 1952, p. 106, 173 ff.

٣- يلتقى كل منهما فى أن العناصر الاستبدالية هى العناصر الموقعية التى تتوارد على موقع وظيفى واحد فى سياق كلامى محدد.

٤- من اليسير أن نجد للأنماط التوزيعية الثلاثة نظائر فى كتاب سيبويه فكل فرد من أفراد اسم الجنس عنده مثلاً معادل توزيعى للآخر، وبين اسم الجنس أو علم الشخص عند سيبويه مثلاً والضمير علاقة اشتمال إذ يقع كل منهما فى كل المواقع التى يقع فيها الضمير، ولا يقع الضمير فى كل المواقع التى يقع فيها اسم الجنس أو علم الشخص، فهما مثلاً يوصفان ولا يوصف الضمير، وبين اسم الجنس واسم الفاعل مثلاً توزيع متقاطع، إذ يمكن أن يقعا فى سياق لغوى واحد حيناً، ولا يمكن ذلك فى حين آخر، وبين أين مثلاً ومتى توزيع متكامل حين يكون الأول استفهامًا عن المكان والثانى استفهامًا عن الزمان ولا يقع أى منهما فى سياق يقع فيه الآخر[١].

٥- يظهر الفرق بين الاستبدال عند سيبويه أساسًا منهجيًا، والإبدال أو البدل عنده ظاهرة صوتية أو صرفية، أو صوتية صرفية، وبعض هذا الفرق ملحوظ عندهم بين المصطلحين substitution و mutation.

ثانيًا: أوجه الافتراق:

١- التوزيعية مذهب متكامل له أصوله النظرية وإجراءاته العملية ومصطلحاته المحددة، والاستبدال فيه يقوم بدور أساسى فى تقطيع الكلام إلى المورفات، وهى الوحدات الصغرى للكلام عندهم، وتصنيفها وتجميعها فى

(١) انظر كتابى: الاسم والصفة فى النحو العربى والدراسات الأوروبية ص ٢٤ وما بعدها.

مورفيمات، وتصنيف المورفيمات وتجميعها فى أنواع، ثم تجميع أنواع المورفيمات فى أقسام موقعية، أما الاستبدال فى كتاب سيبويه فهو أساس من أسس منهجية تعمل معًا جنبًا إلى جنب، وهو يبدأ مباشرة بالأقسام الموقعية دون نظر إلى المراحل التى قبلها من التقطيع والتصنيف والتجميع، والحق أن ما قام به التوزيعيون أمر يقتضيه إحكام المنهج وتحليل الجملة إلى أصغر عناصرها، لكن ليس له أثر يذكر فى صحة الاستبدال إذا وصلنا إلى الأقسام الموقعية الصحيحة دون شرح للمراحل التى تسبقها فقد وصل سيبويه إلى الأقسام الموقعية دون مرور بالوحدات الصغرى ولم يؤد ذلك إلى خطأ فى النهج الاستبدالى عنده.

٢- استخدم التوزيعيون مصطلحات محددة لهذا النهج، أهمها:

- الاستبدال	Substitution
- البديل	Substitute
- المجموعة الاستبدالية	Substitution Class
- الإطار الاستبدالى	Substitution Frame
- الجدول الاستبدالى	Substitution table
- الاختبار الاستبدالى	Substitution test

... إلخ كما استخدموا مصطلحات لبيان أنماط التوزيع هى:

- المعادل التوزيعى	Distributional equivalent
- التوزيع التقابلى	Contrastive
- التوزيع الاشتمالى	Inclusive
- التوزيع التكاملى	Complementary

أما سيبويه فلا نكاد نظفر عنده من بين كلمات كثيرة غير محددة إلا بمصطلحين اثنين أحدهما الموقع وهو يقابل position أو الوظيفة function، والآخر التعاقب/ المعاقبة، وهو يوافق التوزيع التكاملى complementary. من هنا مكان لزامًا عليه ونحن نعرض للنهج الاستبدالى عنده أن نستخدم مصطلحات التوزيعيين إذا انطبقت على ما يقدمه سيبويه من وصف للمادة اللغوية وتحليل لها.

٣- الغاية من النهج الاستبدالى فى إطاره التوزيعى واضحة عند التوزيعيين وتتمثل فى الوصول إلى تحليل دقيق للجملة يحقق مبدأين أساسيين هما: بساطة الوصف والتحليل والاقتصاد فيه.

ولا يظهر من استخدام سيبويه لهذا النهج أن تلك غايته بل تنحصر غايته فى حل مشكلات جزئية كثيرة تعرض لأجزاء التركيب لا تبلغ أن تكون منهجًا واضحًا متكاملاً فى تحليل الجملة.

وبعد، فالنظر فى الأوجه التى التقى فيها سيبويه بالفكر اللغوى المعاصر يدل دلالة قاطعة على أن سيبويه سبق عصره بقرون عديدة، وأنه يتبوأ مكانة مرموقة فى تاريخه الفكر اللغوى العالمى.

الضمائر المنعكسة
في اللغة العربية

لا يزال الدرس النحوى العربى القديم فى حاجة إلى قراءة معاصرة تفيد من اتجاهات الدرس الحديث، ومناهجه، وطرائقه فى رصد الظواهر اللغوية، ومعالجتها عن نحو مضبوط، ويمكن الكشف بها عن ظواهر لم يعرض لها النحاة القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، أو عرضوا لها ولكن لم يوفوها حقها من البحث الكاشف لها والمحيط بها. وليس من شك فى أن أجيالاً من الباحثين – وبخاصة من اتصل منهم بعلم اللغة الحديث دراسة وفهمًا – حاولوا، ويحاولون الآن الإفادة من جهود علماء اللغة المحدثين فى أوربا وأمريكا فى تجديد نظرتهم لتراثنا النحويّ كله، والكشف عن كنوزه المخبوءة، وإثرائه، والإضافة إليه، وإبراز عناصر القوة فيه، وإصلاح ما قد يكون فيه من جوانب النقص والقصور.

والنحاة العرب لم يعرفوا مصطلح "الضمائر المنعكسة" reflexive pronouns وإن عرفوا بعض ما يدخل فيه، ويندرج تحته، وعرفه نحاة بعض اللغات الأخرى، واستخدموا لما يدل عليه مصطلحًا بديلاً هو "الأفعال المنعكسة reflexive verben [(١)] وهم يرون أن الضمير يكون منعكسًا إذا كان مفعولاً للفعل، متحدًا coreferential مع الفاعل أو عائدًا إليه[(٢)]، والأفعال المنعكسة عندئذ هى الأفعال التى يكون معها الفاعل والمفعول به متطابقين أو عائدين إلى شخص واحد[(٣)].

وقد عرف نحاة العربية هذه الظاهرة من خلال درسهم لما أسموه

---

(١) Gerbe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartsprache Duden 4 (Mannheim 1973) S. 75.

(٢) Perlmutter, D. & Soames, S. Syntactic Argumentation and the Structure of English (U.S.A. 1979) p. 9.

(٣) Helbig, G. & Deutsche Grammatik (Leipzig 1980) S. 65.

"أفعال القلوب" وهى عند بعضهم سبعة أفعال: ظن، وحسب، وخال، وزعم، وعلم (إذا لم تكن بمعنى عرف)، ورأى (إذا لم ترد رؤية العين)، ووجد (إذا لم ترد وجدان الضالة)[١]. وأضاف إليها بعضهم "عدم"، و"فقد" إذا كانتا للدعاء، و"هَبْ" (بمعنى احسب)[٢] وذكروا أن من خصائصها "أنك تجمع فيها بين ضميرى الفاعل والمفعول فتقول: علمتُنى منطلقًا ووجدتَكَ فعلت كذا، ورآه عظيمًا، وقد أجرت العرب عدمت وفقدت مجراها، فقالوا: "عدمتُنِى وفقدتُنِى"[٣]. ولما كان هذا من خصائص "أفعال القلوب" فقد نصوا على أن ذلك لا يجوز فى غيرها، بل يتوصل إلى التعبير عن هذا المعنى فى غير افعال القلوب بطريقة أخرى سنعرض لها.

ونود قبل الخوض فى وصف هذه الظاهرة تركيبيًا ودلاليًا أن نعرض لما جاء عنها فى كتب النحو العربى، لنقف على ما وصلوا إليه فيها، ونعرف أى مدى بلغوه فى الكشف عنها والإحاطة بها:

جاء فى كتاب سيبويه: «هذا باب لا تجوز فيه علامة المضمر المخاطب، ولا علامة المضمر المتكلم، ولا علامة المضمر المحدث عنه الغائب، وذلك أنه لا يجوز لك أن تقول للمخاطب: اضربْكَ، ولا اقتلْكَ، ولا ضربْتَكَ، لما كان المخاطب فاعلاً وجعلت مفعوله نفسه قبح ذلك، لأنه استغنوا بقولهم اقتُل نفسك وأهلكتَ نفسك، عن الكاف ها هنا وعن إياك.

---

(١) سيبويه: الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٩٦٦ – ١٩٨٧) ٢/٣٦٧، الزمخشرى: المفصل فى علم العربية (بيروت د. ت) ص ٢٥٩.
(٢) الزمخشرى: المفصل ص ٢٦٢، الرضى: شرح الكافية لابن الحاجب (القاهرة ١٣١٠هـ) ٢/٢٨٥.
(٣) الزمخشرى: المفصل ص ٢٦٢.

وكذلك المتكلم، لا يجوز له أن يقول أهلكتُنِى ولا أُهْلِكُنى لأنه جعل نفسه مفعوله فقبح، وذلك لأنهم استغنوا بقولهم أنفع نفسى عن "تـى"، وعن "إياى".

وكذلك الغائب لا يجوز لك أن تقول ضربه إذا كان فاعلاً وكان مفعوله نفسه، لأنهم استغنوا عن الهاء وعن إيا بقولهم ظلم نفسه وأهلك نفسه، ولكنه قد يجوز ما قبح ها هنا فى حسبت وظننت وخلت، وأرى وزعمت، ورأيت إذا لم تعن رؤية العين، ووجدت إذا لم ترد وجدان الضالة، وجميع حروف الشك، وذلك قولك حسبتُنى وأرانى ووجدتُنِى فعلت كذا وكذا، ورأيتُنى لا يستقيم لى هذا، وكذلك ما أشبه هذه الأفعال، تكون حال علامات المضمرين المنصوبين فيها إذا جعلت فاعليهم أنفسهم كحالها إذا كان الفاعل غير المنصوب.

ومما يثبت علامة المضمرين المنصوبين هنا هنا أنه لا يحسن إدخال النفس ها هنا، لو قلت يظن نفسه فاعلة وأظن نفسىَ فاعلة على حد يظنه وأظننى ليجزئ هذا من ذا لم يجزئ كما أجزأ أهلكت نفسكَ عن أهلكتك، فاستغنى به عنه..... وإذا أردت برأيت رؤية العين لم يجز رأيتُنِى، لأنه حينئذ بمنزلة ضربت"[١].

وجاء فيه أيضًا: «ولا يجوز أن تقول ضربتُنِى، ولا ضربتُ إياى، لا يجوز واحدٌ منها لأنهم استغنوا عن ذلك بضربتُ نفسى، وإياى ضربتُ»[٢].

هذان النصان النفيسان من كتاب سيبويه تردد صداهما من بعد فى

(١) سيبويه: الكتاب ٣٦٦/٢ – ٣٦٨.
(٢) السابق ٣٦٦/٢.

كتب النحاة الخالفين، وأضاف بعضهم إلى ما جاء فيهما تفصيلات من الأهمية بمكان، سنعرض لها إن شاء الله.

ويمكننا أن نلحظ فى كلام سيبويه ما يأتي:

١- فهم سيبويه ظاهرة "الانعكاس" كما فهمها نحاة الغرب، دون أن يضع لها مصطلحًا خاصًا كما فعلوا، بل جعلها جزءًا من تعديه الفعل إلى المفعول، فالرجل يدرك ما حددوا به معنى "الانعكاس" وهو أن يوقع الفاعل الفعل بنفسه، فيكون الفاعل مفعولاً به، وعبارته صريحة في ذلك: «....... لا يجوز له أن يقول أهلكتُنى ولا أُهلِكُنى لأنه جعل نفسه مفعوله...".

٢- حدد سيبويه الضمائر التى تحمل هذا المعنى بضمائر النصب والجر المتصلة وهى ياء المتكلم وكاف المخاطب، وهاء الغائب، ثم "إيا" مقدمة مضافًا إليها ضمائر التكلم والخطاب والغيبة، واستبعد بذلك أن تحمل ضمائر الرفع هذا المعنى، ومثل هذا نجده عند نحاة الألمانية، إذ ينصون على أن الضمائر المنعكسة لا تستخدم إلا فى حالتى النصب والجر، ولا يمكن أن تستخدم فى حالة الرفع(١).

٣- ذكر سيبويه أن هذه الضمائر ترد مباشرة مع بعض الأفعال، وقد ترد مسبوقة بكلمة "نفس" أو "إيا"، وواضح أن سيبويه يسوى بين قولك، ضربتُ نفسى، وإياى ضربتُ، ومع أنه يمنع: ضربتُ إياى، فقد أورد فى موضعين من كتابه شاهدًا يدل على استخدمه، وهو قول ذى الإصبع العدوانى:

---

(١) Grebe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache, Duden 45. 276.

كَأَنَّا يَــوْمَ قُــرَّى إِ   نمَا نَقْتُــلُ إِيَّانَــا[1]

أى: نقتل أنفسنا، وقد حمل سيبويه هذا الشاهد على الضرورة.

٤- ما ذكره سيبويه يدل على أن الأفعال مع الضمائر المنعكسة تتصرف تصرفها مع غيرها فترد ماضية، ومضارعة، وأفعال أمر، وقريب من ذلك موجود فى غير العربية أيضًا كاللغة الألمانية، فإن الأفعال المنعكسة فيها تستخدم من حيث الزمن Tempus ودلالة الصيغة Mudus استخدام الأفعال غير المنعكسة[2].

٥- عرض سيبويه لتوزيع[3] هذه الضمائر محددًا استخدامها الصحيح والمواضع التى تخرج فيها على الصحة النحوية، ويمكننا أن نوضح ذلك على النحو الآتى:

(١) أ - *(أنا) ضربتنى.

ب - *(أنت) ضربتَكَ.

ج - *(هو) ضربَهُ.

(٢) أ - (أنا) ضربتُ نفسِى (إياى ضربتُ).

ب - (أنت) ضربتَ نفسك (إياك ضربتَ).

ج - (هو) ضربَ نفسه (إياه ضَرَبَ).

---

(١) سيبويه: الكتاب ١١١/٢، ٣٦٢، والرضى: شرح الكافية ١٤/٢.

(٢) Helbig & Buscha: Deutsche Grammatik, S. 176.

(٣) انظر فى توزيع الضمائر المنعكسة وغير المنعكسة فى اللغة الإنجليزية:
Perlmutter & Soames: Syntactic Argumentation, p. 8.

(٣) أ – *(أنا) ظننتُ نفسى مجتهدًا.

ب – *(أنت) ظننتَ نفسَك مجتهدا.

ج – *(هو) ظنّ نفسَه مجتهدا.

(٤) أ – (أنا) ظننتُنى مجتهدا.

ب – (أنت) ظننتَكَ مجتهدا.

ج – (هو) ظنَّه مجتهدا.

بمقارنة هذه المجموعات يتضح أن الضمائر المتصلة التى تتحد مع الفاعل أو تعود إليه نوعان: ضمائر مسبوقة بكلمة نفس، وضمائر غير مسبوقة بها، وحيث تجوز هذه لا تجوز تلك، وهى فى الحالة الثانية مفعول مباشر للفعل، وفى الحالة الأولى انتقل حكم الضمير إلى كلمة نفس، فوقعت مفعولاً به، وأضيف الضمير إليها، والأفعال التى يرد معها ضمير المفعول عائدًا على ضمير الفاعل غير مسبوق بكلمة "نفس" أفعال محدودة، تكون مجموعة "مغلقة" من الأفعال حددها النحاة بعشرة أفعال، أما الأفعال التى يرد ضمير المفعول معها عائدًا على ضمير الفاعل مسبوقًا بكلمة "نفس" فهى مجموعة مفتوحة" تشمل سائر الأفعال.

وإذا جاز لنا أن نعتد الأمثلة التى وردت فى رقم (١) بنية باطنة عميقة deep structure "تحولت" فى الأمثلة التى وردت فى رقم (٢) إلى بنية سطحية ظاهرة surface structure جاز لنا أن نعتد الأمثلة التى وردت فى رقم (٣) بنية باطنة "تحولت" فى الأمثلة التى وردت فى رقم (٤) إلى بنية سطحية ظاهرة، وإذا جاز أن يكون الضمير المنعكس مسبوقًا بـ "نفس" أو

"إيا" فى رقم (٢)، فإنه لا يجوز أن يكون كذلك فى رقم (٤)، ويجوز لنا بعد ذلك أن نضع قاعدتين إجباريتين "تتولد" بهما الضمائر المنعكسة، وتـشملان المادة اللغوية السابقة الواردة فى كتاب سيبويه.

القاعدة الأولى:

إذا كان الضمير مفعولاً أول لفعل من أفعال القلوب عائدًا على الفاعل كان ضميرًا منعكسًا.

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل فى غير أفعال القلـوب مـسبوقاً بكلمة نفس أو إيا كان ضميرًا منعكسًا.

وعلى أساس من هاتين القاعدتين يمكن استبعاد أن تكون الضمائر فى الأمثلة الآتية ضمائر منعكسة:

(٥) أ – (أنا) ضربتُك.

ب – (أنا) ضربتُه.

(٦) أ – (أنت) ضربتَنى.

ب – (أنت) ضربتَه.

(٧) أ – (هو) ضربنى.

ب – (هو) ضربك.

(٨) أ – (أنا) ظننتُك...

ب – (أنا) ظننتُه...

(٩) أ - (أنت) ظننتنى...

ب - (أنت) ظننته...

(١٠) أ - (هو) ظنَّنى...

ب - (هو) ظنَّك...

كذلك لا يمكن أن "تتولد" بهما التراكيب السطحية الآتية:

(١١) أ - *(أنا) ضربتُ نفسَك.

ب - *(أنا) ضربتُ نفسَه.

(١٢) أ - *(أنت) ضربتَ نفسى.

ب - *(أنت) ضربتَ نفسه.

(١٣) أ - *(هو) ضرب نفسى.

ب - *(هو) ضرب نفسك.

(١٤) أ - *(أنا) ضربتُنى.

ب - *(أنت) ضربتَك.

ج - *(هو) ضربَه.

(١٥) أ - *(أنا) ظننتُ نفسى...

ب - *(أنا) ظننتُ نفسَك...

ج - *(أنا) ظننتُ نفسَه...

(١٦) أ - *(أنت) ظننتَ نفسَك...

ب - *(أنت) ظننتَ نفسى...

ج - *(أنت) ظننتَ نفسه...

(١٧) أ - *(هو) ظن نفسه...

ب - *(هو) ظن نفسى...

ج - *(هو) ظن نفسك...

ولا يمكن بهما أيضًا إنتاج جمل "نحوية" فى البنية السطحية مثل:

(١٨) أ - *نفسى ضربتنى.

ب - *نفسُك ضربتك.

ج - *نفسُه ضربته.

ولنشر الآن إلى ملحظ نراه ضروريًا فى المادة اللغوية السابقة، فقد حكمنا على (١٤ج): هو ضربه بأنها غير صحيحة نحويًا، بناء على القاعدة الثانية على أساس أن الضارب هو المضروب كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هـو ضـربه

أ أ

لكن هذه الجملة تحتمل أن يكون الضارب فيها غير المضروب، فلا يعود فيها ضمير المفعول على ضمير الفاعل، كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هـو ضـربه

أ ب

ولذلك لابد من العودة إلى البنية الباطنة التى تحتوى على الخبر المراد، فإذا كان الضارب فيها هو المضروب انطبقت عليها القاعدة الثانية فولدت منها الجملة الصحيحة نحويًا وهى: هو ضرب نفسه، وإن كان الضارب فيها غير المضروب تولدت هذه البنية: هو ضربه الصحيحة نحويًا، وبهذا نعلم أن من التراكيب السطحية الظاهرة ما لا يمكن الحكم عليه بالصحة النحوية أو انتفائها عنه إلا بعد العودة إلى البنية الباطنة العميقة، وهذا الأمر غير متحقق فى المادة اللغوية السابقة إلا فى ضمير الغائب.

ولعل من اللازم الآن أن نختبر انطباق القاعدتين اللتين وضعناهما بناء على ما ورد من أمثلة فى كتاب سيبويه على مادة لغوية مستعملة فى أوثق نص عربى وأجدره بالاعتماد عليه، وهو القرآن الكريم، والأمر فى القاعدة الأولى هين ميسور، إذ الضمائر المنعكسة "تولد" بها مع مجموعة "مغلقة" من الأفعال محددة كما ذكرنا بعشرة أفعال، فإذا ذهبنا نلتمس لها دليلاً من القرآن الكريم وجدنا أنه لم يرد من أفعال القلوب التى يعود مفعولها الأول على فاعلها غير الفعل المضارع "يرى" مسندًا إلى ضمير المتكلم، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ (يوسف:٣٦)

وغير الفعل "رأى" ماضيًا مسندًا إلى ضمير الغائب كما فى قوله تعالى:

﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (العلق: ٧)

والقاعدة منطبقة عليهما، فالضمير مفعول أول لفعل من أفعال القلوب عائد على الفاعل، فهو إذن ضمير منعكس.

فإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم لأفعال القلوب التى وردت فيه استخدامًا انعكاسيًا وهى: ظن، وحسب، ورأى، وعلم، تبين لنا أن القرآن الكريم يدخل فى عدد من المواضع "أنّ" على الضمير المنعكس على الفاعل، وأكثر ما يكون مع الغائب منعًا للبس الذى أشرنا إليه فى المثال (١٤ج)، وذلك فى قوله تعالى:

- ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ﴾ (الحشر:٢)
- ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ (يونس: ٢٢)
- ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ (يوسف: ١١٠)
- ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ (الكهف: ٥٣)
- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٤٦)
- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)
- ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٠)
- ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٤)
- ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ (المجادلة: ١٨)
- ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ (الأعراف: ١٤٩)

وظاهر أن الضمير إذا اتصل بالضمير دون أن تفصل بينهما "أنّ" فقيل: فظنوهم، أو يحسبونهم، أو: رأوهم، أدى ذلك إلى اللبس فى البنية السطحية الظاهرة فالضمير عندئذ يحتمل العودة على الفاعل فيكون ضميرًا منعكسًا، والعودة على غير الفاعل فيكون غير منعكس.

والقرآن الكريم يلجأ إلى ذلك أيضًا إذا كان الفاعل مفصولاً عن ضمير النصب المنعكس عليه، إذ لا يمكن عندئذ اتصال الضمير بالفاعل، فوسطت "أنَّ" بينهما، كما فى قوله تعالى:

- ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ (يونس: ٢٤)
- ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (المطففين: ٤)
- ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢)

وقد فصلت "إنَّ" المكسورة الهمزة بين الفاعل الظاهر والضمير المنعكس عليه فى موضع واحد فى قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (الصافات : ١٥٨)

وعلى أساس مما عرضناه من مادة لغوية ينبغى أن نعود إلى القاعدة الأولى التى وضعناها بناء على ما ورد فى كلام سيبويه والنحاة من بعده، فنجرى عليها التعديل الآتى:

القاعدة الأولى:

إذا كان مع أفعال القلوب ضمير عائد على الفاعل كان ضميرًا منعكسًا.

وننتقل الآن لننظر فيما تنطبق عليه القاعدة الثانية من القرآن الكريم، فقد ورد فيه قوله عز وجل:

- ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ١٣٠)
- ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ٢٣١)
- ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ (النمل: ٤٤)

- ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقـــــرة: ٥٤)
- ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (الأحـــزاب: ٥٠)
- ﴿فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (الحديـــــد: ١٤)
- ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (الأعــــراف: ٩)
- ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ (يوســــف: ٥٣)
- ﴿مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ (البقـــــرة: ٢٠٧)
- ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ (النـــساء: ١١٠)
- ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ (المائـــــدة: ٢٥)
- ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقـــــرة: ٤٤)
- ﴿كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقـــــرة: ١٨٧)
- ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبـــــة: ٣٦)
- ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ (الـــــنجم: ٣٢)
- ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (النــــساء: ٤٩)
- ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (النــــساء: ١٠٧)
- ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ (النــــساء: ١١٣)
- ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ (الأنعـــــام: ٢٦)
- ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعــــراف: ١٩٢)
- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ (الكهـــــف: ٢٨)
- ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (إبــــراهيم: ٢٢)

وواضح أن القاعدة الثانية تنطبق انطباقًا تامًا على العبارات القرآنيـــة

السابقة مع تعديل طفيف فيها على النحو الآتى:

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل فى غير أفعال القلـوب مـسبوقًا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) كان ضميرًا منعكسًا.

وواضح أيضًا أن الضمير فى النصوص السابقة لم يرد مسبوقًا بـــ (إيّا)، لكن ورد فى كلام سيبويه ما يجيز نحو (إياى ضربتُ).

فوجب أن يضاف إلى القاعدة فتصبح:

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل فى غير أفعال القلـوب مـسبوقًا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميرًا منعكسًا.

على أنا قد وجدنا فى القرآن الكريم شاهدًا بنى فيه الفعل للمجهـول، فلم ينعكس الضمير على الفاعل، بل انعكس على نائب الفاعل، وذلك فى قوله تعالى:

- ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النـــــساء: ٨٤)

من ثم وجب أن تعدل القاعدة مرة أخرى لتصبح:

القاعدة الثانية:

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل أو نائبه فى غير أفعـال القلـوب مسبوقًا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميرًا منعكسًا.

ولما كانت كلمة (نفس) أو جمعها، وكلمة (إيا) ترد كل منهما ملازمة

للضمير المنعكس لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها أو يذهب عن الضمير معنى الانعكاس، وتصبح الجملة التى يرد فيها "غير نحوية"، فإننا نبيح لأنفسنا أن نطلق على الضمير المسبوق بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو المسبوق بكلمة (إيا) مصطلح "ضميمة منعكسة" ليتيسر لنا الوصف التركيبى والدلالى لها.

أولاً: الوصف التركيبى:

أ – مع أفعال القلوب:

١– الضمائر المنعكسة مع أفعال القلوب لا تكون إلا ضمائر تكلم أو خطاب أو غيبة فى محل نصب وتنعكس على الفاعل ضميرًا أو اسمًا ظاهرًا، غير مفصولة عنه، أو مفصولة عنه بـ (أنَّ) أو (إنَّ)، والنحاة يجعلون من خصائص هذه الأفعال أن ضمير الفاعل فيها يتعدى إلى ضمير المفعول، ولا يلتفتون إلى فاعلها الظاهر، ولا إلى توسط (أنَّ) أو (إنَّ) بين الفاعل والضمير المنعكس عليه، لأن شأنها فى ذلك شأن سائر الأفعال غير المنعكسة المتعدية إلى مفعولين، يقول ابن السراج: «ويجوز فى باب ظننت وحسبت أن يتعدى المضمر إلى المضمر»[1].

ويقول الزمخشرى: «ومنها (أى من خصائصها) أنك تجمع فيها بين ضميرى الفاعل والمفعول فتقول: علمتُنى منطلقًا، ووجدتَكَ فعلت كذا، ورآه عظيمًا»[2]. وقال ابن يعيش فى شرحه لعبارة الزمخشرى: «وأما أفعال

(١) ابن السراج: الأصول فى النحو، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلى (بيروت ١٩٨٧) ١٢١/٢.

(٢) الزمخشرى: المفصل، ص ٢٦٢.

القلوب التى هى ظننت وأخواتها فإنه يجوز ذلك فيها ويحسن، فيتعدى "ضمير" الفاعل فيها إلى "ضمير" المفعول الأول دون الثانى فتقول: ظننتُنِى غنيًا، وحسبتَكَ غنيًا، وذلك لأن تأثير هذه الأفعال إنما هو فى المفعول الثانى، ألا ترى أن الظن والعمل إنما يتعلقان بالثانى، لأن الشك وقع فيه، والأول كان معروفًا عنده، فصار ذكره كاللغو فلذلك جاز أن يتعدى ضمير الأول إلى الثانى، لأن الأول كالمعدوم، والتعدى فى الحقيقة إلى الثانى، وقوله: «رآه عظيمًا» فى المثال، يريد: إذا كان المفعول الأول هو الفاعل المضمر فى "رأى" فاعرفه»[١].

ويقول الرضى فى شرح الكافية: «هذه الأفعال المذكورة فى متن الكافية، ولفظة "هَبْ" بمعنى احسب، و"رأى" الحلمية يجوز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين متحدى المعنى نحو: علمتُنِى قائمًا، وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾» [٢] وقال السيوطى: «لا يجوز أن يكون الفاعل والمفعول ضميرين متصلين لشيء واحد فى فعل من الأفعال إلا فى ظننت وأخواتها، وفى فقدت وعدمت، قاله البهاء النحاس فى تعليقه على المقرب»[٣].

٢- جوز بعض النحاة ورود الفاعل مع هذه الأفعال اسمًا ظاهرًا نحو: ظنه زيد قائمًا، فإذا كان الفاعل ضميرًا مستترًا يعود على المفعول الظاهر لم يجز نحو: زيدًا ظن منطلقًا[٤] وقال الرضى: «والقياس جواز: ظن

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل (المنيرية، القاهرة د. ت) ٨٨/٧.
(٢) الرضى: شرح الكافية فى النحو ٢٨٥/٢.
(٣) السيوطى: الأشباه والنظائر فى النحو (بيروت ١٩٨٤) ٥١/٢.
(٤) الرضى: شرح الكافية فى النحو ٢٨٦/٢.

زيدٌ زيدًا قائمًا، أى نفسه»[١].

والأصوليون من النحاة على أنه إن وجب القياس لشيء حكمًا، وجاز أن يأتى السماع بضده فالرأى الأخذ بالقياس حتى يرد ما يبين ذلك[٢].

٣- يمكن أن يحل اسم آخر محل الضمير المنعكس، من ثم فالضمير المنعكس عنصر من العناصر المكملة للجملة، على أن هذا العنصر مطلوب من الفعل على وجه اللزوم، فلا يجوز حذفه، يقول ابن السراج: «... وإنما حقه أن يتعدى فعل المضمر إلى المضمر، وتكون أيضًا قد جعلت المفعول الذى هو فضلة فى الكلام لابد منه وإلا بطل الكلام»[٣].

ولا يقتصر استعمال أفعال القلوب على الضمائر المنعكسة، بل كما تستعمل هذه الأفعال منعكسة تستعمل غير منعكسة فنقول مثلاً: ظننت زيدًا قائمًا، أو: ظننتُك قائمًا، أو: ظن زيدٌ عمرًا قائمًا.

٤- لا يمكن أن ينعكس الضمير مع أفعال القلوب على "نائب الفاعل"، ولا أن تبنى هذه الأفعال للمجهول إذا اتصل بها ضمير منعكس، مع أنها أفعال متعدية إلى مفعولين، ومن ثم نعدها حالة خاصة من حالات التعدى، وتتفق هذه الأفعال من هذه الناحية مع الأفعال المنعكسة فى اللغة الألمانية[٤].

٥- يطابق الضمير المنعكس مع هذه الأفعال الفاعل فى الشخص والنوع والعدد.

---

(١) السابق نفسه.

(٢) انظر: ابن جنى، الخصائص، تحقيق محمد على النجار (القاهرة ١٩٥٢) ١٢٥/١.

(٣) ابن السراج: الأصول ١٢١/٢.

(٤) Grebe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache, Duden 4. S. 75.

٦- يجوز أن يتقدم الضمير المنعكس مع هذه الأفعال على الفاعل، كما اتضح ذلك فى المثال الذى أورده الرضى، وهو: ظنه زيدٌ قائمًا[١]، فقد تقدم الضمير المنعكس، وفصل الفاعل بين المفعولين.

ب – مع غير أفعال القلوب:

١- الضمائر المنعكسة مع هذه الأفعال ضمائر تكلم وخطاب وغيبة، مسبوقة بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو بكلمة (إيّا)، ويرى رايت أن الضمير قد يرد مسبوقًا بكلمة نفس، أو عين، أو وجه، (وفى العربية المتأخرة: روح، ذات، حال) مثل قتل نفسه، عزّ به نفسك، أهلكت روحى، أسْلَمْتُ وَجْهِى لله»[٢]، وقد رأينا أن نطلق على الضمير المنعكس المسبوق بكلمة نفس أو ما يشبهها مصطلح "ضميمة منعكسة"[٣].

٢- ترد الضميمة المعكسة فى القرآن الكريم فى موقع المفعول به لفعل ماض، أو مضارع، أو أمر كما ظهر فى الشواهد القرآنية التى ذكرناها. وقد ترد مفعولاً ثانيًا لفعل متعد إلى مفعولين من غير أفعال القلوب، وفى هذه الحالة يفصل الفاعل بين المفعولين كما فى قوله تعالى:

- ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٢٨)

وترد مفعولاً به للمصدر كما فى قوله تعالى:

---

(١) الرضى: شرح الكافية ٢/٢٨٦.

(٢) Wright, W.: A. Grammar of the Arabic Language (Beirut 1974) II, p. 272.

(٣) يطلق نحاة الإنجليزية على myself ect وأمثالها مصطلح "الضمير المنعكس" ويطلق عليه بعضهم "الضمير المركب" (compound pronoun) راجع:
Thomson & Martinet: A Practical English Grammar, Oxford 1980, p. 41,
Zandvoort: A Handbook of English Grammar, London, 1975, p. 144.

- ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (الـــــــروم: ٢٨)

وقوله عز وعلا:

- ﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (غـــــــافر: ١٠)

وترد مفعولاً به لاسم الفاعل كما فى قوله جل وعز:

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ (الكهـــــــف: ٦)

وترد مفعولاً به لاسم الفعل كما فى قوله سبحانه:

- ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (المائـــــدة: ١٠٥)

وترد الضميمة المنعكسة فى موقع المجرور بحرف جر أصلى كما نجد ذلـــك فى الشواهد القرآنية الآتية:

- ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (آل عمـــران: ٩٣)
- ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعـــــام: ١٢)
- ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ (يوســـــف: ٧٧)
- ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (طـــــــه: ٦٧)
- ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طـــــــه: ٤١)
- ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ (البقـــــرة: ٢٣٥)
- ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ (التوبـــــة: ٣٥)
- ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ (الإســـــراء: ٧)
- ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ (الأنعـــــام: ١٣٠)
- ﴿أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (المائـــــدة: ٥٢)
- ﴿كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ (الأنعـــــام: ٢٤)

- ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٣٠)
- ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٦٤)
- ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (الفرقان: ٢١)
- ﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (الزمر: ٥٣)
- ﴿فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ (البقرة: ٢٤٠)
- ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (النساء: ١١١)
- ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ (التوبة: ١٢٠)
- ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (يونس: ١٠٨)
- ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ (النمل: ٤٠)
- ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ (العنكبوت: ٦)
- ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ (فاطر: ١٨)
- ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ (محمد: ٣٨)
- ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (الفتح: ١٠)
- ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ (النحل: ١١١)
- ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ (الأعراف: ١٨٨)
- ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (يوسف: ٥٤)
- ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ (سبأ: ٥٠)
- ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ (البقرة: ١١٠)
- ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٤)

- ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ (النساء: ٦٥)
- ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٢٣)
- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (الروم: ٨)
- ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (الروم: ٤٤)
- ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ﴾ (المجادلة: ٨)
- ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ (البقرة: ٢٣٤)
- ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)
- ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ (آل عمران: ١٦٨)
- ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤)
- ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٠٤)
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ (فصلت: ٤٦)

وترد الضميمة المنعكسة مع اسم الفاعل دون فاصل مجرورة بحرف جر أصلى كما فى قوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ (الكهف: ٣٥)
- ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ (التوبة: ١٧)

وترد مفصولة بـ (ولو)، كما فى قوله جل شأنه:

- ﴿شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ (النساء: ١٣٥)

وظاهر أن الضميمة المعكسة المجرورة بحرف جر أصلى غير محفوظة الرتب، كما هو شأنها إذا كانت غير منعكسة، فهى ترد بعد الفاعل، وبعد المفعول، ومقدمة على الخبر، ومقدمة على الفعل والفاعل، ومحصورة

بـ (إلاّ) وخبرًا لمبتدأ محذوف.

وترد الضميمة المنعكسة فى موقع الجر بإضافة المصدر إليها كما فى قوله جل شأنه:

- ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ (الحشر: ٩)

- ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ (يونس: ١٥)

- ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الكهف: ٥١)

- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٤٣)

وترد فى موقع المجرور بحرف جر زائد فى محل رفع فاعلاً، كما فى قوله تعالى:

- ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤)

٣- تعود الضميمة المنعكسة على ضمير بارز متصل، أو على ضمير مستتر، أو على اسم ظاهر كما ظهر فى الشواهد السابقة.

٤- تطابق الضميمة المنعكسة ما تعود إليه فى الشخص والنوع والعدد.

٥- من الممكن أن يحل محل الضميمة المنعكسة عنصر لغوى آخر، وليس فى اللغة العربية أفعالاً لا تستخدم إلا منعكسة، على نحو ما نجد ذلك مستخدمًا فى اللغة الألمانية[١].

٦- يجوز أن تبنى الأفعال للمجهول مع الضميمة المنعكسة، على ألا

(١) Grebe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache, Duden 4. S. 76.

تكون الضميمة المنعكسة نائب فاعل، بل يظل لها موقع النصب، كما فى قوله تعالى:

- ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء: ٨٤)

٧- تستخدم الأفعال المنعكسة من حيث دلالة الصيغة والزمن استخدام الأفعال غير المنعكسة.

٨ - يجوز أن ينحصر الضمير المنعكس عليه، أى: ضمير الفاعل، بـ (إلا) فينفصل، ولا تصبح هناك حاجة إلى كلمة "نفس" كما فى قولك: ما ضربك إلا أنت وقد أجازه النحاة[1].

٩ - يجوز أن ترد الضميمة المنعكسة معطوفة على ضميمة غير منعكسة، كما فى قوله تعالى:

- ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦١)

١٠- ترد الضميمة المنعكسة عائدة على المفعول به، كما فى قوله تعالى:

- ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢)

إذ المفعول به هنا فاعل فى المعنى، فالمعنى - والله أعلم - جعلهم يشهدون على أنفسهم، بدليل قولهم فى الإجابة عن السؤال الذى وجه إليهم: ألست بربكم؟ قال بلى شهدنا، قال الزمخشرى: «أى:على أنفسنا»[2] ومثل ذلك

(١) الرضى: شرح الكافية ٢٨٦/٢.
(٢) الزمخشرى: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل (القاهرة: ١٩٥٣) ١٣٧/٢.

قوله تعالى:

-﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر: ١٩)

١١- قد ترد الضميمة المنعكسة مقلوبة، أى: آخذة موقع ما تعود عليه، تحقيقًا لغرض بلاغى، كما فى قوله تعالى:

- ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه: ٩٦)

بدل سولت لنفسى.

- ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ (يوسف: ١٨)

بدل: سولتم لأنفسكم أمرًا.

- ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤)

بدل: أهموا أنفسهم.

- ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (المائدة: ٨٠)

بدل: قدموا لأنفسهم.

١٢- قد تقوم (ال) متصلة بـ (نفس) بوظيفة الضمير المنعكس كما فى قوله تعالى:

- ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات: ٤٠)

أى: نفسه[١].

والآن بعد أن تم لنا الوصف التركيبى للضميمة المنعكسة يجدر بنا أن نعود إلى القاعدة الثانية التى وضعناها فنجرى عليها التعديل الأخير، حتى يمكن أن "تولد" بها كل الجمل الصحيحة التى ذكرناها، وتكون صالحة لتوليد

---

(١) الطبرى: جامع البيان عن تأويل آى القرآن (القاهرة ١٩٥٤) ٤٨/٣٠.

غيرها من الجمل الصحيحة.

القاعدة الثانية:

الضميمة الاسمية التى تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها فى جملة واحدة هى ضميمة منعكسة.

ولما كانت هذه القاعدة تشمل الآن القاعدة الأولى، وتغنى عنها، فإننا نختصر القاعدتين فى قاعدة واحدة إجبارية هى:

القاعدة: (إجبارية):

الضميمة الاسمية التى تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها فى جملة واحدة هى ضميمة منعكسة.

ثانياً: الوصف الدلالى:

١- تتحق العلاقة الانعكاسية فى الأمثلة والشواهد السابقة بين عنصرين لغويين أحدهما منعكس والآخر منعكس عليه، والمنعكس عليه فيما أوردناه من أمثلة وشواهد يتسم بسمتين مميزتين distinctive features هما: [+ حى]، [+ بشرى].

٢- وردت العلاقة الانعكاسية فى الأمثلة والشواهد السابقة تامة، لكن الرضى فى شرح الكافية أشار إلى جواز أن تكون علاقة الانعكاس جزئية، فقد أورد المثال الآتى: رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أى: رأيتُنى ومن معى، وأورد أيضًا قولهم: رأيتُماكَ تقول كذا[1]، فالضمير المنعكس هنا يعود على بعض المنعكس عليه.

---

(١) الرضى: شرح الكافية فى النحو ٢/٢٨٥.

٣- يجوز أن تكون العلاقة الانعكاسية تبادلية reciprocal يصير فيها فعل الانعكاس متبادلاً بين الفاعلين، وذلك فى نحو قوله تعالى:

- ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ (النـــــــور: ٦١)

- ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقـــــــرة: ٨٥)

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النـــــساء: ٢٩)

- ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ (البقـــــــرة: ٨٤)

- ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (الحجــــرات: ١١)

- ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقـــــــرة: ٥٤)

- ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النـــــساء: ٦٦)

- ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ (الأنعـــــــام: ٩٣)

وأكثر ما يكون ذلك إذا كان الفاعل جمعًا.

٤- لا تتحقق العلاقة الانعكاسية – فى غير أفعال القلوب – إلا من خلال حدث يمكن أن ينعكس على الفاعل أو يعود عليه، فإذا لم يكن الحدث صالحًا للانعكاس لم يصح استخدام الضميمة المنعكسة معه، ويتضح ذلك من الأمثلة الآتية:

أ – أتممت العمل.

ب – *أتممت نفسى.

أ – تسلمت الجائزة.

ب – *تسلمت نفسى.

أ – ذقت الطعام.

ب – *ذقت نفسى.

أ – قطفت الثمار.

ب – *قطفت نفسى... إلخ.

٥– يتحقق معنى الانعكاس دون ضميمة منعكسة ببعض صيغ الأفعال المزيدة التى تعبر عن معنى أفعال مجردة أو مزيدة مستخدمة مع ضميمة منعكسة، ومن ذلك صيغة (افتعل)، كما يتضح ذلك فيما يأتى:

– المرأة غسلت ثيابها.

– المرأة غسلت المرأة إذا كانت المرأة فى الموضعين شخصًا واحدًا).

المرأة غسلت نفسها.

المرأة اغتسلت.

وقد عرض بروكلمن لبعض ذلك، فذكر أن صيغة (تفعَّل) صيغة انعكاسية لـ (فعَّل) مثل: تكبَّر (= كبَّر نفسه) sich gross machen، ومثل تنبأ (= ادعى النبوة لنفسه) sich als propheten stellen، وذكر أن صيغة (تفاعل) صيغة انعكاسية لـ (فاعل) مثل: تقاتلوا (= قاتلوا أنفسهم) sich gegensetig bekämpfen، وقال: نادرًا ما تحمل صيغة (تَفَاعَلَ) معنى الادعاء مثل: تناوم (= ادعى النوم لنفسه) sich schlafend stellen، كما ذكر أن كلاًّ من صيغة (انفعل) مثل: انهزم، و(استفعل) صيغة انعكاسية لـ (أفعل) مثل: استوحش sich betrüben، ثم قال: ومن الشائع أن تدل هذه الصيغة على رغبة شخص فى تحقيق شىء لنفسه، مثل: استغفر[1].

---

(١) Brockelmann, C.: Arabische Grammatik (Leipzig 1960) S. 38- 40.

على أن لهذه الصيغ معانى أخرى تجدها مبسوطة فى كتب الصرف، وقد أفرد لها أحد الباحثين كتابًا[1].

وقد تتبعت ما ذكره الرضى فى شرح الشافية من معانى هذه الصيغ مما قد يدل على الانعكاس، فلم أجده أثبت لـ (انفعل) المعنى الذى ذكره بروكلمن لها، لكنه قال فى (تَفَاعل): تغافلت: أظهرت من نفسى الغفلة، وأثبت لـ (تفعّل) معنى التكلف، وهو حمل النفس على أمر فيه مشقة، مثل: تحلَّم، وتمرّأ، أى: تكلف الحلم والمروءة، وقال فى: (افتعل): والظاهر أنه لاتخاذك الشىء أصله لنفسك، فاشتوى اللحم أى: عمل شواء لنفسه، وامتطاه: جعله لنفسه مطية، وكذا: اغتذى، وارتشى، واعتاد، وقال فى (استفعل): استعجلت زيدًا أى: طلبت عجلته، فإذا كان بمعنى عجلت، فكأنه طلب العجلة من نفسه[2].

ثم قال بعد أن سرد معانى الصيغ: «واعلم أن المعانى المذكورة للأبواب المتقدمة هى الغالبة فيها، وما يمكن ضبطه، وقد يجئ كل واحد منها لمعانى أخر كثيرة لا تضبط، كما تكررت الإشارة إليه»[3].

٦- ينبغى ألا تلتبس الضميمة المنعكسة (نفسه) وأخواتها بالضميمة المؤكدة التى تتفق معها لفظًا وتختلف معنى، فهى فى الأول عنصر إجبارى دال على انعكاس الحدث على الفاعل، ولا يمكن حذفه دون أن تختل الجملة تركيبًا ودلالة، وهى فى الثانية عنصر اختيارى يؤكد اسمًا فى الجملة برفع

(١) هاشم طه شلاش: أوزان الفعل ومعانيها (النجف ١٩٨١).
(٢) الرضى: شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيى الدين عبد الحميد (بيروت ١٩٨٢) ٩٢/١ وما بعدها.
(٣) السابق ١١٣/١.

الاحتمال عنه، وحذفه لا يخل بتركيب الجملـــة، ولا بمعناهـــا الأصـــلى، إذا استغنينا عن المعنى الإضافى الذى يفيده التوكيد.

وأريد أن ألفت فى ختام هـــذا البحـــث إلـــى أن بعـــض الـــشعراء المعاصرين أخذوا يستخدمون الضميمة المنعكسة استخدامًا يخرج بهـــا عـــن القاعدة، لا جهلاً منهم بها، بل اجتراء عليها، ومن هؤلاء الشاعر محمد أبـــو دومة، إذ قال فى بعض قصائده:

- لكنى لم أعبأ بى.

لم أتريث.

واصلت لعلى أغفر لى إثمى[1].

وقال فى موضع آخر:

- بغيبته أسافر فيه، أدخله لأعرفنى.

وأومن بى[2].

وبعد، فهذا هو الوصف التركيبى والدلالى للضمائر المنعكسة، ومـــا تتصل به من أفعال تسمى أفعالاً منعكسة أيضًا، عرضت له من خلال المـــادة اللغوية الواردة فى القرآن الكريم، وما ورد فى كتب النحو العربى التراثـــى، وأفدت فيه من مناهج الدرس اللغوى الحديث والمعاصر عند الغربيين، ومـــن نحاة بعض اللغات الأخرى فى رصدهم لهذه الظاهرة فى لغتهم، ومن نظرات بعض المستشرقين، ولعلى أكون بهذا البحث قد جلوت غامضًا، أو استدركت فائتًا، أو أضفت جديدًا.

---

(١) محمد أبو دومة: أتباعد عنكم فأسافر فيكم (القاهرة ١٩٨٨)، ص ٥٤.

(٢) السابق، ص ٨٧.

وظـــائف اللغـــة

م. أ. ك. هاليداي

ترجمه عن الإنجليزية ومهد له

أ. د. محمود أحمد نحـلة

التمهيد للترجمة:

صاحب هذا البحث علم شامخ عن أعلام مدرسة لندن فى علم اللغة هو مايكل ألكسندر كيركوود هاليداى، ولد فى ليدز – يوركشاير بإنجلترا سنة ١٩٢٥م لأسرة جامعية. كان أبوه ولفريد ج. هاليداى (١٨٨٩ – ١٩٧٥) مديرًا لإحدى المدارس، وقام بعد تقاعده بدور أساسى فى جمع المادة اللهجية الخاصة بشمال إنجلترا فى كتاب هارولد أورتون: مسح عام للهجات الإنجليزية Survey of English Dialects.

حصل هاليداى على البكالوريوس فى اللغة الصينية وآدابها من جامعة لندن، ودرس بعد تخرجه علم اللغة فى جامعة بكين، ثم فى كامبردج، حيث حصل على الدكتوراه سنة ١٩٥٥.

بعد أن شغل بعض الوظائف فى كامبردج وإدنبره انتقل إلى الكلية الجامعية بلندن سنة ١٩٦٣ ليعمل مديرًا لمركز أبحاث الاتصال، حيث أدار مشروعين بحثيين مهمين أحدهما عن الخصائص اللغوية للإنجليزية العلمية، والثانى عن علم اللغة وتعليم الإنجليزية، وفى سنة ١٩٦٥م عين أستاذًا لعلم اللغة العام بالكلية الجامعية بلندن، وقد ظل يعمل بها حتى نهاية عام ١٩٧٠م.

فى المدة من ٧٢ – ١٩٧٣م كان زميلاً لمركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية فى ستانفورد بكاليفورنيا، ثم عمل أستاذًا لعلم اللغة فى جامعة إلينوى فى المدة من ٧٣ – ١٩٧٥. وفى بداية ١٩٧٦م أصبح رئيسًا لقسم جديد لعلم اللغة بجامعة سيدنى وظل يشغل هذا المنصب حتى تقاعد سنة ١٩٨٧، وظل يعمل به بعد التقاعد.

درّس فى الجمعية اللغوية التابعة للمعاهد الصيفية اللغوية الأمريكية:

فى (إنديانا) ١٩٦٤، وفى (أوكلاهوما) ١٩٦٦، وفى (متشجان) ١٩٧٣، ونال العضوية الشرفية للجمعية سنة ١٩٧٨، كما عمل أستاذًا زائرًا فى جامعات ييل، وبراون، ونيروبى.

فى عام ١٩٦٩ منحته جامعة نانسى بفرنسا سنة ١٩٦٩م الدكتوراه الفخرية، وفى ١٩٨٦م منحته جامعة سنجابور درجة الأستاذية الفخرية، وفى عام ١٩٨١م حصل على جائزة دافيد راسل للبحث المتميز فى تعليم الإنجليزية من المجلس الوطنى لمعلمى الإنجليزية بأمريكا.

ولا يزال للرجل حتى كتابة هذه السطور عطاؤه العلمى الوافر، وهو يهتم فى أبحاثه الحالية بعلم الدلالة، ونحو الإنجليزية المعاصرة، والتطور اللغوى فى الطفولة الباكرة، وعلم اللغة النصّى، والاستخدام اللغوى، والتطبيقات التعليمية لعلم اللغة، والذكاء الاصطناعى، كما تشمل اهتماماته اكتساب اللغتين الأولى والثانية، والشعرية، والاضطرابات اللغوية.

لقد كان هاليداى أنبه تلامذه فيرث، وأكثرهم وعيًا بأفكار أستاذه واستيعابًا لها، وقد استطاع أن يمنح هذه الأفكار الوضوح والتماسك اللذين كانت تفتقر إليهما، وأن يضع منذ وقت مبكر إطارًا نظريًا محكمًا لنظرية لسانية تقوم على أفكار فيرث، يشاركه فيها بعض زملائه حتى سموا (الفيرثيين الجدد).

على أن هاليداى لم يكتف بما تمثله من أفكار فيرث، بل وسَّع دائرة معارفه، وأفاد من مصادر أخرى كثيرة فى وضع نظرية محكمة للوصف اللغوى صالحة للتطبيق على لغات مختلفة، ومازال يطورها ويعدّلها حتى ظنّ بعض الباحثين أنه عدل أخيرًا عن أفكاره المبكرة، واتجه بالنظرية اتجاهًا آخر جديدًا.

والحق أن نظريته مرت بمراحل ثلاث. بدأت أولاها بالبحث الذى نال به درجة الدكتوراه سنة ١٩٥٥ ونشره سنة ١٩٥٩ بعنوان (لغة الـصينيين. التاريخ السرى للمغول).

"The Language of the Chinese. Secret History of the Mongols".

وقد استطاع فيه أن يضع إطارًا نظريًا متماسكًا تعالج من خلاله العلاقات بين الوحدات اللغوية معالجة منهجية، ثم اتضحت معالم النظرية فى هذه المرحلة بالبحث الذى اكتمل قبل وفاة أستاذه فيرث ونـشره عـام ١٩٦١م وعنـوان فصائل نظرية النحو Categories of the Theory of Grammar وقـد سـميت النظرية فى هذه المرحلة "نحو المقيـاس والفـصيلة" Scale and Category Grammar.

وقد بدأت معالم التطور فى هذه النظرية تظهر منذ منتـصف العقـد السادس من القرن العشرين، وتنامى هذا التطور حتى أصبح يعدّ مرحلة ثانية فى حياة النظرية. وقد أفضى هذا إلى بزوغ نموذج أشدّ إحكاما أطلق عليه علم اللغة النظامى Systemic Linguistics أو النحو النظامى Systemic Grammar؛ لما أصبح لمفهوم النظام System من أهمية بالغة فيه.

وقد حملت ملامح التطور توجهًا وظيفيًا جعل بعض الباحثين يطلـق على نموذج هاليداى فى هذه المرحلة "النحو النظامى الوظيفى". على أن هذا التوجه الوظيفى لم يكن بمعزل عن التوجه الاجتماعى، بـل ظهـر الميـل الواضح إلى دمجهما معًا مع اهتمام متنامٍ بالظواهر الدلالية.

أما المرحلة الثالثة فيمكن التأريخ لها بكتاب هاليداى: مدخل إلى النحو الوظيفى (سنة ١٩٨٥) An Introduction of Functional Grammar إذ كـان

ثمرة اهتمامه المتزايد بوظائف اللغة فى المجتمع وما يعبر عنها من تراكيب. وقد وضع به أسس نظرية وظيفية غير منبتة الصلة عن الأسس المنهجية التى قام عليها فكره اللغوى فى المراحل الثلاث، بل إن نحـوه النظـامى يمثـل المرتكز الأساسى لنحوه الوظيفى؛ ومن هنا تميزت نظريته الوظيفيـة عـن نظريتين وظيفيتين معاصرتين إحداهما نظرية النحو الـوظيفى سـايمون دك Simon Dik والأخرى نظرية النحو الوظيفى التوحيدى عند كاى Kay.

وفى العام نفسه الذى أصدر فيه هذا المدخل إلى النحو الوظيفى ظهر له كتاب شاركته فيه زوجته الهندية الأصل رقية حسن عنوانه:

Language, Context, and text: aspects of language in social- Semiotic Perspective (Oxford University Press, 1985).

والبحث الذى أقدمه اليوم مترجمًا هو الفصل الثانى من هذا الكتـاب فى طبعته الثانية (١٩٨٩) التى أعيد إصدارها سنة ١٩٩٠ مـن ص ١٥ – ٢٨. وترجع أهمية هذا الفصل إلى أنه محضه لوظائف اللغة التى أصـبحت تمثل محور النظرية. ولم يقتصر الرجل فيه على التنظير بـل عمـد إلـى التطبيق المفصل على نصين أحدهما شعرى والآخر نثرى وبين على نحـو شديد الوضوح والعمق كيف تحققت فيهما وظائف اللغة. وأرجو أن يكون فى هذه الترجمة إثراء للدراسة اللغوية العربية المعاصرة بمتابعة الحـديث عـن نظرية لم يتح لها ما ينبغى من الاهتمام فى العالم العربى.

الترجمة(*)

مدخـــل:

ماذا نفهم من مصطلح "وظائف اللغة" ؟ لعل المقصود من كلمة وظيفة فى أبسط معانيها أن تكون مرادفة لكلمة "استعمال"؛ لذلك حين نتحـدث عـن وظائف اللغة فنحن لا نعنى إلا الطريقة التى يستعمل بها النـاس لغـتهم أو لغاتهم إن كان لهم أكثر من لغة. وإذا عبرنا عن ذلك بصورة عامة قلنـا إن الناس ينجزون بلغتهم أشياء كثيرة، أى أنهم يتوقعـون أن ينجـزوا بـالكلام والكتابة والاستماع والقراءة عددًا كبيرًا من الأهداف المختلفـة والأغـراض المتباينة. ومن المستطاع أن نحاول تعداد هذه الأهداف والأغراض وتصنيفها بطريقة أو بأخرى، وقد حاول عدد من العلماء أن يقوموا بـذلك آملـين أن يجدوا إطارًا عامًا، إلى حدّ ما، أو نظامًا لتصنيف الأغراض التى من أجلهـا يستخدم الناس لغتهم.

ثمة عدد من التصنيفات المألوفة لوظائف اللغـة، منهـا مـثلاً ذلـك التصنيف الذى قدمه مالينوفسكى واقترن بعمله فى السياق situation والمعنـى meaning، وقد أشرنا إليه قبلاً. لقد قسم مالينوفسكى (١٩٢٣) وظائف اللغة إلى فئتين واسعتين: مقامية pragmatic وسحرية magical. ولقد كان يحكـم كونـه متخصصًا فى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) مهتمًا بالاسـتخدامات العمليـة أو المقامية للغة، (ثم قسمها بعد ذلك إلى فرعين: فاعلة active وروائية narrative) من جهة، ومن جهة أخرى كان مهتمًا بالاستخدامات الطقوسية أو الدينية.

(*) أشكر للدكتورة/ ماجدة السباعي الأستاذ المساعد بقسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب جامعة الملك سعود مراجعتها الدقيقة لهذه الترجمة.

على أن هناك تصنيفًا مختلفًا جدّ الاختلاف اقترن باسم عالم النفس النمساوى كارل بيولر K. Bühler (١٩٣٤) الذى اهتم بوظائف اللغة من وجهة نظر لا تعنى كثيرًا بالثقافة culture لكن بالفرد. لقد ميز بيولر بين اللغة التعبيرية expressive، واللغة النزوعية conative، واللغة التمثيلية representational. فاللغة التعبيرية هى التى تتجه إلى النفس، أى إلى المتكلم، واللغة النزوعية هى التى تتجه إلى المخاطب، واللغة التمثيلية هى التى تتجه إلى سائر الموجودات، أى إلى أى شىء غير المتكلم أو المخاطب.

لقد استخدم بيولر الإطار التصورى الموروث عن أفلاطون: التمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب، وهذا بدوره مأخوذ عن النحو (كان مصدره النحو البلاغى الذى جاء قبل أفلاطون) – وهو يقوم على حقيقة أن الأنظمة الكلامية فى كثير من اللغات الأوربية (بما فيها اليونانية القديمة) دارت حول فصيلة الشخص، مفرقة بين الشخص الأول وهو المتكلم، والشخص الثانى وهو المخاطب، والشخص الثالث وهو كل ما عداهما. على هذا الأساس اعترف بيولر بثلاث وظائف للغة وفق توجيهها إلى شخص أو آخر من الأشخاص الثلاثة. وقد تبنت مدرسة براغ خطته، ووسعها من بعد رومان ياكوبسون (١٩٦٠) فأضاف ثلاث وظائف أخرى: الوظيفة الشعرية poetic وتوجه إلى الرسالة message، والوظيفة التعاملية transactional وتوجه إلى قناة الاتصال channel، والوظيفة الماورائية أو الواصفة metalinguistic وتوجه إلى الشفرة code.

لقد تبنى خطة بيولر وطورها فى اتجاهات مختلفة المربى الإنجليزى جيمس بريتون (١٩٧٠) الذى اقترح إطارًا يتألف من الوظائف التعاملية والتعبيرية والشعرية للغة. لقد اهتم بريتون بتطوير (قدرات الكتابة) عند

الأطفال فى المدرسة، وتمسك بالرأى القائل إن الكتابة تطورت أول ما تطورت فى سياق تعبيرى expressive، ثم اتسعت القدرة "متجهة" إلى الكتابة التعاملية من جهة، والكتابة الشعرية من جهة أخرى. واللغة التعاملية هى تلك التى تؤكد على دور المشارك، على حين أن التأكيد فى اللغة الشعرية يكون على دور الكاتب أكثر منه على دور المتلقى.

وقد قدم دزموند موريس (١٩٦٧) فى دراسته الشائقة عن الجنس البشرى من وجهة نظر متخصص فى السلوك الحيوانى تصنيفًا آخر لوظائف اللغة يتمثل فى الحديث الإخبارى information talking والحديث المزاجى mood، والحديث الاستكشافى exploratory، والحديث المتلطف grooming، فالأول يقوم على تبادل المعلومات، ويبدو أن موريس كان يعنى ضمنًا أنه يأتى أولاً على الرغم من أنه يظهر آخرًا فى تاريخ حياة أطفال البشر. والثانى كما هى الحال عند بيولر وبريتون وظيفة تعبيرية، والثالث حدده بأنه حديث للحديث، يؤدى وظائف جمالية، على حين أن الرابع ثرثرة مهذبة لا معنى لها تستخدم فى المناسبات الاجتماعية، وهو ما أطلق عليه مالينوفسكى قبل أربعين عامًا "اتصال المجاملة" phatic communication ويعنى به الاتصال الكلامى حين يستخدم الناس تعبيرات مثل "يوم جميل، أليس كذلك؟" وسيلة لتسهيل المهمة الاجتماعية، وتجنب الاحتكاك.

وعلى الرغم من أن التصنيفات تبدو جدّ مختلفة، وأن كلاً منها يستخدم مصطلحات مختلفة عن الأخرى، وعلى الرغم من أن أحدًا منهم – باستثناء بريتون – لم يقرأ ما كتبه الآخرون، فهناك تماثل كبير بينهم، وهو ما يمكن أن نوضحه بوضع تصنيفاتهم فى جدول واحد يعرضها فى صفوف على النحو الذى يكون فيه التماثل رأسيًا، فكل مدخل يماثل على نحو أكثر

أو أقل ما فوقه وما تحته. وحين نفعل هذا نستطيع أن نراها جميعًا تسلّم بـــأن اللغة تستعمل للحديث عن أشياء (إخبارية – روائية – تمثيلية)، وهـــى كلهـــا تسلم بأن اللغة تستخدم لتحقيق أهدافى وأهدافك؛ تعبيرًا عن النفس، وتأثيرًا فى الآخرين (مزاجية – تعبيرية – نزوعية – فاعلة). وثمة أيضًا وظيفة ثالثـــة للغة تتمثل فى الجانب الجمالى أو التصوير المجازى.

الجدول رقم (١)

<table dir="rtl">
<tr><td colspan="2" rowspan="2">سحرية</td><td rowspan="2"></td><td colspan="3">مقاميـــة</td><td rowspan="2">مالينوفسكى
(١٩٢٣)</td></tr>
<tr><td colspan="2">فاعلة</td><td>روائية</td></tr>
<tr><td colspan="2"></td><td>تعبيرية
متكلم</td><td colspan="2">نزوعية
مخاطب</td><td>تمثيلية
غائب</td><td>بيولر
(١٩٣٤)</td></tr>
<tr><td rowspan="2">شعرية</td><td rowspan="2"></td><td rowspan="2">تعبيرية</td><td colspan="3">تبادليـــة</td><td rowspan="2">بريتون
(١٩٧٠)</td></tr>
<tr><td colspan="2">نزوعية</td><td>إخبارية</td></tr>
<tr><td>حديث
استكشافى</td><td></td><td>حديث
مزاجى</td><td>حديث
متلطف</td><td></td><td>حديث
إخبارى</td><td>موريس
(١٩٦٧)</td></tr>
<tr><td colspan="2">استخدام مجازى</td><td colspan="3">استخدام تبادلى للتأثير</td><td rowspan="2">استخدام
إخبارى موجه
إلى المحتوى</td><td rowspan="2"></td></tr>
<tr><td>شعرى</td><td>طقوسى</td><td>تعبير
ذاتى</td><td>دعم
متبادل</td><td>سيطرة
على الآخر</td></tr>
</table>

ملحوظة: الأجزاء المظللة تمثل الاستخدامات التى لم يوردها المؤلف المذكور أمامها.

الوظيفة خاصية جوهرية للغة:

ما قام به أمثال هؤلاء العلماء كان فى أساسه بناءً لإطار تصورى، من نوع ما ، بمصطلحات غير لغوية، ناظرين إلى اللغة من الخارج، ومستخدمين هذا الإطار وسيلة لتفسير الطرائق المختلفة التى يستخدم بها الناس اللغة. وعلى أساس من كل هذه التفسيرات لوظائف اللغة يمكننا أن نقول إن الوظيفة تعادل الاستعمال، فمفهوم الوظيفة مرادف لمفهوم الاستعمال. بيد أنه كى نواصل أبحاثنا الخاصة بنا علينا أن نخطو خطوة أخرى، خطوة تفسر الاختلاف الوظيفى، لا بوصفه اختلافاً فى استخدام اللغة، بل بوصفه بنية ذاتية، أو أساسًا محضًا لتكوين اللغة نفسها، ولوضع النظام الدلالى على وجه الخصوص.

بعبارة أخرى سوف تُفَسر اللغة لا بوصفها مجرد استخدام للغة، بل بوصفها خاصية جوهرية للغة نفسها، وشيئًا أساسيًا فى تطور النظام الدلالى، فكأنما نقول إن تنظيم أية لغة طبيعية يفسَّر فى ضوء نظرية وظيفية.

ما أحب أن أقوم به هنا هو أن أوضح الأساس الوظيفى للغة من خلال تحليل جملة واحدة، وهو أمر محفوف بالمخاطر؛ لأن ثمة دائمًا خطرًا يتمثل فى أن تعدَّ بعض السمات العارضة التى هى خاصية لجمل معينة سمات أساسية للنحو بصفة عامة، فطبيعى أن السمات التى تظهر فى جملة معينة لابدّ أن تكون سمات عارضة بالنسبة للنظام اللغوى كله. إنها السمات التى اخترناها فى هذا المثال. وعلى ذلك ففى تفسير الجملة نحاول أن نربط ما نقوله بالفصائل العامة general categories الموجودة فى نحو اللغة.

دعنا نمعن النظر فى الجملة الآتية:

أو اتركى قبلة فى الكأس، ولن أطلب نبيذًا.

هذه الجملة من قصيدة إنجليزية مشهورة فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى (بن جونسون: إلى سيليا) إنها ليست البيت الأول، كما يمكن أن نتصور ذلك بسهولة. إنها فى الحقيقة البيت الثانى. ولن أشغل بالبيت الأول الآن، بل أريد أن أقوم بنوع من التعليق التحليلى على هذه الجملة، لا بوصفه – على أية حال – جزءًا من تحليل أدبى، بل بوصفه تدريبًا لسانيًا نطابق به السمات التى توضح النقطة العامة وهى الأساس الوظيفى للغة.

المعنى التجريبى Experiential Meaning:

دعنا إذن ننظر أولاً إلى هذه الجملة من وجهة نظر تتصل بمعناها بوصفه التعبير عن نوع ما من العمليات: واقعة ما، حدث، حالة، أو أية ناحية أخرى، يمكن إدراكها فى عالم الواقع، ترتبط به بعلاقة رمزية من نوع ما. فإذا نحن حملناها على ظاهرها إلى حد ما أمكن تفسيرها على النحو الوارد فى الجدول الآتى (جدول رقم ٢):

الجدول رقم (٢)

التركيب التبادلى

(أنت)	اتركى	قبلة	فى الكأس	و	(أنا)	لن	أطلب	نبيذًا
(أنت) فاعل حقيقى فاعل نحوى	أتركى حدث عملية	قبلة شىء هدف	فى الكأس موضع ظرف مكان		(أنا) فاعل حقيقى قائل	قطبية نفى	طلب عملية منطوقة	نبيذ شىء مجال

ولنتأمل كلمة **(اتركى)**: إذا أخذناها وحدها سوف نفسرها بأنها نوع من العمليات، بتحديد أدق: حدث ما. ثم هناك كلمة **(قبلة)** والمفروض أنها نوع من الأشياء على الرغم من أنه ليس واضحًا كل الوضوح أى نوع من

الأشياء تكون، وهى بحال الحدث أو نطاق تأثيره. والذى ربط بين هاتين الكلمتين هو (فى + الكأس) وهو نوع من العناصر الظرفية، المفروض أنه ظرف مكان، أى موضع. وعلى هذا فإن عندنا تمثيلاً للحدث، وشيئًا يتأثر بالحدث، ومكانًا يقع فيه. وقد نشعر أيضًا أننا مضطرون إلى أن نسدّ حاجتنا إلى شخص يؤدى الحدث. ومن ثم دعنا نضف – لغرض الإيضاح فحسب – شيئًا يمكن أن نسميه فاعلاً، أى شخصًا يفعل الفعل، لأن ذلك لا يتحقق صراحة فى اللغة.

كذلك الحال فى النصف الثانى من الجملة، ثم كلمة **(نبيذ)** التى هى نوع معين من الأشياء، وكلمة **(أطلب)** التى يمكن أن نعتبرها عنصرًا مفردًا، وهى عملية، ولكنها مختلفة عن العملية السابقة؛ إذ إنك تطلب شيئًا، وقد تستخدم نوعًا من أنواع الإشارات، ربما كان إشارة لغوية، لتحقيق هذا الغرض، دعنا نسمها عملية شفوية أو لفظية verbal process. وهناك أيضًا فاعل حقيقى doer، لكن الفاعل الحقيقى يتمثل الآن فى كلمة (أنا)، وهو مرة أخرى فاعل من نوع مختلف، ليس فاعلاً نحويًا بل هو فاعل يشترك فى العملية اللفظية – أو لا يشترك فيها لأنه فى الحقيقة منفى – فلنسمّه "القائل" sayer.

من ثم فإن الجملة – على أبسط مستوى – يمكن أن تعد تمثيلاً لظاهرة مركبة فى عالم الواقع، فنحن نعلم أن فيه أشياء مثل الكئوس، والنبيذ، ونحن نعرف أننا حين نتكلم نصبح أشخاصًا: "أنا" و"أنت"، ولدينا تصورات معينة لهذه الأشياء. إننا نعرف أن ثمة عمليات تختص بالطلب والترك، حتى ليمكننا أن نفعل شيئًا ينطبق عليه مفهوم "القبلة"، مع أنه شىء مختلف عن النبيذ، لأنه على الرغم من أنه مشفر نحويًا على أنه اسم فهو عادة اسم لحدث وليس اسمًا لشىء. على أية حال إذا كان مما يمكن أن نتركه فى كأس فمن

الجائز إذن عند مستوى معين من التفسير أن نراه أيضًا شيئًا.

لم نخطُ حتى الآن إلا خطوة واحدة فى تفسير هذه الجملة من حيث هى تمثيل لظاهرة يمكن إدراكها، لكننا عزلنا من هذه الجملة سمات معينة يمكن أن تعدّ ممثلة لعالم الواقع كما هو مدرك فى تجربتنا. ويمكن القول إنها تعبر عن المعنى التجريبى لتلك الجملة. ومن الواضح أنه سيكون علينا أن نضيف إلى ذلك مكونًا component آخر يأخذنا إلى عالم التمثيل التخييلى أو غير الصريح للتجربة. وتلك خطوة أخرى فى التفسير تسمح لنا أن نوضح هذا التصور الغريب فى قول الشاعر: **"اتركى قبلة فى الكأس"**.

من الممكن أن نعد هذا تعبيرًا استعاريًا موسعين المصطلح ليشمل أى عنصر من عناصر التمثيل فيه نقل، نقل من نوع ما، كذلك الذى تمثل هنا فى النقل المزدوج لمعنى كلمة "قبلة"؛ لأن كلمة قبلة بوصفها اسمًا هى فعلاً كلمة استعارية من حيث إنها اسم لعملية أكثر من كونها اسمًا لشىء، تلك الخطوة الاستعارية الأولى هى خطوة مؤسسة داخلة فى تكوين اللغة الإنجليزية. وهنا تأتى على كل حال الخطوة الثانية: استعمال خاص لكلمة قبلة يقتضى عودة – على مستوى أعلى – إلى تصور متمثل فى حقيقة أن كلمة "قبلة" اسم؛ فالأسماء – نمطيًا – تدل على مسميات (أشياء)، والأشياء يمكن أن تترك فى أرجاء المكان، ومن ثم نستطيع أن نقول: **"اتركى قبلة فى كأس"**. لقد تطلب منا هذا خطوتين لكى نصل إلى هذه النقطة، كل خطوة منهما تضمنت نوعًا من النقل الاستعارى.

إذا نحن تابعنا هذا الخط من الاستدلال، خطوة كل مرة، فسوف نكون قادرين على تكوين سلسلة من الإدراكات الاستعارية تؤدى بنا إلى تفسير هذه الجملة بوصفها ممثلة لما يمكن أن نشفره على نحو أقل استعارية وأكثر

مباشرة، كما فى نحو: "قبلاتك أشهى من النبيذ". وبطريقة أكثر مباشرة ربمـــا نستطيع أن نفسرها فنقول: "**احب أن أقبلك أكثر من حبـــى لـــشرب النبيـــذ**". وحتى هذا بطبيعة الحال لا يضع نهاية للقصة؛ لأننا من ثم مضطرون إلـــى السعى وراء صيغ التعبير والأعراف الأدبية التى تقرر أن هـــذه الـــصياغة طريقة ملائمة لإبلاغ رسالة مخصوصة؛ لكن لكى نقوم بذلك لابد أن نعـــدل عن صيغة تجريبية للمعنى إلى أخرى، وننظر إلى الجملة نفسها من وجهـــة نظر أخرى مختلفة.

المعنـــى التبــادلى Interpersonal Meaning:

انظر إلى الجدول رقم (٣)

الجدول رقم (٣)

التركيب التبادلى

أو اتركى قبلة فى الكأس

أنت	أفعلى ذلك
فاعل	بقية
طلب : رجـــاء	

و

لـــن أطلـــب نبيـــذًا

(أنا)	طوعًا	أفعل هذا
فاعل	محدود	بقية
عـــرض: تعهـــد		

فى النصف الأول نميز شيئًا يدل على الرجاء: "**أرجـــوك أن تفعلـــى هذا**". وهذا بأبسط المصطلحات الدلالية شكل من أشكال وظيفة الطلـــب فـــى الخطاب العام. فإذا نظرنا الآن إلى النصف الثانى من الجملة فـــسوف نميـــز المعنى: "**لن أفعل ذلك**" أو بعبارة أخرى "**اتعهد بألا أفعل ذلك**"، وهـــذا شـــئ يمكن أن نشفره بأكثر الألفاظ شيوعًا مستخدمين كلمة العرض offer.

إننا ننظر هنا إلى ناحية من معنى الجملة جدّ مختلفة. إننا لا ننظـــر

إليها الآن من جهة وظيفتها فى تمثيل تجربتنا، بل ننظر إليهـــا مـــن جهـــة وظيفتها فى عملية التفاعل الاجتماعى، فهى لا تفسَّر بأنها طريقة فى التفكير، بل طريقة فى الفعل؛ فالمعنى هو: "**أرجوك أن تفعطى شيئًا، وأتعهد بألا أفعل شيئًا آخر**" – من هنا شفر نوع آخر من المعنى فى الجملة نفسها، نوع مـــن المعنى سوف نطلق عليه "المعنى التبادلى"، فالجملة ليـــست تمثـــيلاً للواقـــع فحسب، بل هى أيضًا قطعة من التفاعل بين المتكلم والسامع، فعلى حـــين أن اللغة فى معناها التجريبى وسيلة عاكسة، فهى فى معناهـــا التبـــادلى وســـيلة فاعلة. إننا فى الحقيقة نستطيع أن نستخدم هذين المصطلحين فنتحـــدث عـــن اللغة بوصفها انعكاسًا reflection، وعن اللغة بوصفها فعلاً acting، من حيث هى طريقة للدلالة على المعنيين التجريبى والتبادلى.

لاحظ أننا فى التحليل النحوى نحتاج الآن إلى معرفة مجموعة متميزة أخرى من العناصر. ولن نقـــوم بالتحليـــل الآن بمـــصطلحى "المـــشاركين participants والعمليات processes، وفكرة الفاعل (المـــسند إليـــه subject) وعناصر أخرى متصلة به لا تظهر هنا، ففى العبارة الثانية عندنا المسند إليه "أنا"، وفى العبارة الأولى عندنا المسند إليه "أنت".

(أنت اتركى قبلة فى الكأس و (أنا) لن أطلب نبيذًا

المعنــى المنطقى Logical Meaning :

إذا نحن جمعنا بين التفسيرين التجريبى والتبادلى أمكننا أن نفسر كل عبارة على حدة، لكننا لا نزال مضطرين إلى تفسير حرف العطف (الـــواو). وبعبارة أخرى: هذان القسمان من الجملة بينهما علاقة على نحو مـــا، والآن يبدو شكل العلاقة نوعًا من الربط co-ordination البسيط بين شـــئ وآخـــر:

(أنت) اتركى قبلة "و" (أنا) لن أطلب نبيذًا، أو هو على نحو أكثر تحديــدًا – رجاء، والآخر عرض offer فما معنى الربط بين رجــاء وعــرض ؟ مــن الواضح أن هذا شىء يجب أن نعيد تفسيره على انه شىء آخر غير الــربط البسيط بين عناصر متماثلة، فعادة حين نربط (أ) و(ب) فــإن (أ) و(ب) ينتميان إلى فئة واحدة. أما هنا فإن (أ) و(ب) لا ينتميان إلى فئة واحدة، إذ إنّ أحدهما طلب والآخر عرض، فما نتيجة الربط بينهما؟ النتيجة أننا نحتــاج إلى إعادة تفسيرهما فى ضوء علاقة أخرى لا نعبر عنهــا فــى الإنجليزيــة تعبيرًا إردافيًا paratactically كما هى الحال هنا، بل علــى نحــو اتبــاعى hypotactically باستعمال (إذا). وعلى ذلك فالخطوة التالية التى نحــن فــى حاجة إليها هى أن ندرك أنه ليس ثمة استعارة فى المعنى التجريبى فحــسب، بل ثمة استعارة أيضًا فى المعنى التبادلى؛ لأن الشىء الذى شفر علــى أنــه "التماس مع عرض" سوف يفسر فى الحقيقة علــى أنــه عــرض مــشروط بالموافقة على رجاء. ويمكننا أن نعبر عن هذا بقولنا: "إذا تركت قبلــة فــى الكأس فلن أطلب نبيذًا". وعلى ذلك فالمعنى التبادلى هو: إذا أنــت **(وافقــت على)** أن تفعلى هذا فأنا **(أتعهد بــ)** ألاّ أفعل ذلك.

لكننا لكى نخطو هذه الخطوة اضطررنا إلى أن نستنجد بوظيفة ثالثة من وظائف اللغة، أو بجانب ثالث من ترتيب النظام الدلالى هو تعبيره عــن العلاقات المنطقية الجوهرية، وهى ليست علاقات المنطق الصورى، بل هى تلك التى أخذت منها فى النهاية علاقات المنطق الــصورى. أمــا العلاقــات المنطقية التى أنشئت فى اللغات الطبيعية فهى العلاقات التى يعبر عنها فــى النحو بوصفها أشكالاً من الربط أو الإرداف parataxis والتفريع أو الإتبــاع بالأداة hypotaxis من ثم فالمكون الثالث فى مثالنا، الذى ينبغى أن نعتد بــه

لتوضيح هذه العلاقة بين الجزأين، هو العنصر المنطقى الذى يمثله معنـــى: "إذا... فـــ".

إذا تركت قبلة فى الكأس فلن أطلب نبيذاً

لقد قمنا بعدد من الخطوات لتفسير هذا البيت فى اتجاه إيضاح كيفيـــة دلالته على ما يفعل. إذا توقفنا عند هذه النقطة، وعدنا فالتقطنا التفسير الـــذى ذكرناه من قبل وهو "**قبلاتك أشهى من النبيذ**"، وجعلناه الآن يتـــضمن فـــى المعنى المكون التبادلّى الفعال فإننا نستطيع أن نجعله شخصيًا، ونعيد تفـــسير البيت على نحو أقرب إلى المراد، فنقول: "**قبلاتك عندى أثمن من النبيذ**" إننا عندئذ نستطيع أن نعدّ كلمة "**قبلة**" وكلمة "**نبيذ**" عمليتين فنقول: "**أحب أن أقبلك أكثر مما أحب أن أشرب الخمر**". وإعادة التفسير هذه تؤدى إلـــى الاســـتعارة النهائية حيث تدل الصياغة على "تصريح بالحب".

ثمة فضلاً عن ذلك مثال آخر للعلاقة المنطقية فى البيـــت، تتمثـــل فـــى استخدام "**أو**" التى تربطه ربطًا إردافيًا بما سبقه. ونحن على كل حال لـــم نمعـــن النظر بعد فى البيئة النصية الشاملة. إننا لم ننظر إلى هذا البيت من جهة خصائصه بوصفه خطابًا discourse فلكى نقوم بذلك نحتاج إلى سياق. من هنا علينا أن نبـــدأ بما يجب أن نستوفيه فى البيت الأول الذى ورد فى القصيدة قبله، وهو:

اشربى نخبى بعينيك فحسب وسوف أعاهدك بعينىّ أنا

أو اتركـــى قبلـــة فـــى الكـــأس ولـــن أطلـــب نبيـــذاً

الآن نلاحظ عددًا من السمات الإضافية فى هذا النص:

١- النمط الخاص بـــ (أنت) افعلى كذا و(أنا) سوف أفعل كذا تكـــرر فـــى الحقيقة فى الموضعين، أى: (أنا) أطلب منك أن "تفعلـــى" ذاك و(أنـــا)

سوف "أفعل" هذا، فالمعنى هنا أيضًا على "إذا"، أى: "**إذا أنت شربت نخبى بعينيك فسوف أعاهدك بعينى**" وهو مماثل لـ "**إذا أنت تركت قبلة فى الكأس فلن أطلب عندئذ نبيذًا**" فهنا نمط واحد: طلب متبوع بعرض، وهو فى كلتا الحالين عرض مشروط بالموافقة على طلب. هذا التكرار هو نفسه جانب من جوانب "النصية" texture.

٢- هناك الترتيب الموضوعى thematic لهذين البيتين، ففى كل منهما حددت الوظيفة الكلامية فى صدر العبارة بجعلها تمثل الموضوع. إنهما كالإعلان عند البدء "**ما أوشك أن أقوله طلب**" أو يكون ما يكون. هذه المطابقة بين الموضوع theme والصيغة الفعلية mood ليست غريبة على وجه العموم. إنها فى الحقيقة النموذج النمطى الذى يستخدم لكل عرض offer وطلب command حيث يبدأ المتكلم فى الأغلب بالعنصر الذى يعلن عن الصيغة (وكونه نمطيًا لا يقلل من أهميته بالقياس إلى البنية النصيّة).

٣- ثمة مكون آخر فى "النصية" يعتمد على الإيقاع rhythm والتنغيم intonation، وهو ما يجعلنا نتبع من أجله طريقة خاصة فى قراءة البيتين أود أن أوضحها على النحو الآتى: (الشرطة المائلة أو الشرطتان تدل أو تدلان على نهاية التفعيلة(*)، والعلامة (∩) التى توضع تحت مستوى السطر تدل على إيقاعة beat غير منبورة).

// ∩ or / leave a / kiss wi / thin the / cup //
∩ and / i'll not / ask for / wine //

(*) التفعيلة foot فى الشعر الإنجليزى تتكون من مقطعين أحدهما منبور والآخر غير منبور (المترجم).

إذا أنت قبلت هذه القراءة فعندنا إذن ثلاث نقاط لعلو الإيقاع أو البروز prominence هى: **قبلة، وكأس، ونبيذ**. هذه القصيدة بطبيعة الحال مألوفة عند أغلب الإنجليز من حيث هى أغنية، منذ أن لحنت، أكثر من كونها كلامًا يقال، لكنها إذا نطقت بطريقة طبيعية دون موسيقا فهذه إذن هى المواضع المحتملة التى يظهر فيها البروز.

هذا النوع من البروز سمة من سمات النظام الفونولوجى فى الإنجليزية الحديثة الذي تقسم فيه أية قطعة من خطاب منطوق إلى تتابع من مجموعات نغمية أو وحدات منغمة، لكل منها حد نغمى فاصل (قد بينته الشرطتان المائلتان (//) فى المثال السابق). وليست المجموعة النغمية مجرد وحدة صوتية، وإنما تعبير عن "وحدة معنى"، عن كتلة واحدة من المعلومات فى مجمل الرسالة. وفى كل وحدة معلومات نقطة بروز هى نواة النغم (وقد أظهرت هنا بكتابتها بالخط البارز)، والبروز أيضًا سمة فونولوجية. إنه القطعة التى تحمل أكبر قدر من الحركة المنغمة، لكنه مرة أخرى يعبر عن بروز فى المعنى. إنه يشير إلى بؤرة المعلومات فى الوحدة، هذه البؤرة تدل على ذروة المعلومات الطارئة (سواء أكانت جديدة أم تقابلية) من ثمَّ فالنمطان كلاهما – التقسيم إلى وحدات من المعلومات، وتحديد موقع البؤرة فى كل منها – يكونان معًا عنصرًا جوهريًا فى "نصيّة" اللغة المنطوقة.

٤- النص فى الحقيقة بيت من الشعر، ولذا فإنَّ له إيقاعًا نموذجيًا بسبب انتمائه إلى نوع أدبى مخصوص. بعبارة أخرى إن له بحرًا حددته صيغة شعرية مخصوصة جاء مثالاً لها، وهى هنا البنية العروضية المرتبة فى شكل تقليدى:

/ or leave / a kiss / within / the cup /

And I'll / not ask / for wine / ∩ /

باستثناء أنه فى علم العروض التقليدى قد يقال إن فـــى البيـــت ســـبع تفعيلات على حين أن فيه فى الواقع ثمانى تفعيلات؛ لأن ثمـــة تفعيلـــة صامتة فى النهاية. فهو بيت ذو ثمانى تفعيلات، يتكون كل منهـــا مـــن مقطعين: قصير وطويل (إيامبك). وهذا النمط العروضى سمة أخـــرى من سمات البنية النصيّة. والإيقاع الحقيقى للبيت نتاج للتوتر الحاصـــل بين بنيته العروضية وإيقاعه الطبيعى الـــذى يكـــون لـــه فـــى حـــوار بالإنجليزية المنطوقة.

إننا نستطيع إذا أردنا، أن نمضى إلى مرحلة أبعـــد، فنحلـــل البيـــت بمصطلحات تتصل بتنغيمه حين ينطق بصوت عالٍ. ومرة أخـــرى ســـوف يكون هناك التوتر الحاصل بين الفواصل النغمية فـــى الخطـــاب الطبيعـــى، والخواص التنغيمية للحن الموسيقى.

كل هذه السمات – التوازن الدلالى والنحوى بين البيتـــين، والبنيـــة الموضوعية، والإيقاع، والبؤرة الإخبارية، ثم البنية العروضية – تمثل جوانب مختلفة من نصيّة البيت. إننا نشير إلى كل هذا على أنـــه معنـــاه النـــصى، والمعنى النصّى هو الذى يجعل من البيت نصّا يميزه عـــن نمـــط الـــصياغة المصطنعة أو المتحجرة.

خلاصة القول أننا ميزنا الآن أربعة جوانب مختلفة لمعنى البيت هـــى فى الحقيقة المكونات الأربعة فى علم دلالة أية لغة. ولكى نكون قادرين علـــى استخدام هذه المفاهيم فإننا فى حاجةإلى أن نكون قادرين على أن نتحدث عنها، وقادرين على أن نعطيها أسماءها. وسوف نشير إليها على النحو الآتي:

المعنى التجريبى	experiential
المعنى التبادلى	interpersonal
المعنى المنطقى	logical
المعنى النصى	textual

إن خيوط المعنى هذه كلها متداخلة النسج فى تركيب الخطاب. إننا لا نستطيع أن ننتقى كلمة مفردة أو عبارة ونقول: إن لهذه معنى تجريبيًا فحسب، أو إن لتلك معنى تبادليًا فقط. ما كان علينا أن نقوم به فى تحليل نصنا هو أن نعود كل حين إلى الجملة كلها، ونفحصها مرة أخرى من وجهة نظر جديدة.

وهذه نقطة مهمة ينبغى الالتفات إليها؛ لأن ثمة قدرًا من سوء الفهم لمفهوم وظائف اللغة، فكثيرًا ما يفترض أن لكل جملة وظيفة واحدة فحسب، فذلك يقتضى أن يكون من الممكن أن نشير إلى كل جزء منفصل من الجملة ونقول: هذا الجزء من الجملة له هذه الوظيفة، وذلك الجزء له تلك الوظيفة، والجزء الآخر له وظيفة أخرى، لكن الحياة على وجه العموم ليست كذلك، ومن المؤكد أن اللغة ليست كذلك، فكل جملة فى أى نص متعددة الوظائف، لكن ليس بتلك الطريقة التى تجعلك تشير إلى مكون معين أو قطعة معينة ثم تقول: هذه القطعة ليس لها إلا هذه الوظيفة. إن المعانى تنسج معًا فى نسيج كثيف بطريقة – لكى نفهمها – ينبغى ألا ننظر إلى أجزائها المختلفة نظرة منفصلة، بل الأحرى أن ننظر إلى الشئ كله، على نحو متزامن، من عدد من الزوايا المختلفة. وكل جهة من جهات النظر تسهم فى التفسير الكلى. وتلك هى الطبيعة الأساسية للاتجاه الوظيفى.

العلاقة بين النصّ ومقامه:

قبل أن نفرغ من هذا البيت دعنا الآن ننظر إليه من وجهة نظر

وظيفة الشيء كله فى سياق أوسع متبنين وجهة النظر التى ناقشناها فى الفصل الأول حين تكلمنا عن العلاقة بين النص والمقام context of situation فقد نكون قادرين على قول بعض الأشياء عن هذا البيت، ومن ثم عن القصيدة كلها ضمنًا، وذلك بالمصطلحات الآتية: المجال field ونوع المشاركة tenor والصيغة mode. فما الذى يمكن أن نقوله تحت تلك العناوين؟

أما فيما يتعلق بمجال الخطاب – وهو الفكرة العامة التى يدور الكلام حولها – فإننا نستطيع أن نقول بوضوح إنه "قصيدة حب" بأشد الألفاظ عمومًا، فإن مجال الخطاب هو "الحب"، لكنه حب معبر عنه تعبيرًا استعاريًا باستخدام مفاهيم الشراب والنخب.

أما عنواننا الثانى وهو نوع المشاركة فيركز على العلاقات الشخصية القائمة: من هما المشاركان فى هذا النص؟ بوضوح، وبأشد الألفاظ عمومًا: هما رجل وامرأة، وبتحديد أكثر هما حبيب وحبيبة. وينبغى أن نضيف، على أية حال، أن ثمة عنصرًا فرعيًا هنا هو أنَّ هذه قصيدة، وذلك يعنى أنها نص عام، ولا نعرف على وجه التحديد فى أية مرحلة من مراحل وجودها أصبحت نصًا عامًا. لقد كان هذا على أية حال نوعًا معترفًا به وشائعًا فى بداية القرن السابع عشر. ومن جهة أخرى قد يكون فى المقام الأول قصيدة حب كتبها شاعر لحبيبته قبل أن ترى النور، بوصفها نصًا عامًا. أيا ما كان الأمر، لقد كان فى هذا النص نوع ثانوى من المشاركة يتعلق بشاعر يوجه الخطاب إلى معاصريه.

وأما الثالث الذى يتعلق بصيغة الخطاب فينبغى القول بأنه الجزء الخاص الذى تقوم فيه اللغة بدور فى العملية التفاعلية. فى المثال الأول عاملناه على أنه نص منطوق، وهو أيضًا بطبيعة الحال وثيقة مكتوبة. ولهذا

دعنا نقل إنه منطوق/ مكتوب. ويمكننا أن نحدده على نحو أكثر تفصيلاً بأنه قد يكون كتب ليلقى بصوت عال، لكن علينا أيضًا أن نقول إنّه منغّم، تمييـزًا له عما هو تلقائى. إنه تعبير من نوع أدبى معترف به، يتطلب صـيغًا مـن التعبير، متقنة إلى حدّ كبير، ومنغلقة على ذاتها إلى حدّ ما، ويشار إليها غالبًا على أنها تصور غريب، أو "استعارات تخييلية" بعضها (وليس كلها) يَبْـدهُنا بخروجه عن المألوف. وهذا بدوره نتاج مرحلة مخـصوصة فـى التـاريخ الاجتماعى/ الثقافى لإنجلترا فيما بعد العصر الإليزابيثى.

ما الذى يمكننا أن نقوله عن العلاقة بين هذه العنوانـات: المجـال، ونوع المشاركة، والصيغة، وعن السمات اللغوية الخاصـة الموجـودة فـى القصيدة ؟

يمكننا أن نرى أن المجال – وهو فى الواقع قصيدة حب مع تصور للحب قد تحقق استعاريًا على هذا النحو – قد انعكس ببساطة شديدة على المفـردات، وعلى تحديد العمليات processes، والمشاركين participants. إنه منعكس فى استعمال الكلمات "**اشربى**"، "**اشربى وأعاهد**" و"**كأس**"، و"**تبيـذ**"، و"**عينـى**"، و"**قبلة**" وهى تتضمن عنصرين أساسيين: عنصر "**الـشراب**" المتمثـل فـى الكلمات "**اشربى، اشربى وأعاهد، كأس**" من جهة، ومن جهة أخرى "موتيف" الحب المتمثل على وجه الخصوص فى "**العينين**" و"**القبلة**". وثمـة بطبيعـة الحال تفاعل معقد بين هذين العنصرين يتمثل فى فكرة الكأس التـى مـستها الشفتان بما يشبه القبلة، وفى العينين اللتين تلتقيان عبر الكأس كما فى الحب.

لكن مجال الخطاب لم ينعكس على المفردات فحسب، بل كان متضمنًا أيضًا فى تعدية التراكيب فى النحو: فى العمليتين الفعليتين: "**أعاهد**"، و"**أطلب**". وفى العمليتين "**اشربى**" و"**القبلة**"، لكن ليس – كما نلاحظ – "**يشرب**" + "**تبيذًا**"

أو "**يقبل**" + "**شخصًا**"، فهذه أفعال غير متعدية فى القصيدة، فليس هناك مفعول به لـ "**يشرب**" أو "**يقبل**".

والآن إذا نظرنا إلى هذا النمط بمزيد إمعان أمكننا أن نرى السمات المقامية التى أدخلناها تحت مجال الخطاب قد انعكست انعكاسًا كبيرًا على واحدة فقط من صيغ المعنى فى القصيدة، هى تلك التى أشرنا إليها بالصيغة التجريبية. وعلى هذا هناك نوع من العلاقات النظامية بين الاثنين يمكننا أن نعبر عنه على النحو الآتى: **يعبر عن المجال من خلال الوظيفة التجريبية فى علم الدلالة.**

ثانياً: إذا نحن تأملنا نوع المشاركة فى الخطاب الذى له صلة بعلاقة رجل بامرأة، حبيب وحبيبة على وجه التحديد، وبعلاقة الشاعر بمعاصريه، فكيف كان التعبير عن هذه الناحية من المقام؟ كان من خلال اختيار الشخص بالمعنى النحوى: "**أنا**" و"**أنت**" وكان هذان هما المسند إليهما فى هذين البيتين، ومن جهة أخرى كان من خلال اختيار الوظيفة الكلامية "**الطلب**" (الرجاء تحديدًا) و**العرض** (التعهد تحديدًا). فالطلب قد تحقق نحويًا من حيث هو جملة أمرية: "**اشربي نخبى بعينيك فحسب**"، "**اتركى قبلة فى الكأس**" وتحقق العرض نحويًا من حيث هو جملة خبرية المسند إليه فيها "**أنا**" فضلاً عن أداة الاستقبال "سوف" "**وسوف أعاهدك بعينى أنا، ولن أطلب نبيذًا**".

إنَّ هذا يمثل نوع المشاركة، أى العلاقات الشخصية اللازمة بتشفيرها فى استعارة بارعة محكمة الصياغة مثل: افعلى هذا، وسوف أفعل ذاك، وهذا بدوره يعد تمثيلاً للعلاقة العرفية التى تظهر دائمًا فى هذا النوع الأدبى، عرف الحبيبة المتمنعة التى ينبغى أن تحمل على الموافقة والاقتناع. وكما أننا كنا قادرين على أن نقف على سمات معجمية – نحوية lexico-grammatical

معينة، بوصفها عاكسة للمجال خاصة، أى تلك التى حددناها بوصفها حاملة المعنى التجريبى، فإننا نستطيع كذلك أن نقف على سمات معجمية – نحوية أخرى بوصفها عاكسة لنوع المشاركة على وجه الخصوص، أى تلك التى حددناها بوصفها حاملة للمعانى التبادلية. بعبارة أخرى: **يعبر عن نوع المشاركة من خلال الوظيفة التبادلية فى علم الدلالة.**

وأخيرًا حين نأتي إلى صيغة الخطاب فى الشعر الغنائى فى نوع أدبى مرتبط بالشعراء الميتافيزيقيين، فإن ذلك الارتباط يحدد – بالإضافة إلى النمط العروضى – الموضوع الذى يختار الشاعر الكتابة فيه. إنها سمات عامة فى الشعر الغنائى أن يوجه موضوعه على نحو قوى إلى شخص، حتى يكون الشاعر والمخاطب هما الموضوع: فـ "أنا" و"أنت" يأتيان أولاً. فضلاً عن ذلك فالقصيدة بوضوح، نص مكثفٍ بذاته، وقد انعكس هذا فى قوة النصية الداخلية، فى التوازن الذى لاحظناه بين العبارتين الأوليين. وكل هذه السمات مجتمعة تدل على الصيغة. مرة أخرى لهذا يمكننا أن نسجل ملاحظة عامة هى أن الصيغة تنعكس نمطيًا فى السمات المعجمية النحوية التى كنا قادرين على تحديدها بوصفها حاملة للمعانى النصية:

يعبر عن الصيغة من خلال الوظيفة النصية فى علم الدلالة

تلخيصًا لهذه الفقرات القليلة الأخيرة يمكننا أن نصوغ العلاقة بين المقام والنص على النحو المذكور فى الجدول رقم (٤):

الجدول رقم (٤)

علاقة النص بالمقام (= سياق الحال)

المقام سمات السياق	يتحقق بـــ	النصّ المكون الوظيفى فى النظام الدلالى
مجال الخطاب ما يدور حوله		المعانى التجريبية التعدية، التسمية... إلخ
نوع المشاركة فى الخطاب من يشترك فى الحديث		المعانى التبادلية الصيغة، الصيغية، الشخص...إلخ
صيغة الخطاب الدور المخصص للغة		المعانى النصية الموضوع – المعلومات – علاقات متماسكة

الوظائف والمعانى فى النص:

نوع النمط الذى وجدناه فى بيت الشعر السابق – حيث استطعنا على نحو منظم أن نربط عناصر المقام بمكونات المعنى فى النص – ليس شيئًا مصنّعًا لهذا النص المخصوص، بل هو فى الحقيقة سمة عامة فى كل النصوص، دعنا ننظر مرة أخرى فى مقتطف من حديث إذاعى قدمه أسقف وولويتش(*) من حيث هو مثال لنص من نوع مختلف جدّ الاختلاف عن

(*) ذكر هاليداى هذا المقتطف فى الفصل الأول من الكتاب ص ١٣ – ١٤. ولم يُعِد ذكره هنا، وسوف أورده مترجمًا ليستطيع القارئ متابعة المناقشة:
(من حديث إذاعي لأسقف وولويتش:
.... لذلك ينبغي أن يأخذ المسيحى الإلحاد مأخذ الجد لا لكي يكون قادرًا على الرد عليه فحسب، بل لأنه هو نفسه ينبغي أن يظل مؤمنًا فى منتصف القرن العشرين.. آخذين ذلك في الحسبان فإنى أسألك أن تتعرض لمطاعن الإلحاد الثلاثة الجديدة، فهي ليست مجرد ثلاثة أنماط من الإلحاد كل منها موجود بدرجات متفاوتة فى أى نمط يمثلها، بل هى ثلاثة بواعث دفعت الناس أن يتساءلوا أو يشكوا فى الإله الذى نشأوا ونشأنا فى ظله، وهى متمثلة فى عبارات ثلاث موجزة: =

النص السابق. وقد كان هذا الحديث مناقشة عن طبيعة العقيــدة المــسيحية، ودفاعًا عن العقيدة فى مواجهة إلحاد القرن العشرين. وقد حددنا مجاله، ونوع المشاركة فيه، وصيغته على النحو الآتى:

المجال: المحافظة على نظام من العقائد تقوم عليه مؤســسة دينيــة، الديانة المسيحية، موقف الأعضاء منها، نصف اصطلاحى.

طبيعة المشاركة: سلطة (بكلا معنييها: أى شــخص بيــده ســلطة، وشخص متخصص يوجه خطابه إلى الجمهور)، جمهور غير مرئى وغيــر معروف (كجمهور القراءة) لكن العلاقة نظامية (من قس إلى جمهور).

الصيغة: مكتوب ليُقرأ بصوت عالٍ، فعل عــام (وســيلة الإعــلام: الراديو) حديث من طرف واحد (مونولوج). نص هو كل النــشاط المتعلــق بالموضوع، مقنع، مع استخدام الاستدلال المنطقى.

ولننظر ما فى هذا النص الذى يكشف عن السمات المتعددة لسياقه:

فيما يتصل بالمجال عندنا مرة أخرى بوضوح شــديد المفــردات – كلمات وظيفتها أنها أسماء، فثمة وحدات معجمية تعبر عن معنى المــسيحية، والمحافظة على المعتقدات، وهى لا تقتصر على لفظتى "**إله**" و"**مسيحى**"، بل تشمل أيضًا "**الإلحاد**" و"**المؤمن**"، وتعبيرات من نحو "**البواعث التــى تــدفع المرء إلى الشك**" وفيه أيضًا كلمات تستخدم فى الهجوم، ومقاومــة الهجــوم، **الاستعارة العسكرية** فى المقدمة، كما كانت دائمًا فى الكتابات السميحية، حيث

= – الإله عقلاً غير ضرورى.
– الإله عاطفة يمكن الاستغناء عنه.
– الإله أخلاقا لا يطاق).

ينبغى أن يكون مفهوم المسيحى المحصّن فى المقدمة. وثمة أيضًا كلمة "**مطاعن**". فإذا أضفنا إلى الجملتين التاليتين المقتطف التالى، فسوف نجد كلمة "**دفاع**" و"**تقدم**" و"**استلام**".

لكن مرة أخرى ينبغى ألا يعنى هذا ضمنًا أن المفردات هى التى حملت المعنى التجريبى منفردة، فالكلمات فى وظيفتها بوصفها أسماء هى حقًا جانب من أنماط التعدية فى النحو، وأنماط العملية التى تحدثنا عنها، وهى تلك التى تحمل حقًا المعنى التجريبى. فى هذا النص، كما هو المتوقع من النظر إلى مجال الخطاب، نجد بصفة أساسية نوعين من العمليات:

١- من ناحية هناك العمليات العقلية mental التى تعكس ما يمثل قطعة من الخطاب ذات ارتباط وثيق بالفكر، عمليات يعبر عنها بالكلمات مثل: "**أخذه مأخذ الجد**"، "**أجاب**"، "**يتعرض لـ**"، "**شك**"، "**تبرير**". وأهمية هذه ليست فى الكلمات المخصوصة بقدر ما تتمثل فى حقيقة أنها جميعًا تعبيرات لنوع واحد من العمليات فى اللغة، ذلك النمط من العمليات العقلية الذى يمكن ضمنًا أن نعبر عنه تعبيرًا لفظيًا. إنها أفكار يمكن أن تقال بصوت عالٍ. إن هذه هى وظيفتها فى النظام الدلالى فى الإنجليزية الذى هو محور اهتمامنا هنا.

٢- النوع الثانى من العمليات الموجودة فى هذا النص، مرة أخرى كما هو متوقع، هو العملية العقلانية، حيث يتركز النقاش حول مشكلات الوجود والمرجعية. وهذه يعبر عنها من خلال عمليات علاقية بأفعال من نحو: "يمثل"، "يكون"... وهكذا، فمجال الخطاب ملحوظ بوضوح فى أنماط التعدية التى هى التعبيرات اللغوية الأولية عن الوظيفة التجريبية.

وطبيعة المشاركة، كما رأينا، هى التى تـصدر مـن القـس إلـى الجمهور، وقد انعكس هذا نمطيًا فى السلسلة: أطلب منك (أن تفعل شيئًا) ثـم دعنا (نفعل شيئًا معًا) بعبارة أخرى يكون التفاعل بعبارة هاأنذا القس وهاأنتم أولاء الجمهور، وأنا أدعوكم إلى فعل شىء، ولكننى أريدكم أن تنظروا إلـى هذا على أنه شىء نشترك فيه معًا، فدعونا... (تأمل هذه عودًا على بدء). وقد استمرت الفكرة المتكررة (الموتيف) نفسها فى المقطوعات التالية حيث يشير المتكلم إلى "تنشئتهم" و"تنشئتنا"، و(نا) هنا تعنى المخاطبين والمتكلم، و(نحن) التى يراد بها الشمول مقصودة هنا.

ثم هناك صيغة الفعل، وهى التعبير عن وظيفة الكلام فى النحو التى تعرض نمطًا شائقًا، فالأسقف يتكلم بوصفه سلطة، وهى – كمـا أشـرت – سلطة فعلاً بالمعنيين اللذين يدل عليهما اللفظ، فهو متخصص، أى أنه سـلطة أكاديمية بوصفه عالم لاهوت، وهو أيضًا راعى أبرشية، أى سلطة كنـسية، وقد شفر دوره بوصفه متخصصًا فى عبارات إخبارية، حيث يكون المعنـى: "**هذه هى الكيفية التى تكون عليها الأشياء**"، وهذا هو التفسير، وشـفَّر دوره بوصفه راعيًا فى عبارات أمرية حيث يكون المعنى: **هذا ما ينبغـى علـيكم و(على) فعله**. وأوامره غير مباشرة من أنواع مختلفة (مثلاً: **على المـسيحى أن يأخذ الإلحاد مأخذ الجد**)، وعلى هذا فالتأثير العام مـضاعف. هـذا هـو المقام: أنا أحدثك حديث المتخصص: هذا ينبغى أن يُفعل، كما أحدثك بوصفى راعى أبرشية. ثم مرة أخرى نوع المشاركة أى العلاقة بين المتكلم وجمهوره منعكسة فى الأنماط النحوية التى تعبر عما نسميه المعانى التبادلية.

وأخيرًا الصيغة فهى خاصة بنص مكتوب ليلقى بصوت عالٍ، لكنـه مكتوب بحرص شديد. إنه بسيط نحويًا إلى أقصى حدّ، ومكثف معجميًا إلـى

أقصى حد. والجمع بينهما سمة من سمات اللغة الرسمية المكتوبة، إنه على النقيض من اللغة التلقائية المتكلمة التى تميل إلى أن تكون معقدة.

لقد ميزت هذا النص تراكيب نحوية بسيطة، مع قدر ضخم من المادة المعجمية الممزوجة بها. هذا النص أيضًا استدلال منطقى، وهو بذلك يتتابع من خلال روابط مثل "لهذا"، "آخذين فى الحسبان"، "بدوره"، "أولاً"، "التالى" وهلم جرا. إنه مصوغ صياغة نصية عالية، لكن، بصفة أساسية، من خلال نوع من التماسك خاص به.

حيث تكون إحالة إلى سابق، كما هى الحال دائمًا فى أية مادة نصية، يحال دائمًا إلى نص. بعبارة أخرى حين تستخدم كلمات مثل: "هذه"، "هى"، "هم" فهى لا تحيل إلى أناس أو إلى أشياء، لكن إلى قطعة من الاستدلال السابق. وتلك خصيصة للخطاب المنطقى الاستدلالى الدقيق. مرة أخرى الصيغة، وهى الجزء الخاص الذى تقوم فيه اللغة بدور فى الحدث الكلى – طبيعة الوسيلة والوظيفة الخطابية – منعكسة فيما أسميناه المعانى النصية شاملة الأنماط المتماسكة.

أعتقد أن هذا الذي ذكرناه بأبسط الألفاظ هو الطريقة التى يقوم بها المتكلمون بتنبؤات عن المعانى التى ينبغى أن تتبادل، وقد كانت هذه هى النقطة التى بدأت منها فى الفصل الأول. تخيل أنك دخلت، كما نفعل كثيرًا فى الحياة الواقعية، إلى موقف كلامى كان قد بدأ فعلاً، لا يهم أى موقف يكون؛ فقد يكون جماعة من الناس يشتركون فى أى نوع من النشاط، وقد دخلت أنت فردًا على الجماعة. إنك سوف تكون قادرًا بسرعة شديدة على أن تشترك معهم فى الحوار المتبادل. كيف تفعل ذلك؟ إنك تفعله فيما أرى ببنائك فى ذهنك نموذجًا للمقام: وأنت تفعل ذلك بالطريقة الآتية: إنك تحدد له "مجالاً"

بملاحظة ما يجرى، ثم تحدد نوع المشاركة بالوقوف على العلاقات الشخصية القائمة، وتحدد الصيغة بملاحظة ما يمكن تحقيقه باللغة. إنك تقوم بتنبؤات عن أنواع المعانى التى من المتوقع أن تكون محور الاهتمام فى هـذا الموقـف الكلامى الخاص. فأنت تأتى وذهنك متيقظ، ومعك بعض جوانب لغتك معـدّة من قبل لتستخدم فى الحديث المتبادل. شىء مثل هذا فيما أعتقد هـو الـذى يحدث، وإلا فمن المستحيل أن نفسر كيف يمكننا فى الحياة الواقعية أن نشترك بهذه السرعة فى موقف ما لم نكن نعلم عنه من قبل شيئًا.

الاتجـــاه التـــواصلي
فـي تعـليـم العـربيـــة
لغير الناطقين بها

لا خلاف فى أن اللغة أهم أنظمة التواصل بين البشر، وأكملها، وأشملها، وأوسعها انتشارًا، وأكثرها مرونة وانتظامًا، وأقدرها على تخطى حواجز الزمان والمكان. بها تقضى الحاجات، وتتحقق المطالب، وتناقش المشكلات، وتحلّ المعضلات، وتنقل المعلومات، وتتبادل الخبرات، وتحصل العلوم والمعارف، وتنمو الثقافات، وتزداد الخبرات بالحياة والناس، ويعبر عن المشاعر فى الرضا والغضب، والسعادة والتعاسة، وبها نؤثر فى غيرنا ونتأثر بهم، وهى مستودع تراث الأمة ثقافة وحضارة، ومختزن تجربتها مع العالم ومع غيرها من الأمم. من ثم تنافست الأمم فى التمكين للغتها، ونشرها خارج حدود وطنها استعمارًا للأذهان قبل الأوطان.

وإذا كان لكل أمة لغتها فإنها لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن أصحاب اللغات الأخرى سعيًا إلى تحقيق المصالح المشتركة، ودرءًا للضرر والاعتداء، وتنمية للموارد، وفهمًا للآخر، ونقلاً للخبرات والمعارف والثقافات، وما يجد به العصر من مستحدثات. من ثم كانت الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية وتعلمها.

وقد تعددت الاتجاهات فى تعليم اللغات وتعلمها وكان من أهمها ما يأتى:

١- اتجاه تقليدى لا يحفل إلا باللغة المكتوبة، ويتخذ من نماذج القواعد النحوية التى وضعت فى الأصل للغات أخرى نموذجًا يحتذى، فلا يكاد الدارس يخرج منه إلا بقدرة منقوصة على فهم بعض النصوص وترجمتها بالاستعانة بالمعجمات وكتب النحو والصرف، من دون قدرة على استعمال اللغة فى تجلياتها الحية حديثًا واستماعًا.

٢- اتجاه بنيوى سلوكى عنى بظاهر اللغة ونظامها التركيبى، فجعل اللغة المنطوقة أكبر همه، وقدم وصفًا علميًا دقيقًا لبنية اللغة معتمدًا على معايير لغوية مستنبطة من اللغة ذاتها كما يستخدمها أصحابها بعيدًا عن الأنماط المعيارية التى تفرض على اللغة من خارجها، مع التسليم بما بين اللغات من فروق ومالها من خصائص. وقد انتقل هذا التصور إلى تعليم اللغات الأجنبية فيما عرف بالطريقة السمعية الشفوية، أو السمعية/ البصرية الشفوية التى ظلت مسيطرة على تعليم اللغات الأجنبية فى معظم بلدان العالم لأكثر من أربعين عامًا. وكان أهم ما عنيت به حصر النماذج التركيبية وتكرار التدريب عليها ومحاكاة نظامها الصوتى وطرائق التركيب فيها لتكوين عادات لغوية ثابتة أشبه ما تكون بالعادات اللغوية التى يكتسب بها الطفل لغة أهله. على أن التطبيق العملى كشف عما فى هذه الطريقة من عيوب أهمها الإفراط فى التدريب الآلى على الجمل والعبارات من دون اهتمام بالمواقف الاجتماعية والثقافية التى تستخدم فيها، والعجز عن تنمية المهارات الإبداعية لدى الطلاب، والعناية باللغة المنطوقة على حساب اللغة المكتوبة. وقد استطاع تشومسكى أن يدلل على أن من المستحيل أن يكتسب الناس اللغة بالتكرار والتعزيز، وقال إن الأطفال لا يتعلمون اللغة بهذه الطريقة، فهم لا يكررون ما يقوله الكبار لكنهم يبدعون جملهم الخاصة والعبارات التى لم يسمعوها من قبل، وهم يقعون فى أخطاء منتظمة ولا يجدى معهم تصويب الأخطاء ولا ما يقال أمامهم من كلام صحيح حتى يتخلصوا هم بأنفسهم منها، وهم لا يتعلمون نحو اللغة بل يستنبطون لأنفسهم القواعد التى يجرى عليها الاستعمال.

٣- اتجاه تواصلي يعنى بتنمية القدرة التواصلية للطالب من خلال تعلم اللغة فى إطارها الاجتماعى والثقافى، والاهتمام بتعليم اللغة لتحقيق التواصل المباشر حديثًا واستماعًا والتواصل غير المباشر قراءة وكتابة، من خلال مواد تعليمية أصيلة مؤسسة على استعمال اللغة فى مواقف اجتماعية وثقافية حية تنجز من خلالها وظائف عملية فى واقع الحياة بعد تحليل لحاجات الدارسين والوقوف على أهدافهم من تعلم اللغة.

وهذا الاتجاه هو الذى نخصه بحديث مفصل فى هذا البحث محددين مفهومه ونشأته وتطوره ومنطلقاته المنهجية وغاياته وأهدافه، ثم نرصد محاولات تطبيقه على تعلم اللغة العربية لغير الناطقين بها وما واجهها من تحديات، ثم نرى رأيًا فى أيها أولى بالقبول.

أولاً: يقوم الاتجاه التواصلى على أن اللغة وسيلة تواصل بين البشر وليست مجرد ألفاظ وتراكيب مقطوعة من سياقاتها، وهذا التواصل يقتضى مرسلاً ومستقبلاً ورسالة يراد إبلاغها وقناة تحمل هذه الرسالة، وهى هنا قناة لغوية، فى إطار موقف تواصلى لإنجاز وظيفة بعينها أو جملة من الوظائف.

ثانياً: نشأ الاتجاه التواصلى من أعمال اللغوى الأنثروبولوجى ديل هايمز ١٩٧٢ واللغويين الفيرثيين الجدد مثل هاليداى الذين درسوا اللغة بوصفها نظامًا تواصليًا فى محيط اجتماعى. وكان ديل هايمز قد تصدى لنظرية تشومسكى مبينًا قصورها، لأنها تعزل اللغة عن محيطها الاجتماعى وتوجه اهتمامها إلى النظام اللغوى المخبوء داخل الذهن البشرى الذى يسمى القدرة اللغوية competence، دون الأداء performance ومن ثم لم يستطع تشومسكى أن يأتى بشىء يذكر فى تعلم اللغات. وقد رأى هايمز أن هذه القدرة اللغوية التى يولّد بها عدد لا يحصى من الجمل الصحيحة ينبغى أن

تكون جزءًا من القدرة التواصلية communicative competence التى تتجاوز القدرة اللغوية إلى الأعراف الاجتماعية التى تحكم استعمال اللغة فى مواقف اجتماعية.

هذه القدرة التواصلية هى الغاية المبتغاة من تعلم اللغة، إذ اكتسابها يعنى القدرة على اسعمال اللغة استعمالاً صحيحًا على نحو ملائم للموقف الذى تستخدم فيه لإنجاز الغايات أو الأهداف الاتصالية. وهى تتألف من أربعة مكونات أساسية:

أحدها: المكون النحوى grammatical، ويتمثل فى القدرة على التزام قواعد النحو والصرف والمفردات فى اللغة الهدف، وهو يقوم على الإجابة عن أسئلة يمكن أن يلقيها الدارس على نفسه من نحو: أىّ كلمات أختار؟ كيف أضعها فى عبارات وجمل؟

ثانيها: المكون اللغوى الاجتماعى sociolinguistic: ويتمثل فى القدرة على استخدام اللغة على نحو ملائم للموقف الاجتماعى، والاستجابة اللغوية الملائمة لما يقال، ويدخل فيها كيفية اختيار موضوع الحديث والمشاركة فيه والانتهاء منه. وهو يقوم على أسئلة يمكن أن يلقيها الدارس على نفسه من نحو: أى العبارات والجمل تناسب هذا الموقف؟ كيف أعبر عما أريد من دون أن أصدم السامع بمخالفة الأعراف الاجتماعية والقيم الخلقية والدينية السائدة فى هذا المجتمع؟

ثالثها: المكون الخطابى discourse: ويتمثل فى القدرة على الربط بين الجمل ربطاً نحوياً ودلالياً ومنطقيًا بحيث يؤدى إلى تماسك الخطاب سبكًا وحبكًا. وإذا كانت القدرة اللغوية تعنى بالجملة ومكوناتها فإن الخطاب يعنى

بما بين الجمل من روابط وعلاقات. وهو يقوم على أسئلة من نحـو: كيـف أعبر عن فكرة تامة بكلام متصل متماسك مفهوم؟ ما هى الوسائل النحويـة والدلالية التى تجعل الكلام مترابطًا مرتبًا ترتيبًا منطقيًا؟

رابعاً: المكون الاستراتيجى strategic: ويتمثل فـى القـدرة علـى تعويض النقص الذى ينشأ من متغيـرات الأداء، ومـلء فجـوات المعرفـة الناقصة بالاستخدام اللغوى، فيحرص الدارس على ألا يـصل إلـى مرحلـة انهيار الاتصال، وذلك من خلال شرح العبارات أو الدوران حول المعنى، أو التكرار أو التردد أو التخمين أو تغيير الأسلوب... وهو يقوم على أسئلة يمكن أن يُلقيها الدارس على نفسه من نحو: كيف أعرف أن كلامى غير مفهـوم؟ وماذا أقول عندئذ؟! وكيف أعبر عن فكرتى إذا لم أتـذكر الكلمـة المناسـبة أو العبارة الدقيقة، أو اختلط على الأمر؟

ثالثاً: تعلم اللغة لا يعنى العلم بنظامها اللغوى، بل بتحقيق وظائفهـا التواصلية، إذ إن النظام اللغوى لا يعنى للمتعلم شيئًا إذا لم يستطع اسـتخدامه فى التواصل مع أبناء اللغة. وقد استطاع هاليداى أن يحصر وظائف اللغة فى سبع وظائف أساسية هى:

١- **الوظيفة النفعية أو الوسيلية instrumental function**: وتتمثل فى استخدام اللغة وسيلة لطلب الأشياء المادية التى نريدها كالطعام والشراب ونحوه، ويلخصها هاليداى فى عبارة "أنا أريد I want".

٢- **الوظيفة التوجيهية Regulatory Function**: ويتمثل فى استخدام اللغة للتحكم فى سلوك الآخرين وتصرفاتهم كتوجيه الأوامر والنواهى وأنواع النصح والإرشاد. ويلخصها هاليداى فى عبارة: "نفذ ما أطلبه منـك Do as I tell you".

٣- **الوظيفـــة التفاعليـــة Interactional Function**: وتتمثــل فـــى استخدام اللغة للتفاعل مع الآخرين أو التواصل معهم لتبادل الخبرات والأفكار والمشاعر وتقوية الروابط الاجتماعية. ويلخصها هاليداى فى عبارة "أنا وأنت me and you".

٤- **الوظيفة الشخصية Personal Function**: وتتمثل فـــى اســـتخدام اللغة للتعبير عن الذات، ويلخصها هاليداى فى عبارة "إنى قادم here I come".

٥- **الوظيفة الاستكشافية Heuristic Function**: وتتمثل فى استخدام اللغة لاستكشاف الحقائق والأشياء من خلال الاســتعلام عنهــا. ويلخـــصها هاليداى فى عبارة "قل لى لماذا tell me why".

٦- **الوظيفة التخيلية Imaginative Function**: وتتمثل فى استخدام اللغة فى تخيل عالم خاص من إبداع المرء وإن لم يطابق الواقع كالحديث عن مجتمع مثالى، أو أحلام يتمنى أن تتحقــق، أو روايـــة القـــصص والنـــوادر والحكايات، ويلخصها هاليداى فى عبارة "دعنا نزعم let us pretend".

٧- **الوظيفة التمثيلية أو الـــسردية Representational Function**: وتتمثل فى استخدام اللغة فى تصوير حـــدث أو موقـــف أو نقـــل الأخبـــار والحقائق والمعلومات. ويلخصها هاليداى فى عبارة: "لدي شـــىء أريـــد أن أخبرك به I have got something to tell you".

وظاهر أن هذه الوظائف تمتاز بالبساطة والتنوع والشمول والإيجاز، وأن كل وظيفة من هذه الوظائف لا تقف وحدها. بل تتكامل جميعًا لتحقيــق الهدف، ولابد من التنبه إلى أن الوظيفة الواحدة من الممكن أن يعبـــر عنهـــا بتراكيب لغوية مختلفة، كما أن التركيب اللغوى الواحد قد يستخدم فى التعبير

عن عدة وظائف لغوية، والذى يحكم استخدام تركيب لغوى معين فى وظيفة لغوية محددة هو العلاقة الاجتماعية بين المشاركين فى الحدث الكلامى فى موقف بعينه. وهذه العلاقة يمكن تلخيصها فى العبارة الآتية: من يتحدث مع من؟ ومتى؟ وأين؟ وما دور كل من المتحدثين، فلا مفر فى التواصل بين الناس من مراعاة القواعد الاجتماعية كما تراعى القواعد اللغوية.

رابعاً: ثمة خصائص للاستخدام اللغوى يحددها موضوع الحديث ومناسبته والمشاركون فيه والموقف الاجتماعى، فما يقال فى التسوق مثلاً يختلف عما يقال فى المطار أو فى مكتب البريد أو عند الطبيب أو فى وصف رحلة. وما يقال للتحية يختلف عما يقال للسخرية أو التهديد أو الشكوى أو الإقناع أو الاستفسار أو الاعتذار أو النصح أو التعاطف. وما يقال فى خطاب رسمى موجه لجمهور غير ما يقال فى المعاملات التجارية... وهذه الخصائص يعنى بها الاتجاه التواصلى عناية كبرى لأنها تمثل مشكلة لمتعلم اللغة الأجنبية؛ لما يكمن وراءها من اختلاف ثقافى، ومعرفة ما يلائم السياق وما لا يلائمه، فهذه الخصائص لغوية وثقافية واجتماعية فى وقت واحد.

خامساً: ثمة تواصل غير لغوى تؤديه لغة الجسد بالايماءات وحركات الأيدى والرءوس والأذرع والعيون، وهذه الإيماءات والحركات تختلف من ثقافة إلى ثقافة ومن مجتمع إلى آخر، وما يدل على التهذيب والتأديب فى مجتمع قد يدل على إهانة أو خروج على القيم الأخلاقية والمواضعات الاجتماعية فى مجتمع آخر. ومن اللازم أن تتضمن برامج تعليم اللغات الأجنبية هذا النوع من التواصل تمكينا للقدرة التواصلية العامة عند متعلم اللغة.

سادساً: يهتم الاتجاه التواصلى باللغة الطبيعية منطوقة ومكتوبة فـــى ارتباطها بالمواقف الاجتماعية الواقعية لا بمواقف مصطنعة أو مواقف يتخيل مؤلفو الكتب التعليمية أن الدارس بحاجة إليها أو يجعلونها وسيلة لاســتظهار القواعد وحفظ الكلمات من ثم كان حرص الاتجاه التواصلي على أصالة المادة التعليمية؛ إذ تؤخذ من مصادر أصيلة فى العالم الواقعى تعبيرًا عن مواقــف وتحقيقًا لوظائف، وما يجرى فى الصفوف الدراسية من تدريب على التواصل أشبه بما يجرى فى حمام السباحة من تدريب تهيئة لخوض لجــج البحـــار. ومعروف أن اللغة أكبر من معجمها، وأكبر من طاقات الفرد ولذلك يــصبح ضروريًا أن يختار منها القدر الذى يحتاج إليه الدارسون لتحقيــق التواصـــل اللغوى الذى يحقق أهدافهم ويشبع رغباتهم ويسدّ حاجاتهم. ومن هنـــا كـــان تحليل حاجات الطلاب وأهدافهم من تعلم اللغة، دون إغفال لما لـــديهم مـــن خبرات وتجارب، أمرًا لا مفر منه.

ويعتمد التعلم التواصلى على الأنشطة اللغوية داخل الصف وخارجه بحيث يستطيع الطالب أن يفيد مما تعلمه داخل الصف فى نـــشاطه الحيـــوى خارجه وأن يفيد مما تعلمه خارج الصف فيما يدور داخله من خلال تقـــسيم الطلاب إلى مجموعات أو ثنائيات تتواصل فيما بينها داخل الصف وخارجـــه تبادلاً للأدوار والمعلومات، وتعويضًا للنقص فى الخبرات، وســـدًّا للفجـــوات المعرفية عند كل منهم من خلال التفاعل المستمر بيـــنهم وتـــشجيعهم علـــى الاستعمال المتدفق للغة الذى يمكنهم من الطلاقة اللغوية من بعد، وعلى ذلـــك فإن دور المدرس يقتصر على إدارة دفة التواصل بين الطلاب وتيسيره لهم، وحفزهم على المشاركة فيه وبث الثقة فيهم مع إشاعة جو من المرح والإثارة والتشويق، دون مقاطعة أو تصويب لأخطاء الاستعمال وقت الحديث، وتأجيل

ذلك لما بعد الفراغ منه؛ فالخطأ لا يعدّ عجزًا، بل هو ملازم للتعلم لا ينجو منه أحد وبهذا يصبح الطلاب فى بؤرة الاهتمام بدلاً من الانتقال من المدرس إلى الطالب ومن الطالب إلى المدرس، واعتبار المدرس هو الذى يملك كل الحكمة والعلم وعلى الطالب أن يأخذهما عنه.

والنحو فى التعليم التواصلى لا يخصص له وقت، بل يدرس من خلال المواقف اللغوية وما يتطلبه من صيغ وتراكيب، فالنحو وثيق الارتباط بالموقف لا بالنظام اللغوى المجرد.

ومن أهم ما يجب الالتفات إليه أن هذا النوع من التعليم لا يؤتى ثماره الحقة إلا إذا تلقى الطالب تعليمه فى بلد اللغة حيث يستطيع الطالب أن يخرج من قاعات الدرس ليتواصل مع أهل اللغة، فإذا تعلم فى قاعات الدرس كيف يطلب طبقًا من الكشرى مثلاً فسوف يشعر بالشوق إلى الذهاب إلى المطعم المجاور وطلب طبق من الكشرى أما إذا تعلم ذلك فى بلده فسوف تخمد شهيته أولا يستطيع أن يتصور هذا النوع من الطعام.

فإذا لم يكن ذلك ميسورًا فلابدَّ من وضع المتعلّم فى بيئة لغوية تشبه قدر الإمكان البيئة الطبيعة للغة المتكلمة وهو ما يعرف بالغمر فى اللغة Language immersion. وبهذا يستطيع المتعلم أن يحقق قدرًا من التعلم بسرعة فائقة.

ولمهارات التواصل الأربع فى هذا الاتجاه شأن يختلف عنها فى غيره فالمهارات اللغوية هنا متضافرة ومتزامنة وموائمة لأشكال التواصل فلا تقدم إحداها على الأخرى إلا إذا اقتضى الموقف التواصلى ذلك، وقد تجتمع جميعًا فى موقف واحد. خذ مثلاً موقف الحوار مع موظف الاستقبال فى فندق، فهو

يبدأ بإظهار الرغبة فى الحصول على غرفة (حديث) ثم إجابة الموظف (استماع) ثم ملء الخانات الخالية فى استمارة التسجيل (كتابة) بعد (قراءتها)، من ثم فإن الفصل بين المهارات فى هذا الاتجاه مرفوض، وكذلك التدريبات التى تقوم على جمل منفصلة استماعًا أو حديثًا أو قراءة أو كتابة، وإنما يقدم للدارس موقف من المواقف التى يتعرض لها فى الحياة اليومية، ثم يطلب منه تنفيذ مهام تتناسب مع الموقف، فإذا استمع إلى النشرة الجوية مثلاً طلب منه التخطيط للقيام برحلة فى ضوء ما سمع فى النشرة الجوية.

وينبغى الالتفات إلى ما بين المهارات من علاقات متبادلة فالاستماع والحديث يجمعهما الصوت، وتبادل الأدوار فى الحوار الحى، فى حين تجمع الصفحة المكتوبة بين القراءة والكتابة. والمرء فى مهارتى الحديث والكتابة يركب الشفرة وينتج الرسالة، لكنه فى مهارتى الاستماع والقراءة يفك الشفرة ويستقبل الرسالة، وهو فى المهارتين الأوليين مؤثر فى غيره، لكنه فى المهارتين الأخريين متأثر بغيره. ويلاحظ أن الرصيد اللغوى الذى يستخدمه المرء فى الحديث والكتابة يكون عادة أقل منه فى الاستماع والقراءة، لأن منطقة الفهم أوسع من منطقة الاستخدام.

كذلك فإن للاختبارات فى التعليم التواصلى شأنًا يختلف عن الاختبارات فى غيره إذ ينبغى أن تتوفر فيها معايير صارمة تقيس القدرة التواصلية قياسًا دقيقًا بما تشتمل عليه من مكونات نحوية ولغوية اجتماعية وخطابية واستراتيجية، وأن تعنى بالجوانب التداولية فى استعمال اللغة استعمالاً طبيعياً فى تواصل حقيقى توظف فيه اللغة فى سياقات مناسبة تعكس الإدراك الصحيح لخصائص اللغة وثقافتها وأعرافها الاجتماعية.

وبعد، فلعل فيما قدمناه من حديث عن الاتجاه التواصلى قد ألقى

الضوء على منطلقاته وأسسه المنهجية بوصفه أهم اتجاه فى تعليم اللغات الأجنبية وأكثرها نجاحًا فى تزويد الطلاب بالقدرة التواصلية على أن يكونوا مفهمين باللغة التى يتعلمونها ومفهومين فى أقصر وقت ممكن وبرصيد أصيل من الاستخدام اللغوى يمكنهم من الطلاقة اللغوية واستعمال اللغة على نحو مماثل لاستعمال أبنائها. وبنا الآن أن ننظر فى مكانة اللغة العربية بين لغات العالم، ثم ننظر فى تطبيق هذا الاتجاه على اللغة العربية.

مكانة اللغة العربية بين لغات العالم:

تنتمى اللغة العربية إلى الفرع السامى من مجموعة اللغات الأفروآسيوية، وهى تعدّ واحدة من اللغات العظمى فى العالم قديمًا وحديثًا لما يأتى:

١- اللغة العربية أهم اللغات السامية الحية وأشهرها وأوسعها انتشارًا، وأشدها تأثيرًا فى نفوس أصحابها ومشاعرهم، وأحفظها لخصائص السامية الأم، ومن ثم لا غنى عنها فى مجال المقارنة بين اللغات، وحينما حاول الباحثون ترسيس reconstruction اللغة السامية الأم انطلقوا من العربية وانتهوا إلى لغة سامية أم شديدة الشبه باللغة العربية.

٢- كانت العربية ولا تزال واحدة من لغات الحضارات الكبرى فى العالم فقد تبوأت فى القرن الثامن الميلادى مكانتها بجانب اليونانية واللاتينية معبرة عن الحضارة الزاهرة فى العصور الوسطى، واستطاعت بعد ما يزيد قليلاً على مائة عام أن تتجاوز العالم الناطق بها لتخلف آثارًا عميقة لا فى آسيا وأفريقيا فحسب، بل فى أوروبا أيضًا.

وقد ظلت اللغة العربية طوال العصر الذهبى للإسلام لغة رفيعة

تستخدم فى كل المجالات الدينية، والثقافية، والإدارية، والعلمية حتى لقد بدت فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين كأنما هى اللغة الوحيدة للثقافة فى العالم، فقد استطاعت أن تقصى لغات كل الحضارات الأخرى كاليونانية والآرامية والفارسية والقبطية واللاتينية ثم البربرية فى شمال أفريقيا. ونقل التراث الثقافى والعلمى لهذه الشعوب إلى اللغة العربية من خلال حركة ترجمة كبرى شجعتها سياسة الخلفاء الرامية إلى التكامل مع غير العرب، حتى أصبح هذا التراث على مدّ اليد مترجمًا إلى اللغة العربية ومضافًا إليه ما قام به العلماء المسلمون من شروح قيمة.

وأصبحت اللغة العربية لغة عالمية يسعى إلى تعلمها أبناء الشعوب الأخرى. ولم تدم للغات الأخرى حياة إلا فى العبادة؛ فاضطر الباحثون من كل أوروبا إلى السفر إلى الأندلس الإسلامية للتعلم فى جامعات قرطبة وغرناطة. وبعد سقوط طليطلة ١٠٨٥م ترجمت نصوص عربية كثيرة فى الفلك والكيمياء والطب والفيزياء والرياضيات إلى اللاتينية فانتقلت مصطلحات عربية كثيرة إلى تلك اللغة، ومنها إلى اللغات الأوروبية. لقد أسهم العرب فى بناء صرح الحضارة العالمية، وكانت الأندلس وصقلية العربيتين سبيل الأوروبيين إلى وضع أسس النهضة الأوروبية الحديثة.

٣- ارتبط الإسلام منذ ظهوره باللغة العربية فقد نزل القرآن الكريم "بلسان عربي مبين" والقرآن الكريم عند كل المسلمين معجزة لغوية تتأبى على الترجمة. فكان على أبناء الشعوب الإسلامية أن يتعلموا العربية ليتمكنوا من قراءة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وإقامة شعائر الدين، وقد حال ذلك دون أن تلقى العربية مصير اللاتينية، وظلت ذات تاريخ متصل يمتد من العصر الجاهلى حتى العصر الحاضر، وظل الوعى بها والحفاظ

عليها أمرًا لا يمكن التفريط فيه عند العرب والمسلمين جميعًا.

وقد أثرت اللغة العربية تأثيرًا عميقًا فى لغات كل الشعوب التى اعتنقت الإسلام؛ فقد كان لها تأثير كبير فى الفارسية والتركية والأردية والمالوية والبنغالية، ومن اللغات الأفريقية الهوسا والسواحلية. وقد أدخل الناطقون بهذه اللغات كلمات كثيرة وتراكيب مستعارة من اللغة العربية لا تقتصر على الجوانب الدينية أو ما يتصل بالحضارة الإسلامية، بل تمتد لتشمل المجالات السياسية والقانونية والاقتصادية والتجارية والإدارية والعلمية والتعليمية. ولا تزال بعض هذه اللغات تكتب بحروف عربية، ولا تزال العربية لغة للأقليات فى بلاد كثيرة تشمل نيجيريا والنيجر وتشاد وتركيا وإيران وقبرص ومالطة والأناضول، وفى بعض الجمهوريات الإسلامية التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى السابق، فضلاً عن أعداد كبيرة من الناطقين بالعربية الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وغرب أوروبا كبريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا.

ومعرفة العربية لازمة لقراء نصوص اللغة التركية العثمانية، والفارسية، والأردية، فالكتاب فى هذه اللغات يستخدمون المفردات العربية استخدامًا واسعًا، ويستخدمون الصيغ العربية كما يستخدمها أبناء العربية على أساس من قواعد النحو العربى.

٤- اللغة العربية الآن هى الخامسة فى ترتيب لغات العالم بالقياس إلى الناطقين بها من أبنائها، بعد الصينية والإنجليزية والهندية والإسبانية، وهى السابعة بوصفها لغة رسمية بعد الإنجليزية والصينية والهندية والإسبانية والروسية والفرنسية.

والعرب يعدون العربية الفصحى رابطة قومية تجمع بينهم؛ إذ يفهمها كل أبناء الشعوب العربية حتى الأميون منهم، وهى لغة دينية مقدسة عند المسلمين جميعًا. ويعيش غير العرب منهم فى دول إسلامية أهمها تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان وإندونيسيا وماليزيا وكازاخستان وكرجستان وطاجكستان وتركمانستان وأوزباكستان.

واللغة العربية من أكثر اللغات انتشارًا فى القارة الأفريقية وفى غرب آسيا. وقد اتخذتها الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤م واحدة من ست لغات رسمية، فضلاً عن أن العالم العربى هو مكان نزول الأديان الثلاثة، ويحتوى على ثلثى احتياطى البترول فى العالم، وبه أشهر الآثار الحضارية والمزارات الدينية. وقد جعل كل ذلك للناطقين بالعربية تأثيرًا فى الأحداث العالمية لما لهم من وزن ثقافى وحضارى ودينى وسياسى واقتصادى واستراتيجى. وقد كانت اللغة العربية من المرونة بحيث استوعبت منجزات العلم والتكنولوجيا فى القديم والحديث.

٥- على الرغم مما يشاع من صعوبة تعلم اللغة العربية فإنها لغة قياسية على نحو فريد، لا يكاد يمثل نظامها اللغوى صعوبة تذكر فى تعليمها وتعلمها بشهادة من درسها وتعلمها من الأجانب، بل تأتى هذه الصعوبة من خارج النظام اللغوى متصلة بالجوانب التاريخية والأسلوبية والاجتماعية.

٦- توفر إجادة اللغة العربية لغير الناطقين بها فرص عمل كثيرة فى الشركات التى تعمل فى الشرق الأوسط، أو الترجمة، أو مكاتب الأجانب فى الحكومات المختلفة، أو خدمات الجيش، أو المؤسسات الثقافية، أو القنصليات، أو وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة، أو المراكز الإسلامية، أو منظمة حقوق الإنسان، أو منظمة العفو الدولية، أو تعليم اللغة العربية فى الجامعات

والمدارس، أو التخصص الأكاديمى، فضلاً عن أنها نافذة يطل منها المــرء على ثقافة أخرى وحضارة عريقة.

لكل هذه الأسباب أقبل غير الناطقين بالعربية علــى تعلمهــا، وقــد أضيفت إليها أسباب أخرى بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر جعلت إقبال الناس على تعلمها يتضاعف على نحو مذهل، وقد بلغ عدد الطــلاب الــذين يدرسون العربية فى الولايات المتحدة وحدها عشرين ألف طالب، وقــد بلــغ عدد الراغبين فى تعلم اللغة العربية فى بيئتها الطبيعية فى العالم العربى هذا العام ألف طالب فى جامعة كاليفورنا وحدها، ويدفعون فى ذلك مبالغ باهظــة تصل إلى ستة عشر ألف دولار للطالب الواحد فى العالم الواحد.

محاولات التطبيـق:

١- برامج تعليم العربية لغير الناطقين بها نوعان: برامج تعليم اللغة العربية للحياة، وهى التى تهدف إلى التواصل العام بالعربية فــى المواقــف الاجتماعية والثقافية، وبرامج تعليم العربية لأغراض خاصة وهــى بــرامج موجهة لجمهور خاص يتعلمها لتحقيق أغراض خاصة به بعضها أكــاديمى، وبعضها مهنى، وبعضها دينى، وبعضها اقتصادى، وبعــضها دبلوماســى... الخ.

وبنا الآن أن نعرض لتطبيقات الاتجاه التواصلى على هذين النوعين من البرامج:

أولاً: اللغة العربية للحياة:

سوف نقتصر فى الحديث عن تطبيقات الاتجاه التواصلى فى تعلــيم العربية لغير الناطقين بها على هذا النوع من البرامج على برنامجين جامعيين

اثنين أحدهما من داخل البلاد العربية والثانى من خارجها. أما الأول فهو برنامج مركز تعليم اللغة العربية للأجانب التابع لكلية الآداب – جامعة الإسكندرية والثانى البرنامج الصيفى لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بجامعة مدلبري بولاية فيرمونت الأمريكية.

أولاً: برنامج جامعة الإسكندرية:

تقوم السياسة التعليمية بمركز تعليم اللغة العربية للأجانب بجامعة الإسكندرية على خلق بيئة لغوية مماثلة للبيئة الطبيعية التى يعيش فيها أبناء اللغة العربية خارج المراكز، ليستطيع الطالب أن يستصحب معه ما تعلمه داخل الفصل إلى خارجه مشاركًا فى التفاعل الاجتماعى والثقافى من خلال ما تعلمه، ومفيدًا مما اكتسبه من البيئة اللغوية الطبيعية فيما يتعلم من دروس اللغة. وهذا التفاعل الحى بين ما يدور داخل قاعات الدرس وخارجها هو ما يفتقده الأجنبى حين يتعلم اللغة العربية فى بلده. من هنا يصبح حرص الجامعات البريطانية على أن يقضى الطالب الذى يتعلم اللغة العربية سنة أو نصفها على الأقل فى بلد اللغة التى يسعى إلى تعلمها أمرًا له أهمية، بل مثلاً ينبغى أن تحتذيه كل الجامعات التى بها أقسام أو معاهد تعلم العربية لغير أبنائها.

ويتعرض الطالب فى البيئة اللغوية الطبيعية خارج المركز لمستويين لغويين أساسيين:

أحدهما: اللغة العربية المعاصرة، ويتعرض لها الطالب فى وسائل الإعلام مسموعة ومرئية ومقروءة، وفى المحاضرات العامة، والخطب السياسية، والأمسيات الشعرية، والأغنيات الكلاسيكية، وبعض الأعمال

الدرامية فى الإذاعة والتلفزيون والمسرح، وكل ما يتصل بالنشاط الثقافى.

وهذا المستوى هو اللغة الرسمية للدول العربية، ويستطيع الإنسان العربى المتعلم فهمه والتعامل معه فى مختلف البلاد العربية، وهو الذى يحقق حاجات العدد الأكبر من المتعلمين الأجانب الذين يريدون أن يقفوا على الإنتاج الثقافى والدينى والفنى للأمة العربية فى العصر الحاضر، وهو الذى يبقى مع المتعلم بعد عودته إلى بلده أو سفره إلى أى بلد عربى، وهو وسيط ممكن للمحادثات الشفوية فى أى مكان من العالم العربى إذا تعذر التفاهم باللهجات المحلية.

والثانى: العامية ويتعرض له الطالب فى حياته اليومية من خلال حديثه مع الناس سؤالاً أو جوابًا أو استفسارًا، أو فيما يحتاج إلى شرائه من الأسواق أو استخدامه فى وسائل المواصلات أو الاستماع إلى الأغانى والتمثيليات والإعلانات ومشاهدة الأفلام وحضور اللقاءات والاجتماعات غير الرسمية.

ويفيد الطالب من هذا المستوى مدة إقامته، فيقف على معلومات قيمة بشأن المجتمع الذى يعيش فيه: كيف يعيش الناس، ويتعاملون، وماذا يهمهم وماذا يضحكهم أو يحزنهم أو يغضبهم، فضلاً عن أمثالهم وحكاياتهم ونوادرهم ونظرتهم للعالم من حولهم، بالإضافة إلى ما يحققه الاتصال الشفوى من إمتاع وتشويق.

وكلا المستويين متكاملان، يؤثر أحدهما فى الآخر ويتأثر به. ومن ثم فهما ليسا لغتين مستقلتين بل هما مستويان للغة واحدة، بينهما فهم متبادل mutual intelligibility ولكن لكل منهما شأنًا يستخدم فيه.

وتقضى السياسة التعليمية بالمركز أن تكون لغة التدريس به أداءً ومقررات هى اللغة العربية بمستوييها دون الاستعانة بأية لغة أجنبية إلا عند الضرورة القصوى، ويشجع الطلاب على استخدامها فى الاتصال اللغوى داخل المركز فى حوارات الطلاب بعضهم مع بعض، وفى المناقشات فى قاعات الدرس.

وتقضى السياسة التعليمية أيضًا بألا يقتصر نشاط المركز على تعليم الطلاب اللغة العربية فى قاعات الدرس، بل ينظم لطلابه ندوات ومحاضرات توضح لهم الجوانب الثقافية والحضارية والاجتماعية فى المجتمع العربى الذى يعيشون فيه، وتتيح الكلية لمن شاء منهم أن يحضر دون مقابل مالى محاضرات فى أى قسم من أقسام الكلية، وأن يشترك فى النشاطات الثقافية والرياضية بالكلية، كما تمكنه من الإطلاع على الكتب والدوريات فى مكتبة الكلية ومكتبة المركز المزودة بكثير من الكتب والمراجع والوسائل التعليمية التى تساعد الطلاب على إجادة اللغة، وتبصيرهم بالفروق الحضارية بين مجتمعاتهم والمجتمع الذى يتعلمون فيه اللغة. ويشجع المركز طلابه على كتابة أبحاث باللغة العربية بإشراف أساتذة الكلية فى التخصصات المختلفة، وتعكس هذه الأبحاث اهتمام الطلاب بتعرف جوانب المجتمع الحضارية والثقافية والدينية والاقتصادية والأدبية والفنية فى القديم والحديث. كما تشجع الطالب على أن يتوسع فى دراسة موضوع بعينه مع واحد من أساتذة الكلية المتخصصين بحيث يقتصر الدرس عليه وحده.

بناءً على هذه السياسة وضعت المقررات التعليمية بالمركز ليستخدم الطالب مستوى العربية المعاصرة فى الشئون الثقافية والرسمية، ويستخدم العامية فى قضاء حوائجه اليومية والترفيهية. والمستويان يتفاعلان معًا فى

المقررات التعليمية، كما يتفاعلان معًا فى حياة الناس خارج الدرس، ويستطيع الطالب بعد أن يتقدم فى دراسة هذين المستويين أن يصل من خلالهما إلى مستويات أخرى من الفصحى والعامية.

وتهدف المقررات التعليمية إلى الوصول إلى القدرة على الطلاقة التواصلية فى المستويين معًا. وهذه القدرة التواصلية تشتمل على ستة جوانب تتكامل جميعًا لتحقيق الطلاقة، لكن كل جانب منها يلقى عناية خاصة تتمثل فى تخصيص وقت مستقل له وتصميم مقرر تعليمى خاص به فى إطار المهارات الأربع: الاستماع والقراءة والكتابة والحديث. وهذه الجوانب هى:

أ – **الجانب اللفظى:** الذى يعنى بألفاظ اللغة نطقًا واستماعًا وقراءة وكتابة، مع تنمية مستمرة لثروة الطالب اللفظية بناءً على خطة مدروسة تقوم على التدرج فى تقديمها، ومراعاة نسبة شيوعها، وخصائصها الاشتقاقية، وما ينشأ بينها من علاقات دلالية، وملاءمتها للموقف اللغوى.

ب – **الجانب النحوى:** الذى يعنى بنظم هذه الألفاظ فى جمل وعبارات، وبيان ما بين هذه الألفاظ من علاقات تركيبية، وما يحكم ترتيبها ومواقعها من قواعد تؤدى إلى إنتاج جمل عربية صحيحة يقبلها أبناء اللغة.

ج – **الجانب النصى:** الذى يعنى بإنشاء خطاب متماسك من جمل يرتبط بعضها ببعض فى بناء محكم يحقق وظيفة لغوية محددة.

د – **الجانب الاجتماعى:** الذى يعنى بالقدرة على استخدام اللغة فى إطارها الاجتماعى بما يناسب المواقف الاجتماعية المختلفة، ويراعى أعراف الاستخدام وضوابطه.

هـ - **الجانب الاستراتيجى:** الذى يعنى بتنمية القدرة على امتلاك استراتيجيات إدارة الخطاب، والمشاركة الفعالة فيه.

و - **الجانب الثقافى:** الذى يعنى بتنمية القدرة المعرفية بالثقافة العربية والحضارة الإسلامية.

وقد ثبت لدى القائمين على شئون التعليم بالمركز بعد تجارب عديدة أن هذه الجوانب لا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد فى إطار المهارات الأربع، لأنها تثقل كاهل الطالب، وتربك المعلم، وتجعل الدرس طويلاً مملاً، ولا تحقق الهدف المرجو منه. من أجل ذلك روعى أن تتحقق كل هذه الجوانب فى كل مهارة من المهارات الأربع التى يخصص لكل منها مقرر مستقل، فهناك مقرر متكامل للاستماع والفهم، ومقرر متكامل للقراءة بأنواعها المختلفة، ومقرر للكتابة إنشاءً ورسمًا، ومقرر للحديث يحقق الوظائف الإخبارية والتعبيرية والتوجيهية واستراتيجيات المقاطعة، ويراعى فيه النبر والتنغيم وحركات الجسم المصاحبة. وكل مقرر من هذه المقررات يحمل عنوان المهارة التى خصص لها، ويتكون من أجزاء مبنى بعضها على بعض لتناسب المستويات الدراسية المختلفة. على أن الطالب يدرس بالإضافة إلى ذلك مقررات فى الترجمة، والأدب العربى قديمه وحديثه، ولغة وسائل الإعلام. وكل أولئك من خلال اختيار مواد تعليمية أصيلة من اللغة المكتوبة والمنطوقة جرى تطويعها على أساسين ثابتين هما نسبة شيوع الألفاظ والتراكيب فى الاستعمال، والتدرج فى تقديمها لتناسب كل مستوى من المستويات الدراسية. وقدرت فيها جميعًا احتياجات الدارسين. ويقدم المركز أيضًا دروسًا اختيارية فى جماليات الخط العربى، والتاريخين المصرى والإسلامى، وتجويد القرآن.

ثانياً: نموذج مدلبري:

يعدّ برنامج مدلبرى الصيفى للغمر اللغــوى Language Immersion البرنامج الأول فى الولايات المتحدة الأمريكية. والمقصود بالغمر اللغوى أن يغمر الطلاب فى اللغة التى يريدون تعلمها غمرًا تامًّا بحيث تحيط بهم من كل جانب فلا يسمعون غيرها ولا يستعملون غيرها فى كل أمــورهم التعليميــة وغير التعليمية داخل الصف وخارجه، فتستغرق اللغة الهــدف كــل وقــتهم وتفكيرهم ليلاً ونهارًا، فهم يوضعون فى معسكر مغلق لاستخدام اللغة فى كل الشئون ويؤدون قسمًا pledge ألا يستعملوا غير اللغة التى جــاءوا لتعلمهــا، وهو قسم لا يجوز الحنث فيه وليس له كفاره، ومن تثبــت مخالفتــه للقَــسَم باستعمال لغته الأم أو لغة غير اللغة التى يدرسها يحرم من الدراسة ويلغــى تسجيله ويلتزم بهذا القسم الطلاب جميعًا حتى المبتدئون منهم، مع مراعاة أن قسم المبتدئين لا يسرى إلا بعد نحو أسبوعين من بدء الدراسة.

وتستمر الدراسة فى هذا البرنامج تسعة أسابيع تعــادل فــى وزنهــا التعليمى فصلين دراسيين كاملين فى البرامج المعتادة، وينشغل الطلاب فيهــا طوال الوقت باللغة فى قاعات الدرس وفى الأنشطة الثقافيــة والاجتماعيــة المصاحبة لها وهى تشمل الأفلام العربية والمسرحيات والنــوادى الثقافيــة، والبرامج الدينية والرحلات الميدانية، ومهارات الطبخ العربــى، والموســيقا العربية، ونماذج من الفولكلور الشعبى العربى، والخط العربــى، والــرقص الشرقى، والصحافة العربية، فضلاً عن حديث الأربعاء الذى يتحــدث فيــه ضيف من كبار المتخصصين فى ثقافة الشرق وتاريخه وحضارته يــستقدمه البرنامج لهذا الغرض.

ويقدم البرنامج للطلاب والمدرسين الطعام والشراب فى مطعم واحد

يضمهم جميعًا فى الوجبات الثلاث ويكلف المدرسون بمشاركة الطلاب فى الطعام والشراب والحديث معهم باللغة العربية حديثًا وديا يناقش فيه الطلاب والمدرسون مشكلاتهم وتطلعاتهم وتقويمهم للأداء فى الصفوف الدراسية ويشاركونهم فى الأنشطة الرياضية والفنية فتنعقد بينهم جميعًا أواصر صداقة لا تزول.

والوقت المتاح للدراسة والأنشطة يستغرق ساعات طويلة من النهار وطرفًا من الليل، إذ تبدأ الدراسة فى الثامنة صباحًا ولا تنتهى الدراسة والأنشطة إلا فى العاشرة مساءً. وتتاح للطلاب ساعات مكتبية فى مواعيد محددة يلتقون فيها بمعلميهم ليناقشوا معهم مشكلاتهم الدراسية الخاصة أو يطلبون منهم إيضاح ما غمض عليهم أو التبس أو يدلون باقتراحاتهم لتنمية المهارات الدراسية... الخ، ثم لا ينتهى الأمر عند هذا الحدّ، بل يكلف الطلاب بواجبات منزلية كثيرة ومتنوعة بحيث لا يكاد يجد الطالب وقتًا للنوم. وقد استعار الطلاب عنوان رواية كتبها بالعربية مؤلف سكندري هو إبراهيم عبد المجيد: "لا أحد ينام فى الإسكندرية" واستبدلوا بالإسكندرية مدلبرى فكان شعارهم "لا أحد ينام فى مدلبرى" ومدلبرى ضاحية صغيرة فى ولاية فيرمونت الأمريكية.

وقد أثمر هذا الكم من العمل الدءوب مواد تعليمية منطوقة ومكتوبة ونماذج من الاختبارات قلّ أن توجد فى برنامج آخر، ويكفى أن نقول إن أهم كتاب يدرس فى أمريكا الآن هو "الكتاب فى تعلم العربية" وقد ولدت فكرته وأنجز العمل فيه واستخدم تجريبيًا لأول مرة فى برنامج مدلبرى الصيفى.

ويقبل الطلاب على هذا البرنامج إقبالاً منقطع النظير من داخل أمريكا وخارجها ولكن القائمين عليه لا يقبلون إلا مائة طالب أو يزيد قليلاً

كل فصل صيفى، يختارون بعناية دقيقة ويقام لهم حفل استقبال مهيب، وحفل توديع رائع يتحللون فيه من قسمهم.

أما المدرسون فيختارون بعناية فائقة من مؤسسات تعليمية جامعية مرموقة من داخل أمريكا وخارجها من ذوى الخبرات التعليمية والأكاديمية والخلفيات الثقافية المتنوعة، وهم لا يدرسون اللغة العربية فقط بل يعيشونها مع الطلاب فى إطارها التواصلى ثقافياً واجتماعيًا، ويقدم البرنامج لهؤلاء المدرسين تدريبات منظمة ترفع كفاءتهم التعليمية يتولاها خبراء مشهورون فى تعليم العربية لغير الناطقين بها، وورش عمل يلتقى فيها أعضاء هيئة التدريس لتبادل الخبرات ومناقشة المشكلات وتنمية المهارات. والبرنامج يجعل من "الكتاب فى تعلم العربية" الذى صدر بأجزائه الثلاثة عن مطبعة جامعة "جورج تاون"، وهو مؤسس على الاتجاه الاتصالى، معتمده الأساسى ثم يضاف إليه ما يراه المدرسون والطلاب من مواد تعليمية إضافية. وتقوم سياسة التدريس فى هذا البرنامج على إطلاق الطاقات الإبداعية عند الطلاب وبث الثقة فى نفوسهم عند استعمال اللغة العربية والإفادة من قدراتهم المعرفية وخلفياتهم الثقافية فضلاً عن تعريفهم بثقافة اللغة وحضارتها فى ماضيها وحاضرها.

ولعلَّ أهم انتقاد وجه إلى هذا البرنامج إن كان يعدُّ انتقادًا أنه يحرص على أن تكون اللغة المستعملة طوال الوقت هى الفصحى المعاصرة دون عناية باللهجات إلا فى أضيق الحدود، إذ لا تدرس إلا فى المستويات المتقدمة ولمدة ساعتين اثنتين أسبوعيًا، وهو أمر لا يطابق الاستعمال الطبيعى للغة العربية عند أبنائها إذ تستخدم العاميات فى التواصل الشفوى المباشر، والفصحى فى المكتوب والمقروء والمسموع عبر أجهزة الإعلام، والتواصل بها غير مباشر.

ثانياً: العربية لأغراض خاصة:

لقد أدى تزايد الاهتمام بالعالم العربى اقتصاديًا وثقافيًا وإعلاميًا ودينيًا وسياسيًا إلى الاهتمام بنوع آخر من تعليم العربية، يهدف إلى تمكين الدارس الأجنبى من دراسة متخصصة فى مجالات اهتمامه المهنى أو الثقافى أو السياسى أو الدينى أو الأكاديمى أو غير ذلك من اهتمامات. وبعض هذه البرامج تقدم فى بلاد غير ناطقة بالعربية وبعضها فى بلاد ناطقة بها، فمن النوع الأول برامج اللغة العربية التى تعدُّ للعاملين بالبرامج العربية فى وسائل الإعلام الموجهة إلى العالم العربى من الدول الأوروبية والأفريقية والآسيوية، وبرامج اللغة العربية لطلاب الدراسات العليا فى أقسام الدراسات الشرقية بالجامعات الأجنبية وهى برامج تعدّ الطالب لتخصصات أكاديمية، وتعليم العربية للدبلوماسيين بمعاهد الدراسات الدبلوماسية فى وزارات الخارجية وبخاصة فى بريطانيا وأمريكا. وتعليم العربية لأغراض دينية فى أقسام الدراسات العربية والإسلامية فى جامعات العالم الإسلامى فى جنوب شرقى آسيا مثل ماليزيا وإندونسيا وباكستان.

ومن النوع الثانى تعليم العربية لأغراض دينية وأكاديمية بمدينة البعوث بالأزهر الشريف بهدف تمكين الطالب من التخصص فى علوم اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والعقيدة والفقه وأصوله.. وقريب منها ما يدرس فى جامعة الإمام محمد بن سعود، وأم القرى، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والعربية للعاملين فى قطاع البترول مثل البرنامج المتكامل الذى أعدته شركة أرامكو لغير الناطقين بالعربية، ومثل البرنامج الذى أعدته جامعة الإسكندرية للعاملين بإحدى شركات التنقيب عن

الغاز الطبيعى بالقرب من الإسكندرية (شركة بكتال)، وبرنامج تعليم العربية لأغراض التخصص فى العلوم والتكنولوجيا الذى يدرس فى جامعة الملك فهد للبترول والمعادن فى السعودية.

والفرق بين النوعين من تعليم العربية: العربيـــة للحيـــاة والعربيـــة لأغراض خاصة أن النوع الأول يـــضم طلابًـــا غيـــر متجانـــسين تتنـــوع تخصصاتهم وخصائصهم واهتماماتهم ويجمعهم شئ واحد هو الرغبة فى تعلم اللغة العربية للتواصل مع أهلها تواصلاً مباشرًا أو غير مباشر فـــى شـــئون الحياة العامة. أما الثانى فيضم طلابًا متجانسين يجمعهـــم تخـــصص واحـــد واهتمام مهنى واحد وهم يستطيعون فورًا وإن تباعدت الشقة بينهم وبين أهل اللغة الأصليين أن يستخدموا اللغة مع زملائهم من أهل المهنـــة الواحـــدة أو العاملين معهم، والحاجات التى يسعون إلى تحقيقها من تعلـــم اللغـــة محـــددة ومحصورة على خلاف الذين يدرسون اللغة للحياة إذ تتنوع حاجاتهم بتنـــوع أعدادهم فى كثير من الأحيان.

وثمة ملحظ ينبغى الإشارة إليه هو أن العربية للحياة تبدأ مع الطالب من البدايات الأولى إلى الدرجة التى يصل بها إلى التمكن اللغوى على نحـــو يقارب القدرة اللغوية عند أهل اللغة لكن العربية لأغراض خاصـــة لا تقـــدم للطلاب إلا فى المرحلتين المتوسطة والمتقدمة من الدراسة، وأقصى ما يراد لها هو التمكن من التفاهم مع أهل المهنة والمتعـــاملين معهـــم. وقـــد يعمـــد الدارسون الأجانب إلى تعلم مهارة واحدة فى بلدهم كمهارة القراءة ليتمكنـــوا من قراءة القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، ولا تحظى المهارات الأخـــرى عندهم باهتمام يذكر لأنه لا حاجة بهم إلى التواصل اليومى مع أبناء اللغـــة. من ثمَّ كان من اللازم أن يسبق تعليم العربية لأغراض خاصة مرحلة يتعلمون

فيها اللغة العامة. والبرامج التى تقدم للوافدين من طلاب الجاليات العربية والإسلامية خير شاهد على ذلك.

وإذا كانت المقررات الدراسية الموضوعة لتعليم اللغة العربية لأغراض خاصة تختلف اختلافًا بينا عن المقررات الدراسية التى توضع لتعلم العربية للحياة فإن المدرسين الذين يقومون بالتدريس ينبغى أن يجتمع فيهم التمكن من اللغة العربية والإلمام الجيد بالتخصص الذى ينتمون إليه أو المهنة التى يمتهنونها.

وقد يسبق إلى الظن أن الدارسين للعربية لأغراض خاصة لا يحتاجون إلا إلى مصطلحات التخصص والمفاهيم المتصلة به، وليس هذا صحيحًا، إذ لا يمكن تقديم محتوى لغوى إلا فى إطار ثقافى.

النمط اللغوى وأصالة المادة التعليمية:

إذا كان الاتجاه التواصلى فى تعليم اللغات – كما أشرنا – يقوم على إكساب المتعلم القدرة التواصلية التى يتمكن بها من التواصل مع أبناء اللغة تواصلاً حيًّا فى مواقف اجتماعية وثقافية حقيقية تمثل ثقافة اللغة وحضارتها وقيمها الخلقية وأعرافها الاجتماعية فإن تعليم العربية تعليمًا تواصليا يثير مشكلة النمط اللغوى الذى يستخدم فى تعليم العربية: أهو الفصحى تراثية ومعاصرة أم العامية بمستوياتها المختلفة؟

لقد أثبتت الدراسات المعاصرة أنَّ أكثر الأنماط اللغوية شيوعًا واستعمالاً نمطان اثنان: الفصحى المعاصرة، وعامية المثقفين، وأن لكل منهما مجالات يستخدم فيها فالفصحى المعاصرة هى لغة الثقافة فى المجتمعات العربية، تستعمل فى القراءة والكتابة وفى الاستماع الصامت إلى المحاضرات

والندوات والخطب الرسمية وكثير من برامج وسائل الإعلام، وهى تشارك فصحى التراث فى أغلب الظواهر اللغوية. لكن فصحى التراث يغلب أن تستعمل عند المتخصصين فى اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، وفى النصوص الأدبية القديمة وما يحتذيها من نتاج أدبى عند المحدثين أما العامية فهى وسيلة التواصل الشفوى فى الحياة اليومية حديثًا واستماعًا من خلال تفاعل حى، فهما يقومان بوظيفة تكاملية فى الاستخدام اللغوى المعاصر، وقد يختلطان معًا فى الحديث والاستماع.

وإذا كان ذلك كذلك فهل استطاعت البرامج التعليمية أن تقدم للطلاب مادة تعليمية مأخوذة من مصادر أصيلة authentic تعكس تنوعات العربية كما يستخدمها أبناء العربية فى مواقف اجتماعية وثقافية حقيقية؟ هل ما يقدم للطلاب داخل الفصول يعكس ما يدور من استعمال عند أبناء اللغة؟ الجواب أن الغالبية العظمى من المواد التعليمية والكتب الدراسية ظلت تقدم نوعًا واحدًا من العربية هو الفصحى المعاصرة، وتمادى بعض واضعى هذه البرامج فجعل الفصحى لغة مستخدمة فى الحوار الشفوى فى مواقف الحياة اليومية عند التسوق أو الاستعلام أو استخدام وسائل المواصلات أو مكاتب البريد أو حجز الفنادق والطيران... وبعض البرامج فصلت بين الفصحى المعاصرة والعامية وقامت بتعليمهما متزامنتين فى دروس ومقررات خاصة بكل نوع، وبعضها اقتصر على إحدى العاميات.

وظاهر أنَّ القدرة التواصلية عند أبناء اللغة ذات جانبين فصيح وعامى، والتبادل قد يقع بينهما فى الموقف الواحد، ومن ثم فإن النموذج الاتصالى فى تعليم العربية لغير الناطقين بها ينبغى أن يكون مطابقًا لهذه

القدرة الاتصالية التى تقوم على استخدام الفصحى والعامية استخدامًا تكامليًا، وتبادليًا أحيانًا.

وقد حاول منذر يونس أن يطور برنامجًا لتعليم العربية فى جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية قال إن تطويره استغرق أربع عشرة سنة، يدمج العامية فى الفصحى المعاصرة فى مقرر واحد بطريقة تعكس الاستخدام الفعلى للغة عند أهل اللغة؛ تلبية لحاجات الدارسين الذين يتعلم أغلبهم العربية، كما يتعلمون الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية، للتواصل مع أهل اللغة.

على أن بعض الباحثين المتخصصين رفض تقسيم اللغة إلى فصحى وعامية وفضل أن يسميها كماً لغويًا متصلاً طرفاه الفصحى والعامية، وتتقلص الفروق بينهما فى هذا الكم اللغوى المتصل عند المركز أو نقطة الوسط فتسقط بعض السمات المعجمية والفونولوجية من الفصحى وتحل محلها سمات فونولوجية ومعجمية من العامية فهما كلتاهما تمثلان نظامًا واحدًا من التواصل لا يمكن تقسيمه، أو هما وجهان لعملة واحدة لا يغنى أحدهما عن الآخر، ولا يمكن فصل أحدهما عن نظيره ولا إعطاؤه نصف القيمة.

ويقوم البرنامج الإدماجي عند منذر يونس على الفروق الثلاثة الآتية:

الأول: أن طلاب العربية بوصفها لغة أجنبية يهدفون إلى التمكن من مهارات اللغة كلها.

الثانى: أنَّ الفصحى المعاصرة وعامية المثقفين تشكلان نظامًا اتصاليًا متكاملاً غير قابل للتقسيم.

الثالث: أن أوجه الاتفاق بين مكونى نظام الاتصال تفوق عددًا أوجه الاختلاف، وباستبعاد عدد محدد من المفردات المختلفة بين الفصحى المعاصرة والعامية فإن أغلب الاختلافات من الممكن التنبؤ بها ويمكن التعبير عنها أو الإشارة إليها بعدد بسيط من القواعد.

وهو يرى أن هذا الإدماج يمضى على الترتيب الطبيعى لوحدة النظام اللغوى فإذا أردت أن تقسم هذا الكل فإن الجزء المقسوم يظل منقوصًا، كذلك فإن أى جزء من الكل لا يغنى عنه.

وبعد فلعله قد وضح الآن مما قدمناه فى هذا البحث أن الاتجاه التواصلى فى تعليم العربية هو أقربها إلى طبيعة اللغة واستعمالاتها عند أهلها، وهو أكثرها رعاية لحاجات الطلاب وتحقيقًا لأهدافهم، وأوفرها حظًّا فى إطلاق طاقاتهم الإبداعية، وأسرعها إنجازًا، وأوفاها على الغاية من تعلم اللغات، وهو أولاها بالقبول.

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الأستاذ الدكتور
محمود أحمد نحلة

آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر

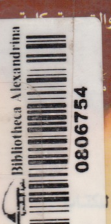
(طبعة منقحة ومزيدة)

يستشرف هذا الكتاب آفاقا جديدة في البحث اللغوى المعاصر تتجاوز الأنماط الشائعة منه مجالا ومنهجا،بحثا عن آفاق من التنظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير،ومواكبة للعصر الذى نعيش فبه.

وهو فضلا عن ذلك يقف من التراث اللغوي العربي الأصيل على أرض ثابتة،مفضلا أن يقرأه قراءة معاصرة تفيد من إتجاهات الدرس الحديث ومناهجه وطرائقه فى رصد الظواهر اللغوية ومعالجتها على نحو علمى مضبوط، تجديدا للنظر فى هذا التراث اللغوى العظيم، وكشفا عن كنوزه المخبوءة ، وبيانا لعناصر القوة فيه التى تؤكد قدرته على المثاقفة والحوار مع النظريات اللغوية المعاصرة ندا لند، ونظيرا لنظير.

المؤلف الأستاذ الدكتور/ **محمود أحمد نحلة**

- أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب / جامعة الإسكندرية.
- حصل على الدكتوراه على نظام القنوات العلمية والإشراف المشترك بين جامعتي الإسكندرية وفريدريش ألكسندر (إرلانجن - نورنبرج) بألمانيا الاتحادية
- محكم فى جوائز عالمية ومحلية، وفي بحوث مقدمة للترقية إلى درجة أستاذ أوأستاذ مساعد ، وفى بحوث مقدمةللنشر فى مجلات علمية متخصصة، داخل مصر وخارجها.
- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية الى درجة استاذ أو أستاذ مساعد (الدورة العاشرة).
- شارك فى كثير من المؤتمرات العلمية عالمية ومحلية.
- أشرف، ولايزال، على كثير من الرسائل العلمية لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه، وشارك، ولايزال، في مناقشة الكثير منها، داخل مصر وخارجها.
- عمل رئيسا لتحرير مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية مدةأربعة أعوام.
- عمل معارا وزائرا بجامعات عريقة عربية وألمانية وأمريكية
- عمل مديرا لمركز تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بكلية الآداب جامعة الأسكندرية مدة ستة أعوام.
- عمل وكيلا للكلية للدراسات العليا والبحوث مدة أربعة أعوام.
- لايزال يعمل حتى صدور هذه الطبعة من الكتاب مديرا لمعهد الدراسات اللغوية وال... بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية.
- له إنتاج علمي غزير يقوم على علم راسخ بالتراث والنظريات اللغوية الحديثة.



تباع كتبنا لدى المكتبات الكبرى :
دار المعارف - الأهرام - الأخبار - الجمهورية - الهيئة المصرية العامة للكتاب
روزاليوسف ... ودار الأم للكتاب ٢٨شارع الدقى ت :٣٣٣٥٩٧١٩